أضواء على الاقتصاد الإسلامي

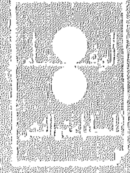
المدخل

لدراسة التاريخ الاقتصادي والحضاري

رؤية إسلامية



الدكتور حسين غانم



الطبعة الأولى

١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م



دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع - المنصورة . ش.م.م

الإدارة والمطابع : المنصورة ش الإمام محمد عبده المواجه لكلية الآداب
ت : ٣٤٢٧٧٢١ / ٣٥٦٢٢٠ / ٣٥٦٢٣٠
المكتبة : أمام كلية الطب ت : ٣٤٧٤٢٣ ص . ب : ٢٣٠ تلكس DWFA UN 24004

أضواء على الاقتصاد الإسلامي

(١١)

المدخل

لدراسة التاريخ الاقتصادي والحضاري

رؤية إسلامية

الدكتور حسين غانم

دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع - المنصورة . ش.م.م

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ..

وبعد :

فإن دراسة التاريخ ليست مجرد سرد للوقائع والأحداث ، وإنما هى دراسة تستهدف تفسير وقائع وأحداث التاريخ ، من أجل استخلاص الدروس والعبر ، التى تساعد الإنسان على التعرف على أمثل الطرق لتنظيم حياته على النحو الذى يحقق له الخير فى الدنيا والآخرة .

تتعدد المذاهب التى تحاول تفسير حركة التاريخ ، منها : مايجعل تاريخ الغرب ، وتاريخ أوربا بوجه خاص ، موجها لحركة التاريخ العالمى ، ومنها مايحاول التركيز على أهمية العوامل الاقتصادية (التفبسير المادى) فى توجيه حركة التاريخ . وهنا إلى جانب ذلك ، العديد من المذاهب الأخرى التى تبرز أهمية العوامل البيئية ، أو الجوانب الروحية فى اتجاهات الحركة التاريخية . ويعيب هذه المذاهب كلها ، أنها تتجاهل العديد من العوامل التى قد تلعب دورا رئيسيا فى توجيه حركة التاريخ .

ويختلف الإسلام فى نظرته إلى التاريخ اختلافا جوهريا عن المذاهب الوضعية . فالإسلام ينظر إلى التاريخ نظرة موضوعية وواقعية ، لا إهمال فيها لعامل من العوامل الاقتصادية أو السياسية أو الاجتماعية . ولكن الإسلام يرى ؛ أن هذه العوامل كلها لا تزيد عن كونها مجرد عوامل ظاهرية أو عوامل مشتقة (derived) من العامل الحقيقى الأوَّلِى (primary factor) وهو العقيدة .

إن استقراء وقائع وأحداث التاريخ يؤكد تأكيدا قاطعا أن العقيدة وليس

الاقتصاد أو الاجتماع أو السياسة ، هى العامل الحاسم الذى يوجه الحركة التاريخية للمجتمعات الإنسانية . فعندما تنحرف العقيدة ترتكس المجتمعات مهما بلغت من تقدم مادى (اقتصادى) ، وعندما تستقيم العقيدة يرتفع المستوى الحضارى للمجتمعات . وهذا هو التفسير الإسلامى للتاريخ ـــ وتاريخ الاقتصاد بوجه خاص ـــ ، وهو التفسير العلمى الصحيح الذى يمكن أن يعول عليه الباحثون .

لقد حاول بعض الكتاب من دعاة المذاهب الوضعية طمس حقائق التاريخ ، وتلفيق النظريات التى تحاول تفسير وقائع وأحداث التاريخ ، على النحو الذى يتفق وما يروجون له من أفكار مذهبية وأيديولوجية ، ودفعهم ذلك إلى تشويه الصورة الناصعة والوجه المشرق للإسلام والحضارة الإسلامية .

ولذلك ، فإنى أعتقد أن تاريخ العالم بأسره ، وليس تاريخ العالم الإسلامى فحسب ، بحاجة إلى أن يكتب من جديد ، على أسس موضوعية .

والدراسة الحالية محاولة متواضعة لإعادة صياغة النظرية التاريخية على هذه الأسس الموضوعية التى تتفق ـــ فى رأينا ـــ والنظرة الإسلامية إلى التاريخ .

وإنى لأعترف أن الموضوع لم يكن سهلا ، ولم تكن المهمة يسيرة ، بسبب تشعب مجالات البحث وضآلة المصادر التى تناولت تاريخ الاقتصاد من وجهة النظر الإسلامية بشكل مفصل وشامل .

تتناول الدراسة الحالية عرض ومناقشة أهم النظريات التى حاولت تفسير التاريخ الإنسانى بوجه عام ، وتاريخ الاقتصاد بوجه خاص ، ونحاول أن نعرض بعض الأفكار ، التى قد تساعد فى صياغة نظرية علمية ، تكون بمثابة البديل الإسلامي (والعلمي) للنظريات المعاصرة .

وتعتبر هذه الدراسة ، المقدمة الضرورية لدراسات أخرى تتناول تاريخ الاقتصاد فى العالم القديم ، وتاريخ أوروبا الاقتصادى والتاريخ الاقتصادى للعالم الإسلامى .

وإحقاقا للحق ، فإنى أقرر أن الفضل الأول فى اتجاهى نحو الكتابة فى النظرية التاريخية ، إنما يرجع إلى اللجنة العلمية لمركز أبحاث الاقتصاد الإسلامى (جامعة الملك عبد العزيز ـــ بجدة) . فقد عرضت على المركز فى عام ١٤٠٤هـ مشروعا

للدراسة بعنوان « تاريخ الاقتصاد والعقيدة » كنت قد أعددته فى محاضراتى لطلاب قسم الاقتصاد الإسلامى بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية بجامعة أم القرى منذ العام الدراسى ١٤٠١ ــ ١٤٠٢هـ . وقد أبدت اللجنة العلمية للمركز فى تقريرها عن المشروع بتاريخ ١٤ / ١٢ / ١٤٠٥هـ الموافق ٦ / ١١ / ١٩٨٤ م رأيا هذا نصه :

« إن الكاتب بصورة عامة ، يحاول إعادة كتابة التاريخ الإنسانى . فهو يستعرض تاريخ أوربا وفارس والجزيرة العربية .... إلخ . وكان الأجدى شرح النظرية والمنهج الذى يقدمه لتفسير التاريخ بصورة دقيقة ، ثم اختيار أحداث معينة تثبت صحة النظرية » .

وأنا لا أدعى أننى أقدم نظرية فى التاريخ ، وإنما محاولتى لاتعدو أن تكون مجرد خطوة على الطريق .

ومن الله ، أستمد العون والتوفيق ، وأدعوه سبحانه أن يجعل عملى هذا ــ وسائر أعمالى ــ خالصة لوجهه تعالى .

د . حسين غانم

الفصل الأول

التعريف بالنظرية التاريخية

يذهب كثيرون من علماء الاجتماع التاريخي إلى أن التطور هو القانون الأسمى للوجود ، ويحاول كل فريق من هؤلاء العلماء ، إبراز أهمية عامل وحيد بوصفه العامل الأساسى فى عملية التطور ، فنجد على سبيل المثال ، النزعة العنصرية والنزعة الأيديولوجية أو الفكرية ، ويركز البعض على العامل التكنولوجى ، والبعض الآخر يبرز أهمية العامل الاقتصادى ، وهناك من العلماء من يعلى من شأن العوامل السيكولوجية فى عملية التطور ، ونجد ، فضلا عن ذلك ، العديد من المذاهب الأخرى التى تحاول تفسير التاريخ ، كالمذاهب الروحية والتطورية الدينية وغير ذلك من نظريات وضعية[1] .

كثيرون من كتاب الغرب يجعلون أوروبا مركزا للإشعاع الحضارى ، ويبالغون فى الدور الذى يؤديه تاريخ القارة فى مسار الحركة التاريخية للعالم بأسره ، انطلاقا من المفاهيم (الخاطئة) عن سمو الحضارة الغربية ، ورسالة الرجل الأبيض وسيادة الثقافة الغربية . مثل هذا الاتجاه يحاول ، بطبيعة الحال ، الانتقاص من أهمية الحضارات الأخرى وخاصة الحضارة الإسلامية ، وهو اتجاه متحيز غير مقبول علميا .

إن النظرة الغربية إلى التاريخ ، نظرة إقليمية ضيقة ، تستند إلى التعصب العنصرى الذى يدفع المؤرخين والكتاب فى الغرب إلى محاولة إظهار الحضارة الغربية ، على غير الحقيقة ، وكأنها أرقى الحضارات وأسماها ، ويحاولون ، فى نفس الوقت الانحدار بما عداها من حضارات وبخاصة الحضارة الإسلامية ، إلى درجة أدنى وأحط .

يعتقد البعض أن التحامل على الإسلام وحضارته هو من مخلفات الحروب

---

(١) نعنى بكلمة (وضعية) — فى دراستنا الحالية — الأفكار والمذاهب والنظريات التى لا تستمد أصولها أو فروضها الأساسية من الإسلام .

الصليبية[٢] . والحقيقة ، أن العداء للإسلام قديم قدم الإسلام نفسه . وقد اتخذ هذا العداء صورا وأشكالا متعددة ، لعل من أخطرها ماقام به المستشرقون الأوائل فى العصور الحديثة ، وكانوا من العاملين فى البلاد الإسلامية . فقد رسم هؤلاء صورة قاتمة ومشوهة عن تاريخ الإسلام وتعاليمه ، ونجحوا بذلك فى التأثير على العقلية الأوروبية ، حتى أصبح التحامل على الإسلام والمسلمين ، غريزة موروثة ، وأصبح احتقار الإسلام جزءا أساسيا من التفكير الأوروبى[٣] .

أصيبت أوروبا ، بعد سقوط روما فى أيدى القبائل الجرمانية فى القرن الخامس الميلادى ، بنكسة حضارية ، فساد فيها التخلف والجهل طيلة عشرة قرون متتالية . وقد اعتاد كثير من الكتاب أن يطلقوا على تلك الفترة كلمة « **عصور الظلام** » دون أن يذكروا أن الأمر يتعلق بأوروبا وحدها ، دون غيرها من قارات العالم ، وكأن العالم كله ، قد عاش تلك القرون الطويلة فى ظلام دامس ، بينما يؤكد الواقع التاريخى غير ذلك تماما . فالثابت أن الإسلام ، الذى أشرقت شمسه فى القرن السابع بعد الميلاد ، قد جدد للعالـم عقيدة التوحيد ، ومفاهيم الحرية والحق والعدل والإخاء والمساواة ، مما كان له ، وللحضارة الإسلامية ، آثارا بعيدة المدى فى إيقاظ أوروبا من سباتها العميق[٤] . وهكذا يتضح فساد النظرة الغربية القائمة على فكرة الاستعلاء أو النخبة أو الصفوة ، وكلها مفاهيم عنصرية غير مقبولة علميا ، كما سيتضح لنا فى الفصول التالية .

من المذاهب الوضعية التى حاولت تفسير التاريخ أيضا ــ مذهب ماركس فى التفسير المادى ، الذى يدعى أن تاريخ البشرية هو تاريخ البحث عن الطعام ، والصراع من أجل لقمة العيش . وقد يكفى لبيان فساد هذا الزعم أن نذكر أن مصارع قوم لوط وقوم فرعون ، لم يكن وراءها عوامل أو دوافع اقتصادية (مادية) ، وإن اضطهاد ملك حمير اليهودى للمؤمنين ثم حرقهم عن بكرة أبيهم ، لم يكن

---

(٢) محمد أسد (ليوبولد فايس) الإسلام على مفترق الطرق ــ بيروت ، ص ٦٠ ــ ٦١ .

(٣) المرجع السابق .

(٤) أنور الجندى : الشبهات والأخطاء الشائعة فى الفكر الإسلامى . دار الاعتصام ــ القاهرة (ص ٢٥٥ ــ ٢٥٦) .

لأسباب اقتصادية[٥] . إن دعاة الماركسية والتفسير المادى ينكرون وجود الله ، فلا يعترفون بالدين كما أنهم لايعترفون بوجود قواعد موضوعية ثابتة للأخلاق .. يدعون أن الدين من اختراع البشر ، يطورونه ويغيرون فيه كما يريدون تبعا لتغير الأوضاع الاقتصادية .. ويدعون كذلك أن الأخلاق نسبية ، فهى مسألة متغيرة غير ثابتة ، تتشكل تبعا لتغير الظروف والمصالح الاقتصادية[٦] . وسنتناول ذلك بشىء من التفصيل فى فصل لاحق بإذن الله .

وعلى نقيض النظرة المادية المتطرفة تأتى النظرة الروحية إلى التاريخ ، وهى نظرة الأديان التى تعلى من شأن الروح كالهندوكية والمسيحية . فالتاريخ ، فى نظر تلك المذاهب ، هو نقطة ضعف البشرية وهبوطها . والإنسان يعيش بشخصية مزدوجة ، أو فى عالمين منفصلين تماما : عالم السماء وعالم الأرض . ومثله الأعلى فى السماء غير قابل للتطبيق . فواقعه البشرى ، المطبق فى عالم الأرض لا علاقة له مطلقا بمثله الأعلى الذى ينشده ، وهو نعيم الآخرة[٧] .

إن النظرة الروحية إلى التاريخ نظرة فاسدة ، إذ تتجاهل الواقع وتسبح فى الخيال . وهى أيضا تفتح الطريق إلى الطغيان والاستغلال ، فقد استطاع بعض رجال الكنيسة المسيحية فى أوروبا ، فى عصر الإقطاع ، أن يخدّروا الطبقات المغلوبة على أمرها ، من رقيق الأرض والصناع ، الذين كانوا يتعرضون لأبشع أنواع الظلم والاستغلال ، وذلك بالادعاء بأن الشقاء فى الحياة الدنيا هو سبيل الخلاص من اللعنة التى حطت على البشر بسبب خطيئة آدم ، وأن نعيم الآخرة يخفف مايعانيه المرء من ذل وشقاء فى هذه الحياة الدنيا ، الحقيرة والزائلة .

مما سبق يتضح أن المذاهب الوضعية ــ فى تفسير التاريخ الإنسانى ــ مذاهب متحيزة غير واقعية ، لا تأخذ فى الاعتبار العوامل الحقيقية المؤثرة فى حركة التاريخ . وسنرى الآن موقف الإسلام من هذا الموضوع .

---

(٥) قصة أصحاب الأخدود فى سورة البروج .

(٦) انظر : د . أحمد العوايشة : موقف الإسلام من نظرية ماركس للتفسير المادى للتاريخ . دار مكة للطباعة والنشر والتوزيع ١٤٠٢هـ ، (ص ٥١٨) .

(٧) وهذا مايراه بحق (ولفدر كانتول شميث) : مشار إليه فى المرجع السابق (ص : ٣٢٢) .

يحث القرآن الكريم على دراسة تاريخ المجتمعات الإنسانية ، واستخلاص العبر والدروس التى يمكن أن تسترشد بها البشرية ، من أجل تصحيح مسارها الحضارى على النحو الذى يحقق لها الحياة الحرة الكريمة . يقول الله تعالى : ﴿ **قل سيروا فى الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين** ﴾(٨) . ويقول عز وجل : ﴿ **أولم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها وجاءتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون** ﴾(٩) . ويقول سبحانه : ﴿ **أولم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثارا فى الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وماكان لهم من الله من واق** ﴾(١٠) .

ويبين القرآن الكريم العلاقة الوثيقة بين الاقتصاد والعقيدة ، أى بين وفرة الإنتاج والرخاء ، وبين عقيدة التوحيد واتباع منهج الله ، فيقول جل شأنه : ﴿ **ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ..** ﴾(١١) .

ومن ناحية أخرى ، يوضح القرآن الكريم العلاقة بين الكفر والإعراض عن منهج الله ، وبين التخلف والخراب والفقر فيقول الله تعالى : ﴿ **وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون** ﴾(١٢). ولما تولى قوم موسى وأدبروا معرضين ، تولت عنهم نعم الله كلها وانهارت الحضارة المادية التى صنعها فرعون وقومه . يقول عز وجل : ﴿ **كم تركوا من جنات وعيون . وزروع ومقام كريم . ونعمة كانوا فيها فاكهين . كذلك وأورثناها قوماً آخرين** ﴾(١٣) . ويقول تعالى : ﴿ **... ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون** ﴾(١٤) .

هكذا ، يرتبط الاقتصاد بالعقيدة ، كما ترتبط بها كافة الجوانب الأخرى لحياة الأفراد والمجتمعات ، من سياسية واجتماعية وثقافية ونفسية وغير ذلك من مظاهر

---

(٨) الأنعام : (١١) . (٩) الروم : (٩) . (١٠) غافر : (٢١).
(١١) الأعراف : (٩٦) . (١٢) النحل : (١١٢) . (١٣) الدخان : (٢٥ ــ ٢٨) .
(١٤) الأعراف : (١٣٧) .

حضارية[15]. وعلى هذا الأساس العقيدى ، يقوم المنهج الإسلامى فى دراسة التاريخ .

لقد شهد التاريخ الإنسانى ، قيام حضارات عديدة منذ قديم الزمان كالفينيقية والفرعونية والبابلية والآشورية والهيلينية والرومانية ، لكنها كانت كلها حضارات مادية ، تفتقر إلى الجانب الروحى الإنسانى . وعلى سبيل المثال ، فقد أحرز المصريون القدماء تقدما كبيرا فى فنون العمارة وبناء المساكن والمعابد والقبور . ومن الناحية الاقتصادية ، فقد تطورت أساليب الزراعة وأدواتها ، وابتكر المصريون من الآلات الزراعية مالايزال يستخدم فى مصر حتى الآن . وعرفت مصر القديمة فترات انتعاش اقتصادى فى كافة المجالات الزراعية والصناعية والتجارية .

هذه كلها مظاهر مادية للحضارة . أما المظاهر الروحية الإنسانية فكانت متدهورة للغاية . فقد كانت للمصريين عقائد وثنية فاسدة[16] . اعتقدوا بتعدد الآلهة ، وكان الكهنة يُؤلهون الفراعنة لخداع الشعب وإرهابه ، ولذلك لم يكن غريبا أن يقوم الحكم على الاستبداد والبطش والإرهاب المادى والفكرى ، وأن يقوم المجتمع على الطبقية واستغلال الحكام والكهنة والنبلاء لعامة الشعب ، وأن يسود الظلم الاجتماعى ، وأن يحرم الشعب من ثمار النمو الاقتصادى .

إن عقيدة التوحيد ، هى المحور الذى تدور حوله عجلة التاريخ ، منذ خلق الله آدم عليه السلام ، وحتى تقوم الساعة . ومن فضل الله على الإنسان أن أرسل رسله وأنبياءه فى كل زمان ومكان بدعوة واحدة هى دعوة التوحيد ﴿ **وإن من أمة إلا خلا فيها نذيرٌ** ﴾ [17] . ولن نتجاوز الحق أو نجافى الحقيقة إذا أكدنا أن تاريخ المجتمعات الإنسانية ، سواء كان تاريخا اقتصاديا أو اجتماعيا أو سياسياً أو حضاريا ، هو صراع بين التوحيد والشرك ، بين الإيمان والكفر ، صراع بين الحق والباطل .. بين الهدى والضلال . وفى هدى هذا التصور الإسلامى سيكون بحثنا للنظرية التاريخية إن

---

(١٥) أحمد صادق وآخرون : معالم التاريخ الإسلامى . القاهرة ، ١٩٨١ م (ص ١٢٩) . وسنعرض فيما بعد مفهوما للحضارة ، يختلف عن المفاهيم الوضعية .

(١٦) فى دراستنا الحالية ، تستخدم كلمة « الوثنية » للتعبير عن مختلف العقائد التى لاتفرد الله سبحانه وتعالى بالعبودية كعقائد الهنود والفرس واليهود والنصارى والماركسيين (الملحدين) . وذلك فيما عدا الحالات التى ينص فيها على خلاف هذا المعنى العام .

(١٧) فاطر : (٢٤) .

شاء الله .

إن النمو ، أو التنمية ، ووفرة الإنتاج والأرباح والثروة ، كل ذلك لا قيمة له ، ولا نسميه رُقيا ولا تقدما فى مجتمع خرج من عبوديته لله واتخذ إلهه هواه ، فالتقدم ـــ أو التخلف ـــ لايقاس بحجم الناتج القومى أو بمتوسط الدخل الفردى ، أو بمعدلات النمو الاقتصادى أو بغير ذلك من المقاييس المادية المضللة ، وإنما يقاس التقدم أو التخلف بقيمة العقيدة والإيمان ومدى الالتزام بمنهج الله وشرعه .

إن العوامل الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والسياسية عوامل متفاعلة ، تؤثر كل منها فى الأخرى وتتأثر بها ، إلا أن كافة تلك العوامل تؤول فى نهاية التحليل إلى العامل الحاسم وهو العقيدة .

إن المجتمع الذى يقوم على الطبقية ، مجتمع يسوده الطغيان والاستبداد والظلم الاجتماعى وسوء التوزيع والاستغلال . وهذه كلها عوامل سلبية مدمرة للنمو الاقتصادى ، إذ تؤدى فى النهاية إلى تدهور الأوضاع الاقتصادية . حدث هذا فى المجتمع الأوروبى فى العصور الوسطى فى ظل نظام الإقطاع . وهكذا ، يتأثر الاقتصاد بالتركيب الطبقى للمجتمع ، أى أن العوامل الاجتماعية تؤثر فى الاقتصاد ، كذلك يتأثر الاقتصاد بالعوامل السياسية . فالعنصرية التى يقوم عليها المجتمع ، تدفعه إلى السيطرة على الشعوب واستعمارها لسلب مواردها وتدمير اقتصادياتها . ولكن العوامل الاقتصادية تؤثر أيضا فى الأوضاع السياسية والاجتماعية ، ففى عهد الامبراطورية الرومانية ، كانت تفرض الضرائب الثقيلة على صغار المزارعين مما دفعهم إلى هجرة الأرض والنزوح إلى المدن . ولم تكن تتوفر بالمدن فرص عمل كافية لاستيعاب هؤلاء المزارعين ، الأمر الذى دفع العديد منهم إلى احتراف السرقة وأعمال قطع الطرق ، وكان ذلك أحد العوامل التى أدت إلى انهيار الإمبراطورية .

من ذلك يتضح أن العوامل الاقتصادية والسياسية والاجتماعية ، تؤثر كل منها فى الأخرى وتتأثر بها ، فهى عوامل متفاعلة فيما بينها ، ولكن هذه العوامل جميعها ليست سوى عوامل ظاهرية ، مشتقة من عامل أوَّلِى هو العقيدة . فالطبقية وما تؤدى إليه من طغيان واستبداد وظلم واستغلال ، والعنصرية وما تدفع إليه من استعمار الشعوب وإذلالها وسلب مواردها وتدمير اقتصادياتها ، كل ذلك إنما يرجع

إلى انحراف العقيدة وفسادها .

لقد كان المجتمع الرومانى مجتمعا وثنيا ، يعلى من شأن العنصرية ويؤمن بتفاضل الأجناس ، ولذلك اندفع الرومان فى استعمار شعوب العالم القديم ، واستنزاف مواردها وتخريب اقتصادياتها . كذلك كانت انحرافات الكنيسة عن عقيدة التوحيد وتسويغها للنظام الإقطاعى ، العامل الحاسم فى الركود الاقتصادى الذى ساد أوروبا فى العصور الوسطى .. وما تعانيه البلاد الإسلامية ، فى الوقت الحاضر من فقر وتخلف اقتصادى إنما يرجع إلى الانحراف عن منهج الله .

إن القضية الكبرى هى قضية العقيدة والإيمان ، والصراع الحقيقى هو صراع بين الحق والباطل . وذلك منذ اللحظة الأولى لحياة الإنسان على الأرض وحتى تقوم الساعة .

استجاب آدم لإبليس بعد أن أغراه بالخلد وبالملك الذى لايبلى ، وتأتى رحمة الله فيتوب على آدم ، عليه السلام . وبعد ذلك تبدأ قصة الحياة والصراع . ﴿ **قال اهبطا منها جميعا بعضكم لبعض عدو فإما يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى . ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى** ﴾(١٨) .

ويبين القرآن الكريم أن القوة الاقتصادية التى يبلغها شعب من الشعوب ، لا تلبث أن تتداعى وتنهار عندما يعرض الناس عن منهج الله ... انهار سد مأرب وأصيبت الزراعة بالركود وتفرق أهل سبأ بسبب كفرهم وإعراضهم . وعندما صمم أصحاب الجنة(١٩) على حرمان المساكين من العطاء أصبحت الجنة كالصريم ، أى كالليل الأسود ، فتحولت ثمارها إلى هشيم وحرموا خير جنتهم بذنبهم . وتأتى قصة صاحب الجنتين ، فى سورة الكهف ، لتبين أن الغرور الذى يبعثه سحر المال فى نفس الإنسان ، يدفعه إلى الاستعلاء والكبرياء ويقوده إلى الكفر ، ولكن الله ، جلت قدرته ، يمحق ماله ويدمر قوته المادية (الاقتصادية) فلا يجد من دون الله وليا ولا نصيرا . وكان أهل مدين يطمعون فى تحقيق أقصى ربح ممكن ، ضعفاً فى الإيمان بأن

---

(١٨) طه : (١٢٣ — ١٢٤) .

(١٩) سورة القلم .

الله هو الرزاق ، وأن الرزق الحلال خير كله ، فكانوا ينقصون الكيل والميزان ويبخسون الناس أشياءهم ويفسدون فى الأرض ، ولم يستجيبوا لشعيب ، رسول الله ، فأخذتهم الصيحة وأصبحوا فى ديارهم جاثمين[٢٠] .

هذه أمثلة من التاريخ الاقتصادى القديم ، وهى أمثلة حية تتجدد وقائعها وأحداثها فى كل زمان ومكان ، ولعلنا نلحظ أن القصص القرآنى يركز دائما على الجانب العقدى باعتباره العامل المؤثر فى الاقتصاد . يقول تعالى : ﴿ **وإلى مدين أخاهم شعيبا قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره** ﴾[٢١] . ويقول سبحانه : ﴿ **قال له صاحبه وهو يحاوره أكفرت بالذى خلقك من تراب** ﴾[٢٢] ويقول جل شأنه : ﴿ **قال أوسطهم ألم أقل لكم لولا تسبحون** ﴾[٢٣] . فالدمار الاقتصادى ناشيء عن انحراف العقيدة وفسادها .

نستنتج من كل ماسبق ، أن الاقتصاد يرتبط بالعقيدة ، وعندما تستقيم العقيدة ، يتحقق الرخاء العادل[٢٤] ، وعندما تنحرف العقيدة يكون الدمار والتخلف[٢٥] . وهذا هو أساس النظرية التاريخية كما يؤكده استقراء وقائع وأحداث التاريخ الاقتصادى .

ومن الجوانب الهامة للنظرية التاريخية ، أن الدمار الاقتصادى الذى يلحق بالانسان ، الفرد أو المجموع ، بسبب الانحراف عن عقيدة التوحيد ومنهج الله ، قد يقع نتيجة لعوامل تبدو فى ظاهرها وكأنها مسألة كونية تحدث عشوائيا أو بطريق المصادفة ، دون أن يكون وراءها هدف محدد ، ولكن الحقيقة غير ذلك تماما . فلا عشوائية فى الكون ولا مصادفة وإنما يسير كل شيء فيه بمقتضى سنة الله ومشيئة . وجنود الله لايعلمها إلا هو ، يسلطها على المارقين الخارجين عن طاعته . فالصيحة التى أخذت أهل مدين ، وسيل العرم الذى دمر سد مأرب ، وطائف الليل الذى أحال الجنة إلى رماد ... كل ذلك قدر الله ومشيئته . ونعبر عن ذلك . فنقول : إن

---

(٢٠) سورة هود .
(٢١) هود : (٨٤) .
(٢٢) الكهف : (٣٧) .
(٢٣) القلم : (٢٨) .
(٢٤) أى العمارة ، بالمصطلح الإسلامى .
(٢٥) أى الخراب ، بالمصطلح الإسلامى .

العوامل الكونية متغيرات داخلية (endogenous variables)، وليست ، كما تذهب النظرية الوضعية ، مجرد متغيرات خارجية (exogenous) .

إن الكوارث الاقتصادية التى تحل بشعب من الشعوب لا تقع بطريقة عشوائية أو ارتجالية . وفى عصرنا هذا نسمع عن الآفات الزراعية وعن الفئران التى تتكاثر بطريقة مذهلة فتهلك الزرع والثمار ، عقابا ينزله الله على الطغاة المستبدين وعلى المستضعفين الراضخين للاستبداد .

ومن جوانب النظرية التاريخية أيضا ، أن المسار التصاعدى لحركة التاريخ الاقتصادى لا يتوقف على مجرد الالتزام بجانب المعاملات من شريعة الإسلام ، وإنما يجب أن يكون هذا الالتزام منبثقا عن تصور صحيح لمعنى الربوبية والألوهية . فلا يكفى أن يقوم مجتمع ما بإلغاء المعاملات الربوية أو بتحريم الخمر ولحم الخنزير ، لكى يصبح اقتصاد هذا المجتمع اقتصادا إسلاميا ، يمكن أن يسهم إيجابيا فى النمو المطرد والمتصاعد لحركة التاريخ . إن الالتزام بالشريعة وما تتضمنه من قواعد الاقتصاد الإسلامى يجب أن يكون منبثقا عن إدراك كامل لعقيدة التوحيد ولما تعنيه من تصور كامل وصحيح للكون والحياة .

وحين يلتزم الإنسان ، الفرد أو المجموع ، بمنهج الله ، يكون التنافس فى العمل الصالح . أما حين ينحرف عن منهج الله ، ينقلب التنافس إلى صراع ، فيكون صراعا على السلطة والحكم ، أو على المادة والاقتصاد أو لغير ذلك من الأسباب . ولكنه فى نهاية التحليل ، صراع ناشىء عن فساد فى العقيدة . ومن ذلك يمكن القول بأن الصراع الاقتصادى ، أو السياسى أو الاجتماعى ، الذى قد يشهده التاريخ ، فى مجتمع ما ، فى زمن ما ، إنما هو مظهر للصراع الحقيقى الدائر بين التوحيد والإيمان والالتزام بمنهج الله من جانب ، والشرك والكفر والإلحاد والخروج عن منهج الله من جانب آخر .

لم تقم الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩ م من أجل الخبز فقط كما يزعمون ، وإنما قامت لأسباب أخرى متعددة منها : استبداد الملك لويس الرابع عشر الذى كان يؤمن أو يدعى بحق الملوك الإلهى المقدس فى الحكم وكان يقول : « أنا الدولة » . وقامت الثورة أيضا لأن لويس الخامس عشر كان منغمسا فى الشهوات وترك لعشيقاته

تصريف أمور الدولة ، الأمر الذى ترتب عليه ضياع هيبة فرنسا فى حرب السنين السبع (١٧٥٦ ـــ ١٧٦٣) . هذا فضلا عن الفساد الإدارى وانتشار الرشوة والمحسوبية واستغلال النفوذ . لكل هذه الأسباب وغيرها ، قامت الثورة الفرنسية . ويكون من الخطأ القول بأن العامل الاقتصادى كان العامل الوحيد ، أو حتى الرئيسى فى قيام الثورة ، وإنما الصحيح أن كافة العوامل الاقتصادية وغيرها ترجع إلى فساد العقيدة وانحرافها .

والحرب ضد الإسلام والمسلمين ، هى حرب عقيدة ولو كان ظاهرها الاقتصاد أو السياسة . يقول تعالى : ﴿ **ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم** ﴾[٢٦] . ويقول جل شأنه : ﴿ **ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا حسدا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق** ﴾[٢٧] .

تقوم النظرية التاريخية المستمدة من استقراء وقائع وأحداث التاريخ والتى يؤكدها الإسلام ، على فكرة المداولة ، وهى فكرة ديناميكية ترمى إلى تمحيص المجتمعات الإنسانية بالابتلاء وإثارة الصراع الدائم بينها . يقول الله تعالى : ﴿ **قد خلت من قبلكم سنن فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين. هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين . ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين . إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين . وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين. أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين** ﴾ [٢٨] .

يدعو الإسلام إلى الإيجابية لأن الإسلام بإيجابيته ـــ يستطيع أن يدفع بحركة التاريخ نحو الارتقاء ، فيحقق بذلك النمو الحضارى بجانبيه ـــ المادى والإنسانى ـــ أى النمو المتوازن . ولن يتأتى ذلك إلا فى إطار الإسلام : عقيدته وشرعه . ومع ذلك يتهم المستشرقون شعوب الشرق الإسلامى بالسلبية والجمود والتواكل والتمسك بالعادات القديمة الموروثة ، وانعدام عبقرية الا راع لديها ، ويدّعون أن التخلف الاقتصادى

---

(٢٦) البقرة : (١٢٠) .
(٢٧) البقرة : (١٠٩) .
(٢٨) آل عمران : (١٣٧ ـــ ١٤٢) .

والاجتماعى فى العالم الإسلامى ، ناشىء عن خضوع الأهالى للمبادىء الدينية وعقيدة القضاء والقدر ، وأنهم ينظرون إلى أى تغيير فى سبيل الإصلاح على أنه مهاجمة للعقيدة المسيطرة على العقول .

هذا محض افتراء ، ولا ينم إلا عن حقد دفين على الإسلام والمسلمين . فتاريخ الإسلام الحضارى يكذب هذا الادعاء ويدحضه ، والإسلام — كما رأينا — يدعو إلى الإيجابية ... يدعو إلى العمل ويحث على الابتكار والتجديد ، والأخذ بأسباب التقدم العلمى والتكنولوجى . وسنرى فيما بعد أن الأسباب الحقيقية التى أدت إلى التخلف الاقتصادى للعالم الإسلامى ، إنما تكمن فى ابتعاد المسلمين عن دينهم وعدم تمسكهم بالمبادىء والقيم الإسلامية .

بعد هذا العرض التمهيدى لبعض اتجاهات الفكر الإنسانى فى دراسة التاريخ نستطيع أن نفهم ما نعنيه بالنظرية التاريخية . فالباحث الذى يستعرض وقائع التاريخ يحاول أن يتعرف على الكيفية التى وقعت بها تلك الوقائع ، وأن يحدد مكوناتها ومفرداتها ثم يحاول الإجابة عن السؤال : لماذا حدثت ؟ فهو إذن يحاول تفسير التاريخ وأن يضفى على هذا التفسير صفة العمومية والانتظام . فالباحث — فى النظرية التاريخية — يحاول الكشف عن أنماط التكرار والتردد فى وقوع الأحداث — كالحروب مثلا — من حيث نشأتها ، ودوافعها الحقيقية ونتائجها .

إن النظرية التاريخية تستهدف — بوجه عام — تفسير الوقائع والأحداث التاريخية وتهتم — بوجه خاص — بالعوامل المسئولة عن ازدهار الحضارات وأفولها .

الفصل الثانى

الاقتصاد ومفهوم الحضارة

يستخدم البعض كلمة الحضارة كمرادفة للتقدم الاقتصادى والتكنولوجى — أى التقدم المادى — ويفرق البعض الآخر بين الحضارة والثقافة ، ويذهب فريق ثالث إلى أن للحضارة مفهوما واسعا يشتمل على الجوانب الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والسيكولوجية من حياة المجتمع .

يفرق الفريد فيبر (Alfred Weber) بين الحضارة والثقافة . فالحضارة تشير إلى الأدوات التى يستخدمها الإنسان لإخضاع واستغلال الموارد المادية ، وتتمثل فى تطور العلوم الطبيعية ونمو التكنولوجيا . أما الثقافة — أو العملية الثقافية — فإنها تتميز بالإبداعية التى تنعكس فى الفن والدين والفلسفة . ويتفق تعريف (فيبر) — تقريبا — مع تعريف (Maciver) الذى يرى أن الحضارة هى : النشاطات التى يستعين بها الإنسان فى تحقيق أغراضه وخاصة التكنولوجيا ، بينما الثقافة ، تعنى كافة العمليات التى يضفى عليها الإنسان قيما معينة . والثقافة — عند (فيبر) — تنمو وتزدهر فى شكل موجات متكررة [1] . وقد ذهب كثيرون غيره هذا المذهب كما سنرى فيما بعد .

ويأخذ (الجندى) بالتفرقة بين الحضارة والثقافة . فالحضارة تشتمل على المظاهر المادية من حياة الإنسان ، بينما تشتمل الثقافة على المظاهر المعنوية كالعادات والعواطف والسلوكيات . وبهذا المفهوم ، تصبح الحضارة ملكا للإنسانية جمعاء ، ومن حق الشعوب أن تقتبس من بعضها مظاهر الحياة المادية . أما الثقافة فإنها قومية بطبيعتها . فالثقافة الغربية — مثلا — تستمد مقوماتها من الفلسفة الإغريقية والقانون

---

(1) Nicolas, S. Timasheff: Sociolojical Theory: ils Nature and Growth. 1967.

(ترجمة الدكتور محمود عودة وآخرين . دار المعارف بالقاهرة (١٩٨٢) . ص (٤١٤ — ٤١٥) .

الرومانى والفكر المسيحى ، بينما تستمد الثقافة العربية مقوماتها من الإسلام (٢) .
ويأخذ كثيرون من كتاب المسلمين بهذه التفرقة بين الحضارة والثقافة .

وعلى نقيض هذا الاتجاه — الذى يفصل بين الحضارة والثقافة — يوجد اتجاه آخر ، يجعل الثقافة جزءا من الحضارة . فالحضارة عند (Ward) تمثل كافة إنجازات الإنسان التى يتوصل إليها بطريق المعرفة ، سواء كانت إنجازات مادية ، أو كانت مقصورة على الجانب الإنسانى . وهذه الأخيرة هى التى يطلق عليها مصطلح الثقافة (٣) .

ويذهب فريق من علماء الاجتماع المحدثين إلى إضفاء معنى شامل لكلمة الحضارة ، التى تمثل — فى هذا المعنى — كافة أنماط السلوك والتفكير والمعاملات التى تصطلح عليها الجماعة فى حياتها ، والتى تتناقلها الأجيال المتعاقبة عن طريق الاتصال والتفاعل الاجتماعى — لا عن طريق الوراثة البيولوجية . وبهذا المعنى الشامل ، تكون للحضارة جوانب اقتصادية مادية ، وجوانب ثقافية وروحية وسيكولوجية واجتماعية . فالجانب الاقتصادى يشتمل على ماينجزه المجتمع من أدوات يستهدف بها استغلال الموارد الطبيعية ، كالسدود والمبانى والطرق ، وتعتبر الأساليب والأدوات التكنولوجية من أهم عناصر الجانب الاقتصادى للحضارة . ويشتمل الجانب الثقافى من حضارة المجتمع على كل ما يتصل بمجال الفكر والمعلومات والخبرات . أما القوى الدافعة لسلوك الأفراد والجماعات ، والعوامل التى تسهم فى تكوين العواطف والاستجابات ومصادر الطمأنينة النفسية وأحاسيس الانتماء إلى الجماعة ، ووسائل الاعتراف بكيان الفرد ، فهذه كلها تمثل الجانب السيكولوجى للحضارة . كذلك فإن العقيدة وما يتصل بها من تصور للعلاقة بين الإنسان وربه ، ولحياته الحاضرة والمستقبلة ، وللهدف النهائى من خلقه — كل ذلك يمثل الجانب الروحى للحضارة . وأما الجانب الاجتماعى للحضارة فيشتمل على كل مايتخذه المجتمع من تنظيم لحياة الناس ، وللعلاقات التى تنشأ بينهم فى محيط الأسرة ،

(٢) الشبهات والأخطاء . مرجع سابق . ص (١٧) ومابعدها . ونحن نرى أن للحضارة مفهوما أرحب مما أخذه هؤلاء الكتاب . وعلينا أن نلاحظ أن مظاهر الحياة المادية والاقتصادية تختلف باختلاف العقائد ، ومن ثم فإنها ليست قابلة للاقتباس على نحو مايذهب البعض . وسنرى ذلك فى الفصل الحادى عشر بإذن الله .

(٣) تيماشيف . مرجع سابق . ص (١٢٨) .

وعلاقة الفرد بالجماعة ومدى التماسك أو التفسخ الاجتماعى (٤) .

ونحن نميل بوجه عام إلى الأخذ بهذا المفهوم الشامل للحضارة . فنرى أن الحضارة ذات جوانب ثقافية وسيكولوجية واجتماعية وروحية (عقائدية) ، ولو أننا نعتقد أن الجانب الروحى يمثل عاملا مستقلا ، إذ يؤثر فى الجوانب الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والسيكولوجية . وسنناقش ذلك فى فصول قادمة إن شاء الله .

إن مايذهب إليه (فيبر) وغيره من علماء الاجتماع ، من الفصل بين الحضارة والثقافة ، غير مقبول لأن الحضارة ــ بالمفهوم المادى الذى يذهب إليه هؤلاء العلماء ــ ليست متحررة تماما عن الثقافة ، لأن الحضارة تتأثر بكل تأكيد بما يحرزه الإنسان من تقدم أو تخلف فى المجالات الفكرية .

ويرى (أوجست كونت) أن التاريخ يحكمه نمو الأفكار ويوجهه ، ومن ثم ، فإن التقدم يكون أظهر مايكون فى مجال العلوم الطبيعية والسيطرة على قوى الطبيعة ، فالنمو العقلى يؤدى إلى التقدم المادى .

ومن ناحية أخرى ــ تتأثر تلك المجالات بصورة أو بأخرى ، بما يحرزه المجتمع من تطور علمى وتكنولوجى فى مجالات النشاط الاقتصادى . ويقول (j. Hicks) : إن هناك خيوطاً تجرى بين الاقتصاد وغيره من المجالات الاجتماعية ، فتصل بينه وبين السياسة والعلم والتكنولوجيا والعقيدة ، فتتأثر تلك المجالات بالاقتصاد ثم ترتد لكى تؤثر بعد ذلك فى الاقتصاد (٥) . والواقع أن التأثير متبادل بين الاقتصاد والاجتماع والسياسة وغير ذلك من مجالات النشاط الإنسانى .

على أن الحقيقة التى ينبغى التأكيد عليها هى : أن الدين (أو العقيدة) ، هو العامل الحاسم الذى يوجه نشاط الإنسان فى مجالات الاقتصاد وفى غير مجالات الاقتصاد . وقد ذكرنا فى الفصل الأول من الكتاب ، أن التاريخ الإنسانى شهد قيام

---

(٤) د . حامد عمار : بعض مفاهيم علم الاجتماع . معهد الدراسات العربية العالية بالقاهرة ، ١٩٥٩ . ص (٧) ومابعدها .

(5) (There are threads that run from economics into other social fields; into politics. into religion, into science, intoTechnology. They develop there and then run back into economics). John Hicks; Theory of Economic History . London 1973. p. 167 .

حضارات مادية عديدة ، كانت تفتقر إلى الجانب الروحى ... شهدت دولة الإغريق حضارة مادية (ونحن نطلق هنا كلمة حضارة ـــ من قبيل المجاز لا الحقيقة ـــ والصحيح أنها شهدت تقدما ماديا) . ولكن المعلوم أن المجتمع الإغريقى كان يقوم على العنصرية والطبقية ، وكان يسوده الطغيان والاستبداد والظلم الاجتماعى ، بسبب فساد العقيدة . كانت عقيدة الإغريق وثنية ، لا تفرد الله الواحد بالعبودية ، وكان الكهنة يساندون هذا الاتجاه الوثنى ـــ تحقيقا لمصالح دنيوية زائلة . جعلوا للناس آلهة متعددة تتصارع وتتقاتل ، وتعبث وتتلهى وتخطف النساء ، وتأكل الطعام وتشرب الخمر وتعشق الموسيقى ! .

ولا شك أن هذا الفساد العقدى كان العامل الحاسم الذى قوض دعائم المجتمع الإغريقى . وسنبحث ذلك بشىء من التفصيل بإذن الله فى دراسة لاحقة .

إن التقدم المادى (الاقتصادى) إذا تحقق فى غياب عقيدة التوحيد ومقتضياتها ـــ الإيمانية والتعبدية والتعاملية والأخلاقية ـــ يؤول فى النهاية إلى الطغيان والظلم والاستغلال ، ولا يلبث أن تنهار مظاهر التقدم ، ويقع المجتمع فى براثن التخلف والخراب والضياع . وإن النفس البشرية إذا بهرها سحر المادة ، فأصبحت المادة إلها يعبد من دون الله ، تهبط إلى الحضيض ، فتختل القيم الإنسانية ، وتمتهن كرامة الإنسان وتتفكك الروابط الاجتماعية ، وينتشر الفساد فى مجالات الحياة الاقتصادية والاجتماعية ، وتعم الفوضى ويضطرب الأمن وينعدم الاستقرار . وهذه كلها عوامل مدمرة للاقتصاد والحضارة معا .

وهكذا تمر المجتمعات الوثنية بدورات من التقدم المادى ، عندما تأخذ بأسبابه العلمية والتكنولوجية ، ثم يعقبه التخلف والانهيار بسبب فساد العقيدة الذى يؤثر فى الجوانب الاجتماعية والثقافية ، ومن ثم ينهار المجتمع فى جانبه الاقتصادى . وإن التاريخ الإنسانى القديم والحديث خير شاهد على ذلك . وقد أوردنا من قبل ما يؤكد هذه الحقيقة من تاريخ الحضارات الفرعونية والإغريقية القديمة . وفى عالمنا المعاصر نجد أن المجتمعات الرأسمالية أو المجتمعات الاشتراكية التى تسمى متقدمة ـــ بالمفهوم المادى ـــ مجتمعات وثنية ، لا تؤمن بعقيدة التوحيد الخالص ، أو إلحادية تنكر وجود الله تماماً . وفى هذه المجتمعات يشيع الانحلال الخلقى ويعم الفساد والظلم

الاجتماعى ، الأمر الذى يجعلها تفتقر إلى المقومات الحضارية .

إن التقدم المادى لا يمكن أن نسميه حضارة إلا إذا صاحبه تقدم اجتماعى . بل إننا نخطىء إذا تصورنا أن المجتمعات المعاصرة متقدمة ماديا ــ أى اقتصاديا وتكنولوجيا ــ إذ ينبغى للحكم على التقدم المادى أن نأخذ فى الاعتبار كافة الآثار السلبية لهذا التقدم نفسه ، وذلك طبقاً لتحليل التكلفة ــ المنفعة ــ Cost) (benefit analysis . فالتقدم المادى المعاصر تفوق تكلفته ثماره الإيجابية . وقد يكفى لبيان ذلك ، أن نشير إلى تقرير الخبراء فى مؤتمرات التنمية التى تتتابع منذ عام ١٩٧١ م ، والتى تؤكد ارتفاع معدلات التلوث البيئى والبيولوجى ، وتزايد سرعة نضوب الموارد الطبيعية ، وتقلص الأرض الزراعية أو ما يطلق عليه تصحر الأرض أو زحف الصحراء . وتوضح تقارير الخبراء أيضا أن الحياة الإنسانية والحيوانية والنباتية ، أصبحت مهددة بالفناء على سطح الأرض . فالأسمدة والمركبات الكيماوية الأخرى التى تستخدمها الصناعات القذرة ، Dirty industries يتطاير رذاذها إلى طبقات الجو العليا ، الأمر الذى يتسبب عنه تقلص غاز الأوزون الذى يحيط بالغلاف الجوى ، والذى يمنع نفاذ الأشعة الكونية (فوق الحمراء) ــ المدمرة للحياة ــ إلى سطح الأرض .

وإذا أضفنا إلى هذا الدمار البيئى ، ما تواجهه المجتمعات المعاصرة من مشكلات اقتصادية حادة ــ كالتضخم والبطالة وأزمات الغذاء ــ وما تواجهه من مشكلات اجتماعية ــ كالانحلال الخلقى وانتشار الجرائم ــ فإننا نجد أن الآثار السلبية للتقدم المادى تفوق فى تكلفتها الآثار الإيجابية ، الأمر الذى يجعلنا نتردد كثيرا فى إطلاق وصف التقدم على المجتمعات المعاصرة .

فى ضوء ماسبق ، نستطيع القول بأن للحضارة مكوناتها المادية والاجتماعية والثقافية السيكولوجية ، وسنرى بإذن الله من خلال دراستنا فى الفصول التالية أن الدين ــ (أو العقيدة بكل مقتضياتها الإيمانية والتعبدية والتعاملية والأخلاقية) ــ هو العامل الحاسم والحاكم الذى تنبثق عنه سائر المكونات الحضارية . إن الدين هو الصلة بين الإنسان وخالقه . وتقوم عقيدة الإسلام على الحقيقة اليقينية ، التى مؤداها أن لهذا الكون إلها واحدا خالقا ومهيمنا على خلقه . وعلى الإنسان أن ينصاع لأوامره

سبحانه وأن يجتنب نواهيه ، أى عليه أن يلتزم بمنهج الله فى كافة مجالات الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية . وعندما يتحقق هذا الالتزام من جانب الإنسان — الفرد والمجموع — يحرز تقدما حضاريا ، أى يتحقق نموه الحضارى المتوازن . أما إذا انحرف الإنسان عن منهج الله ، فإنه ينتكس حضاريا — أى يختل مساره الحضارى — بغض النظر عن درجة التقدم المادى ، الاقتصادى والتكنولوجى . فقد يستمر المنحنى الاقتصادى والتكنولوجى فى اتجاهه التصاعدى على الرغم من اتجاه المنحنى الحضارى اتجاها تنازليا فترة من الزمن ، ولكنَّ هذا الاتجاه التصاعدى للمنحنى الاقتصادى والتكنولوجى يتوقف بعد ذلك ثم يتجه نحو الهبوط . ولعل تاريخ العالم الإسلامى يشهد بهذه الحقيقة التى سنرى تأكيدا لها فيما بعد بإذن الله .

يصف الغرب الرأسمالى الدين بأنه (لاهوت) ، أى أنه مجرد صلة بين الإنسان وربه ، دون أن تؤثر تلك الصلة فى توجيه حركة الإنسان فى مجالات حياته الاقتصادية والاجتماعية والسياسية . وهكذا يستبعد الغرب الدين — بهذا المفهوم — من أمور الدنيا . أما الشرق الشيوعى أو الاشتراكى فإنه ينكر الدين من أساسه فلا يعترف بوجود الله الواحد الخالق المهيمن . ويترتب على هذا الاختلاف الأساسى فى أصل العقيدة بين الإسلام من جانب ، والمذاهب الوضعية من جانب آخر ، نتائج على درجة كبيرة من الأهمية ، تؤثر فى تصور العلاقة بين الإنسان والكون الذى يعيش فيه ، الأمر الذى يؤثر بدوره فى أنماط السلوك الإنسانى فى كافة مجالات الحياة الاقتصادية والاجتماعية السيكولوجية .

إن ازدهار الحضارة أو أفولها ، أمور ترتبط ارتباطا وثيقا بصحة العقيدة أو فسادها . ولا نعنى بازدهار الحضارة مجرد التقدم المادى وإنما نعنى — وكما سبق القول — رقى الحياة الإنسانية فى كافة مجالات النشاط الاقتصادى والاجتماعى . لقد ذهب البعض وبحق ، إلى أن الإسلام هو الحضارة ... تتحقق الحضارة وتزدهر عندما يطبق المجتمع منهج الإسلام ، أى عندما تسوده وتهيمن على سلوك أفراده عقيدة التوحيد بكل مقوماتها الإيمانية والتعبدية والتعاملية والأخلاقية [٦] . يقول (سيد قطب) :

---

(٦) معالم فى الطريق . دار الشروق . ص (١٠٥) وما بعدها .

« ... وحين تكون آصرة التجمع الأساسية فى مجتمع ، هى العقيدة والتصور والفكرة ومنهج الحياة ... ويكون هذا كله صادرا من إله واحد ، تتمثل فيه السيادة العليا للبشر ، وليس صادراً من أرباب أرضية تتمثل فيها عبودية البشر للبشر .... يكون ذلك التجمع ممثلا لأعلى ما فى الإنسان من خصائص ... خصائص الروح والفكر ... فأما حين تكون آصرة التجمع فى مجتمع هى الجنس واللون والقوم والأرض .. وما إلى ذلك من الروابط ، فظاهر أن الجنس واللون والقوم والأرض لا تمثل الخصائص العليا للإنسان »[٧] .

ويفرق (سيد قطب) بين نوعين من الثقافة : ثقافة ترتبط بالعلوم البحتة كالكيمياء والطبيعة والأحياء والفلك والطب والزراعة والصناعة ، وهذه الثقافة عالمية ، بمعنى أن المجتمع المسلم يملك أن يتلقاها عن غيره من المجتمعات غير الإسلامية ، ولكن بشرط ألا تتجاوز تلك الثقافة نطاق القوانين الموضوعية ، فلا تتعداها إلى الفروض والنظريات التى تحاول تفسير تلك القوانين لأن الفروض والنظريات تتأثر بالتصورات العقائدية لأصحابها . وهذا صحيح بكل تأكيد . ومن الأمثلة على ذلك نظرية (داروين) فى النشوء والارتقاء [٨] . أما النوع الثانى من الثقافة فهو الذى يختص بأمور العقيدة والعبادات والمعاملات والقيم الإنسانية . وهذه الثقافة ذات طابع قومى ، بمعنى أن المجتمع المسلم لا ينبغى له أن يتلقاها عن غيره من المجتمعات الوثنية .

يتحدث علماء التاريخ عن حضارة الإغريق وحضارة الرومان وعن الحضارات الفرعونية والشرقية . لقد اشتهر الإغريق بالجدل الفلسفى والسياسى ، واشتهر الرومان بالتشريع . كذلك فقد برع المصريون فى فنون البناء والتحنيط . ومع ذلك ، لا ينبغى أن نسمى ذلك حضارة ، لقد كانت عقائد الإغريق والرومان عقائد وثنية ، تؤمن بتعدد الآلهة وتفاضل الأجناس ، كما كانت عقيدة المصريين القدماء منحرفة . ومن ثم لا ينبغى أن نطلق كلمة « حضارة » لمجرد تفوق المجتمع فى جانب أو أكثر من الجوانب الفنية أو الثقافية .

---

(٧) المرجع السابق . ص (١٠٨ ــ ١٠٩) .

(٨) المرجع السابق . ص (١٢٣) ومابعدها . وانظر أيضا فصلا لاحقا بعنوان الداروينية الاجتماعية .

إن التقدم المادى أو الاقتصادى يتوقف على مدى مايحرزه المجتمع من تقدم فى العلوم الكونية والطبيعية ، وما يحققه من تطور تكنولوجى فى مجالات الكشف عن الموارد الطبيعية وأساليب استغلالها . وهذا التقدم الاقتصادى ذو طبيعة تراكمية (accumulative)لأن ما يحرزه جيل معين من تطور علمى وتكنولوجى ، إنما يتوقف على محصلة ما حققته الأجيال السابقة من هذا التطور . وهكذا تستطيع المجتمعات البشرية أن تحرز تقدما ماديا عندما تأخذ بأسبابه . على أن الأمر الذى نسترعى إليه الانتباه ، هو أن هذا التقدم المادى يتوقف من حيث الكم والكيف على تصور الإنسان لطبيعة علاقته بالكون . وهذا التصور يتوقف بدوره على عقيدة الإنسان . ومعنى ذلك أن مايحققه مجتمع يؤمن بعقيدة التوحيد ــ من تقدم فى الجانب الاقتصادى ، الذى يحرزه مجتمع تسوده وتهيمن عليه عقائد وثنية .

إن الفرض الأساسى الذى يدور حوله بحثنا الحالى للنظرية التاريخية يتلخص فيما يلى : تزدهر الحضارة ويرتفع المستوى الحضارى ، أى ينمو المجتمع نموا حضاريا متوازنا فى كافة جوانب الحياة الإنسانية ؛ عندما تسوده وتهيمن عليه عقيدة التوحيد بكل مقوماتها الإيمانية والتعبدية والتعاملية والأخلاقية ، أى عندما يلتزم الإنسان ــ الفرد والمجموع ــ بمنهج الإسلام . أما عندما ينحرف المجتمع عن هذا المنهج فإنه ينتكس حضاريا ــ بغض النظر عما يكون قد حققه من تقدم مادى ــ سواء كان الانحراف عن المنهج جزئيا ، يمس الجانب الثقافى ، أو أى جانب آخر من جوانب الحضارة أو كان الانحراف فى أصل العقيدة ذاتها .

إن الأيام سجال ، يدور فيها الصراع بين الحق والباطل ، وترتفع الحضارات وتسقط . ومقياس الارتفاع والسقوط مقياس موضوعى واحد فى كل زمان ومكان ، وهو مدى الالتزام بمنهج الله ــ من أجل تحقيق الهدف النهائى من خلق الإنسان ــ وهو عبادة الله ، التى تنطوى ــ من بين أمور أخرى ــ على إصلاح الأرض وعمارتها ، بإرساء قواعد المجتمع على أساس من تقوى الله ، وعلى دعائم الحق والعدل والتكافل والإيثار .

إن الارتقاء الحضارى لا يتحقق عشوائيا أو تلقائيا ، وإنما يتحقق بالسلوك الإرادى الواعى للإنسان . وهذا يفترض أولا إصلاح النفس البشرية . يقول تعالى : ﴿ **إن**

الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾ [٩] . ويقول سبحانه : ﴿ **ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم** ﴾[١٠] إن النمو أو التقدم المادى لا يحتاج إلى استثمارات رؤوس الأموال فحسب ، وإنما يحتاج أيضا وقبل كل شيء إلى عملية إصلاح للنفس البشرية . وإن التخلف أو الانتكاس والخراب ليصيب النفوس قبل أن يصيب الجانب المادى أو الاقتصادى . فقد يستمر التقدم المادى فى اتجاه تصاعدى على الرغم من تدهور الجوانب الاجتماعية للحضارة — كما ذكرنا من قبل .

لقد أكد علماء الاجتماع التاريخى هذه الحقيقة . وفى مطلع هذا الفصل أشرنا إلى موقف (فيبر) من قضيتى الحضارة والثقافة . ونضيف الآن : أن هذا الكاتب قد تحدث عن مبدأ التراكم الذى مؤداه أن ما يحققه الإنسان من تقدم مادي — فى علاقته بالكون أو بالطبيعة — هو محصلة لعملية تراكم علمى وتكنولوجى ولكن هذا التقدم قد يتعرض أحياناً للعقبات والكوارث التى تحرف المسار التصاعدى لعملية التقدم المادى . ومن ناحية أخرى فإن الجانب الإبداعى من النشاط الإنسانى — كالدين والفلسفة والقيم الإنسانية والفنون الجميلة (وهو ما يكون مفهوم الثقافة عند فيبر) — وكذلك التنظيمات الاقتصادية والسياسية ، لا تسلك بالضرورة سلوكاً تصاعدياً منتظماً فى اتجاه التقدم المادى ، كما لا تنطبق دائماً على هذا السلوك المراحل المتتابعة من النمو ، ثم الفشل ثم الأفول وهى المراحل التى أشار إليها (توينبى) ومن قبله (شبنجلر)[١١] كما سنوضح فيما بعد بمشيئة الله .

خلاصة القول ، قد يواكب التقدم المادى — أى يتزامن مع — التقدم فى المجالات الإنسانية ، وقد لا يواكبه . وهذه الحقيقة يؤكدها التاريخ الإنسانى . فقد شهد العالم القديم قيام امبراطوريات قوية من الناحية المادية إلا أن تلك القوة كانت تفتقر إلى أهم مقومات الحضارة وهى سلامة العقيدة . ولعل ذلك صحيح أيضا بالنسبة للمجتمعات المعاصرة ، التى أحرزت تقدما ماديا وتكنولوجيا كبيرا ، بينما تسودها الطبقية والعنصرية التى تؤول إلى فساد العقيدة .

---

(٩) الرعد (١١) .
(١٠) الأنفال (٥٣) .
(١١) تيماشيف . مرجع سابق . ص ٤١٥ .

إن مجرد تقدم المجتمع فى جانب أو أكثر من جوانب الحياة الإنسانية ، لا ينبغى أن نطلق عليه وصف الحضارة . إن تقدم الإغريق فى علم المنطق ، أو تقدم الرومان فى القانون ، أو تقدم شعب من الشعوب فى الفن كالموسيقى مثلا ، لا يعنى مطلقا نموا حضاريا ، بل قد يكون العكس هو الصحيح ، بمعنى أن يحقق مجتمع من المجتمعات تقدما اقتصاديا أو تكنولوجيا أو علميا فى جانب أو فى آخر من جوانب الحياة ، ومع ذلك يعانى هذا المجتمع تخلفا حضاريا .

وسنحاول بمشيئة الله فى الفصول التالية ، أن نختبر الفرض الأساسى الذى تقوم عليه النظرية التاريخية ، والذى مؤداها أن العامل الحاسم فى النمو الحضارى المتوازن هو عقيدة التوحيد ، وأن التقدم الاقتصادى لا يمثل إلا ركنا ثانويا فى العملية الحضارية .

الفصل الثالث

الحتمية العنصرية

تذهب النزعة العنصرية فى تفسير التاريخ إلى أن بعض الأجناس البشرية أرقى من البعض الآخر ، وأن العامل العنصرى هو العامل الحاسم فى التطور الاجتماعى . ولقد زعم (Gobineau) وهو كاتب فرنسى يعتبره البعض باعثا للنظرية العنصرية ـــ أن أفول الحضارات وانحلال الأمم لا يرجع إلى فساد العقيدة ، أو الترف أو الظلم أو الطغيان . ويستند فى زعمه هذا إلى أن كثيرا من الأمم ظلت مزدهرة ، على الرغم من فساد عقائدها ، أو انغماسها فى الترف وانحلالها الخلقى أو الاجتماعى . فالعنصر ـــ فى رأيه ـــ هو المتغير السببى الأساسى فى عملية التطور ، وهو الذى يفسر مصائر الشعوب . فالأجناس الراقية ـــ كالجنس الأبيض ـــ قادرة على إحراز التقدم الحضارى ، بينما تظل الأجناس الأخرى ـــ كالهنود الأمريكيين مثلا ـــ فى حالة تخلف حضارى . واعتقد (جوبينو) أن الألمان أقل عراقة من الفرنسيين ، وأرجع السبب فى ذلك إلى كثرة الاختلاط البيولوجى للألمان [1] .

والواقع أن النظرية العنصرية ـــ وما تذهب إليه من عدم تكافؤ الأجناس البشرية ـــ نظرية غير صحيحة من الناحية العلمية . فقد أثبت علماء الإنثروبولوجيا أنه لا توجد أجناس راقية وأخرى دنيئة . كذلك فقد أثبت العلماء ، أن الخلاف بين الجنس الآرى والجنس السامى لا يكمن فى العنصر أو فى العرق أو الدم ـــ كما يزعم دعاة الحتمية العنصرية ـــ ، وإنما يرجع الخلاف إلى اللغة واختلاف الملامح والعادات ، وهذه كلها أمور لا علاقة لها بالفطرة أو بالنفس البشرية [2] .

إن التاريخ نفسه يكذب العلاقة المزعومة بين العنصر وما يحققه الإنسان من تقدم مادى أو تقدم حضارى ، فالنظرية العنصرية ـــ لكى تكون صحيحة ـــ لابد

---

(١) المرجع السابق . ص (٩٠ ـــ ٩١) .

(٢) الشبهات والأخطاء . مرجع سابق . ص (٢٩٩) ومابعدها .

أن تنطبق على المجتمعات الإنسانية فى كل زمان ومكان . ولكن ذلك لم يتحقق . وقد يكفى أن نشير ـــ إيضاحا لفساد تلك النظرية ـــ إلى العالم الإسلامى وأوروبا خلال العصر الإقطاعى ، الذى شهد ركودا طويل المدى استمر زهاء الألف عام ، إذ عاشت أوروبا فى ظل نظام الإقطاع ، يسودها الانحلال وينتشر فيها الفقر والمجاعات ، فى الوقت الذى قامت بالجزيرة العربية أرقى ماعرف الإنسان من حضارات وهى الحضارة الإسلامية بكل جوانبها الاقتصادية والاجتماعية والثقافية ، على دعائم عقدية راسخة .

فى الفصل الأول من الكتاب ذكرنا أن دعاة العنصرية حاولوا الترويج للفكرة التى مؤداها أن أوروبا هى رائدة للحضارة فى العالم . وقد أطلقوا على الفترة من القرن الخامس إلى القرن الخامس عشر (الميلادى) ـــ وهى الفترة التى ساد فيها نظام الإقطاع فى أوروبا ـــ « عصور الظلام » دون أن يشيروا إلى أن الأمر يتعلق بأوروبا وحدها دون غيرها من قارت العالم ، وقد أرادوا بذلك الإيحاء بأن العالم كلـــه قد عاش تلك القرون الطويلة فى حالة تخلف حضارى والواقع أن مثل هذا الزعم الباطل إنما يعكس تحيزاً مناقضاً للحيدة العلمية ، إذ يتجاهل تماماً أحداث الجزيرة العربية ، التى أشرقت عليها شمس الحضارة الإسلامية والتى أوغلت أشعتها فى أوربا نفسها ، وأسهمت فى إخراجها من دائرة التخلف والضياع . وسنرى بعد قليل كيف رفض بعض الكتاب هذا الاتجاه المتحيز الذى يعلى من شأن الجنس أو العنصر .

إن هذه النزعة العنصرية تضرب بجذورها فى أعماق التاريخ . فقد كانت متأصلة فى شعوب الإغريق والرومان والفرس فى العالم القديم ، ولا زالت تلك النزعة متأججة لدى بعض المجتمعات المعاصرة . وتفسر لنا هذه العنصرية عمليات استرقاق الشعوب الضعيفة وإذلالها ونهب مواردها ، وهى عمليات يزخر بها تاريخ البشرية بكل أسف .

لقد حاول فلاسفة الإغريق تبرير نزعتهم العنصرية ، وصاغ أرسطو نظريته فى الرق الطبيعى والرق غير الطبيعى لهذا الغرض ، فادعى أن شعب اليونان خلق ليكون سيدا ، بينما خلقت الشعوب الأخرى لتكون عبيدا . ورفعت الامبراطورية الرومانية شعارها : « روما سادة وما حولها عبيد » ، ويزعم اليهود أنهم « شعب الله المختار » ،

ورفع الألمان شعارهم : « ألمانيا فوق الجميع » ، ويشهد العالم المعاصر هذا الاتجاه العنصرى فى الولايات المتحدة الأمريكية وفى جنوب أفريقيا .

ذكرنا منذ قليل أن العلم قد أثبت بطلان التفوق العنصرى لبعض أجناس البشر على غيرها من الأجناس . ولكن القرآن الكريم قدسبق العلم فى إثبات فساد النزعة العنصرية . يقول تعالى : ﴿ **يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير** ﴾(٣) .

لا يمكن أن يقوم التفاضل بين البشر على أسس مادية ، أو حتميات مقطوعة الصلة بإنسانية الإنسان ، لا يقوم التفاضل على أساس من الجنس أو العنصر أو اللون أو اللغة أو الأرض ، لأن هذه كلها أمور عارضة ، لا علاقة لها بالخصائص التى تميز الإنسان عن سائر الكائنات الأخرى . إن الإنسان — فى جانب من تكوينه — كائن حى كغيره من الكائنات الحية . ولكنه يتميز عليها — فى جانب آخر من تكوينه — بالإدراك والوعى — بما وهبه الله من نعمة العقل والإرادة وبما نفخ فيه من روحه . وهذه الخاصية المميزة للإنسان ترتبط بها العقيدة التى يؤمن بها . فالعقيدة ترتبط بالجانب الإدراكى والروحى للإنسان . وهكذا يجرى التفاضل بين الناس على أساس من العقيدة ، وما يتفرع عنها من إيمان وتقوى وسلوكيات تقوم على دعائم من الأخلاق والقيم الإنسانية السامية ، فلا فضل لعربى على أعجمى ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى .

إلى جانب نزعة (جوبينو) العنصرية ، هناك نزعة أخرى تنتمى إلى الفلسفة الهيجيلية ، تذهب إلى أن قوة الفكر وطاقة الإرادة هما اللتان توجهان حركة التاريخ الإنسانى . فالتاريخ — طبقاً لهذه النزعة الذاتية — هو محصلة أو نتائج لجهود قلة من الأفراد ، كالزعماء الشعبيين والحكام الديكتاتوريين والأنبياء .

يذهب (Lavrov - Mirtov) مؤسس المدرسة (الروسية) الذاتية — والذى ينتمى إلى طبقة الأشراف — إلى أنه ليس من الضرورى أن تكون حركة التاريخ تقدمية دائما . فالتقدم يصبح ممكنا فقط عندما تدرك الأقلية التقدمية ، أن

---

(٣) الحجرات : (١٣) .

مصالحها تطابق مصالح الأغلبية .

ويرى (ميرتوف) أنه بينما يقوم علم الاجتماع على دراسة التضامن بين الأفراد ، فإن التاريخ يقوم على الفردية ، وعلى الرغم من أن الفردية نقيض للتضامن إلا أنه يتعذر الفصل بينهما من الناحية العملية . فالمشاعر الفردية وليدة للعملية الاجتماعية ، لأن الفرد يستمد دوافعه ومعرفته وعاداته من المجتمع الذى يقوم — كما أشرنا — على التضامن [٤] .

إن هذه النزعة الذاتية ولو أنها تبرز أهمية الدور الذى يقوم به بعض الأفراد من ذوى القدرات العقلية أو الروحية — فى عملية التطور — يمكن النظر إليها على أنها نقيض للنزعة العنصرية ، أو أنها تخفف من حدتها على الأقل . ولعل ذلك ما لاحظه (Danilevsky)[٥] ففى رأيه أنه من غير العلمى أن ننظر إلى التاريخ العالمى على أنه تطور مستمر للخبرة الأوروبية ، بينما نتجاهل التطورات التى تجرى فى مناطق أخرى من العالم ، أو نعالجها معالجة جانبية أو هامشية . فالتطور ليس مقصورا على شعب معين أو قبيلة معينة دون سائر القبائل أو الشعوب . فهذه القبائل والشعوب قادرة على إنجاز حضارات ، بما يقوم به القادرون عقليا وروحيا من أبنائها — من أعمال .

من دعاة الذاتية أيضا (Mikalovsky) الذى يذهب إلى أن (البطل) ليس بالضرورة شخصا عظيما . ولكنه الشخص الذى يملك القدرة على حث الناس على فعل الخير (أو الشر) [٦] . ونشير أيضا إلى (Pareto) الذى قدم فكرته عن دور الصفوة (Circulation of Flites) . فالصفوة هم الأفراد الذين يتميزون بقدرة عالية على الأداء فى مجالات تخصصاتهم . ويفرق (باريتو) بين الصفوة الحاكمة والصفوة غير الحاكمة كما يميز بين المفكرين (Speculators) والمحافظين (Rentiers) . وعندما يسيطر المفكرون على الصفوة الحاكمة ، يمر المجتمع بتغير

---

(٤) تيماشيف . مرجع سابق ص (١٨٧ — ١٨٩) .

(٥) دانيلفسكى عالم طبيعى روسى (١٨٢٢ — ١٨٨٥) حاول أن يتعرف على الدوافع الكامنة وراء كراهية أوروبا لروسيا . انظر المرجع السابق . ص (٩٤ — ٩٦) .

(٦) المرجع السابق . ص (١٩٠) .

سريع نسبيا ، بينما يكون التغير بطيئا عندما يسيطر عليها المحافظون . وهكذا قدم (باريتو) نظرية دورية فى التغير الاجتماعى (٧) .

إن دور الفرد فى عملية التغير مسألة ذات أهمية خاصة فى دارسة التاريخ . ونحن نلمس هذا الدور فى كافة مجالات النشاط الإنسانى . فالاختراعات والتطورات التكنولوجية التى تدفع إلى التقدم المادى الاقتصادى هى من صنع الأفراد . كذلك فقد أسهم الحكام والقادة والمفكرون فى عملية التغير إسهامات كثيرة ، منها ما هو ذو تأثير إيجابى ومنها ماهو ذو تأثير سلبى . وقد يقتصر دور الفرد فى عملية التغير على جانب ــ أو أكثر ــ من جوانب الحياة ، الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والسيكولوجية ، وقد يتعدى هذا الدور إلى كافة الجوانب مجتمعة .

إننا إذا نظرنا إلى الدور الذى قام به رسول الله ــ ﷺ ــ فى إحداث التغير ، نجد أنه لم يقتصر على الجانب الاجتماعى فحسب ، أو الجانب الاقتصادى فحسب أن الثقافى أو السيكولوجى ، وإنما كان دوره ﷺ ، دورا شاملا لكافة جوانب السلوك الإنسانى ــ الفردى والجماعى . ولم تقتصر آثار هذا الدور على إحداث التغير فى الجزيرة العربية وحدها ، وإنما امتدت إلى أجزاء عديدة من العالم . كذلك لم تقتصر تلك الآثار على زمن أو جيل معين ، وإنما تجاوزت حدود الزمان والأجيال . ولا شك أن السبب فى ذلك يكمن فى أن عملية التغيير تناولت أولا وقبل كل شىء عقيدة الإنسان . وعندما تتحول العقيدة من الوثنية إلى التوحيد ، تتغير مفاهيم الإنسان عن الكون والحياة ، وتتغير سلوكياته فى مجالات النشاط الاقتصادى والاجتماعى والثقافى ، على النحو الذى يدفع بالحركة التاريخية نحو الترقى والتقدم الحضارى .

قلنا إن النزعة الذاتية قد تكون نقيضا للنزعة العنصرية ، أو تخفيفا من حدتها على أقل تقدير ، والواقع أن هذا صحيح ، فقط إذا أخذنا بالمفهوم الإسلامى للبطولة ، وهو مفهوم موضوعى يركز الاهتمام على عمل الإنسان ــ وليس على الإنسان ذاته ــ أى ينظر إلى مايقوم به الفرد من أعمال إيجابية أو سلبية ، دون أن ينظر إلى ذات الفرد من حيث نسبه أو انتمائه أو بيئته . إننا لاننظر إلى شخص الحاكم ، ولا

(٧) المرجع السابق . ص (٢٤٦) ومابعدها .

نضفى عليه صفة الألوهية كما فعل الفرس وغيرهم من شعوب الشرق القديم ، وإنما ننظر إلى مايقوم به الحاكم من أعمال تسهم إيجابيا ، أو سلبيا فى إقامة مجتمع العدل والتكافل . كذلك لانعلى من شأن القائد ولا نخرجه من عالم الإنسان إلى عالم الأساطير ... عزل عمر بن الخطاب ــ رضى الله عنه ــ قائد جيشه ــ خالد بن الوليد ــ وهو فى أوج بطولته ، وقال : « خشيت أن يفتن الناس به ، فأردت أن يعلموا أن الله هو الصانع »(٨) .

إن تأليه الفرد أو تقديسه أو إقامة التماثيل والأضرحة ، أو التفنن فى الطقوس والمراسم والاستعراضات ، كل ذلك لون من ألوان الوثنية والشرك ، ينتهى بالنزعة الذاتية إلى مايشبه النزعة العنصرية ، إذ يرفع الفرد إلى مرتبة فوق الإنسان . يقول (الجندى) :

« ... وإن تقدير الإنسان إنما يقوم بعمله لا بنسبه ولا شخصه ولا مظهره .وهكذا تمثلت البطولة الإسلامية فى القيم الخالدة ، كالإيمان بالله والإيمان بالجزاء والمسئولية ، وإقامة العدل والمساواة وحماية الضعيف وتحريره ، والمروءة والشرف والوفاء والكرم والنجدة والشجاعة .... »(٩) .

هذه النظرة (الموضوعية) إلى قيمة العمل الفردى ، يمكن أن تنسحب أيضا إلى العمل الجماعى ، ويكون ذلك بديلا للنزعة العنصرية . فالأمة الإسلامية خير أمة أخرجت للناس . وليس ذلك لأنها من جنس خاص يتميز على أجناس الأمم الأخرى ، وإنما لأنها أمة تدعو إلى الخير وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر . فمعيار التفاضل والتميز هو العمل الذى يدعو إليه الإسلام .

إن تاريخ البشرية خير شاهد على صدق هذا النظر . فعندما ينطلق العمل الإنسانى ــ الفردى أو الجماعى ــ من منطلق عقائدى ، يقوم على أساس الاعتراف اليقينى بالحقيقة الأولية ــ التى تقرر أن لهذا الكون إلهاً خالقا مهيمنا على خلقه ، تنصاع لأوامره كل المخلوقات ــ فإن هذا العمل يؤثر تأثيرا إيجابيا فى عملية البناء الحضارى للإنسان . أما إذا انطلق العمل من منطلقات عنصرية ، أو مادية

---

(٨) الشبهات والأخطاء . مرجع سابق . ص (٣٣١) .

(٩) المرجع السابق . ص (٣٣١) .

منبثقة عن العقائد الوثنية ، فإن مثل هذا العمل يؤثر تاثيرا سلبياً فى البناء الحضارى . وقد يكفى أن نشير فى هذا الصدد — وكما سبقت الإشارة — إلى تاريخ استعمار الشعوب الضعيفة فى العالم القديم والعالم الحديث على السواء ، وما وقع فيه من قتل وتشريد للأبرياء — من النساء والأطفال والشيوخ من أجل استنزاف خيرات تلك الشعوب ونهب مواردها . — ولو كان ذلك على حساب تدمير الأخلاق والقيم الإنسانية .

يقابل هذه الصورة القاتمة ، صورة أخرى مشرقة ، تتمثل فى الفتح الإسلامى للأمصار ، من أجل نشر الإسلام وإقامة مجتمع العدل والحق والرخاء والتكافل ، فى إطار الهدف النهائى من خلق الإنسان وهو عبادة الله ... ولقد كان اهتمام الخلفاء بالجانب الإنسانى يحتل المرتبة الأولى قبل الاهتمام بالجانب المادى . فهذا أبو بكر رضى الله عنه يقول لجيشه : « لاتخونوا ولا تغدروا ، ولا تمَثّلوا ولا تقتلوا طفلاً ولا شيخا كبيرا ولا امرأة ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرا ، ودعوا النساك فى صوامعهم يتعبدون » .

وهذا عمر بن العزيز الخليفة الخامس ، الذى أعاد الأموال التى اغتصبها بعض الحكام والولاة إلى أصحابها ، ورفض الاستجابة إلى توسلات الولاة بتحصيل الجزية ممن أسلم من أهل الذمة ، والخراج على أراضيهم حفاظا على إيرادات الدولة ، وقال قولته الشهيرة : إن الله قد بعث محمدا — ﷺ — هاديا ولم يبعثه جابيا . لقد أسلم أهل اليمن ، وبإسلامهم تكون أراضيهم عشرية ، أى تستحق عليها زكاة العشر لا الخراج . ولكن بعض الحكام — قبل عمر — أحالوها إلى أرض خراجية أملا فى زيادة حصيلة الدولة من الأموال . فلما تولى عمر الخلافة أعادها إلى عُشرية — كما كانت وكما يقضى شرع الله — وقال لولاته قولته المأثورة : « لأن لا يأتينى من اليمن غير حفنة كتم (١٠) أحب إلىّ من إقرار هذه الوظيفة » (١١) .

تتعدد — على مستوى العمل الفردى — الأمثلة على البطولات والأعمال المجيدة والبناءة ، التى أسهمت إيجابياً فى بناء الصرح الحضارى للإنسان فى كافة مجالات النشاط .

(١٠) كَتَمْ : نبت يخلط بالحناء ويخضب الشعر للسواد — معجم متن اللغة جـ ٥ ص ٢٣ .

(١١) سنتناول هذا الموضوع ، بشىء من التفصيل بإذن الله ، فى دراسة لاحقة للتاريخ الاقتصادى الإسلامى .

وتتعدد ــ كذلك ــ الأمثلة على الأفكار والأعمال التدميرية الهدامة ، التى أسهمت فى تقويض دعائم الحضارة الإنسانية . ونشير ــ إلى ماسبقت الإشارة إليه ــ إلى السيرة النبوية والنقلة الهائلة التى أحدثها رسول الله ــ ﷺ ــ فى الجزيرة العربية ، فأحال القبائل المتصارعة ، إلى أمة واحدة كانت خير أمة أخرجت للناس ، قوامها العدل والحق والرحمة والتكافل والدعوة إلى الخير ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . ونشير أيضا ــ مجرد إشارة ــ إلى عمر بن الخطاب وسائر الخلفاء الراشدين ، وإلى خالد ابن الوليد وعمرو بن العاص ، ونشير كذلك إلى محمد بن عبد الوهاب رائد النهضة الإسلامية المعاصرة . هذه الصور المشرقة للعمل الإيجابى تقابلها صور قاتمة رسمتها أفكار وأعمال رجال أسهموا فى تقويض دعائم الحضارة الإنسانية . وقد تكفى مجرد الإشارة إلى الأفكار السوداء التى نادى بها الفلاسفة والكتاب أمثال : (بوهم) و (هوبز) و (شوبنهور) و (فرويد) و (كارل ماركس) ، وإلى النماذج الطبقية والعنصرية التى صاغها فلاسفة الإغريق أمثال : أرسطو وأفلاطون والكهنة فى امبراطورية فارس . ونشير ــ مجرد إشارة ــ إلى (نابليون بونابرت) الذى أحال أوروبا ــ بمطامعه الشخصية العدوانية ــ إلى بركة من الدماء ، وما ارتكبه فى مصر من أعمال وحشية لا أخلاقية إبان الحملة الفرنسية . ونشير أيضا إلى الجبابرة الطغاة فى القرن الميلادى الحالى ، أمثال (هتلر) و (موسولينى) و (ستالين) وغيرهم ممن خلدوا أسماءهم فى سجل التاريخ على أشلاء الضحايا وأرواح الأبرياء[١٢] .

قد يكون من المناسب أن نشير إلى دعوات الفرعونية والفينيقية والقومية والإقليمية والوطنية ، والدعوة إلى الكيان الخاص . وكلها دعوات تستهدف تمزيق الأمم والشعوب ، وتحطيم الجانب الإنسانى من الحضارة ، وهو نفس الهدف الذى تسعى النزعات العنصرية والذاتية (بمفهومها الوضعى) إلى تحقيقه . إن الدافع الحقيقى الكامن وراء هذه الدعوات هو مساندة الاستعمار والنفوذ الأجنبى من أجل السيطرة على موارد العالم ، وذلك عن طريق تفتيت وحدة الشعوب وتمزيق الجماعات المتماسكة إلى عناصر ، يتبع بعضها الجنس أو العرق ، ويتبع بعضها الآخر اللغة أو اللون أو

---

(١٢) سنناقش ذلك كله ، بشىء من التفصيل بمشيئة الله ، فى الأجزاء التالية من الكتاب ، حيث نتصدى لدراسة التاريخ الاقتصادى للعالم القديم والعالم الحديث ، فى إطار النظرية التاريخية التى نعرض أهم معالمها فى دراستنا الحالية .

الأرض[١٣] .

ولعلنا نخرج من العرض السابق بنتيجة هامة ، تمثل المحور الذى تدور حوله دراستنا للنظرية التاريخية . هذه النتيجة هى : أن هناك طريقين فى الحياة لاثالث لهما . طريق الحق ، وطريق الباطل . فإذا سلك الإنسان ــ الفرد والمجموع ــ الطريق الاول ؛ فإن المنحنى الحضارى يأخذ اتجاهاً تصاعديا ، ويتحقق التقدم الاقتصادى والاجتماعى والثقافى . أما إذا سلك الإنسان ــ الفرد والمجموع ــ طريق الباطل ؛ فإن المنحنى الحضارى يأخذ اتجاها تنازليا ، ويقع الإنسان فى براثن التخلف الاقتصادى والاجتماعى والثقافى[١٤] .

وفى هدْى هذه النتيجة نستطيع القول ، بأن النزعة العنصرية والنزعة الذاتية بمفهومها الوضعى الذى يركز الاهتمام على الأشخاص دون الأعمال ، هذه النزعات الاختلالية لاتصلح مطلقا ، لتفسير التقدم الحضارى . وقد يعتقد البعض أن العكس هو الصحيح ، أى أنه يمكن تفسير بعض أحداث التاريخ ــ التى أسهمت فى التخلف الحضارى ــ بالعوامل العنصرية أو الذاتية . لقد أوردنا منذ قليل بعض الأمثلة عن الحروب الاستعمارية التى حركتها الدوافع العنصرية ، كما أوردنا أمثلة أخرى عن شخصيات أسهمت إسهاما سلبيا فى حضارة الإنسان . ومع ذلك ، سنرى ــ فيما بعد ــ أن النزعات العنصرية والذاتية تؤول فى نهاية التحليل إلى فساد العقيدة وانحرافها ، وبذلك نصل إلى الفرض الأساسى ــ والصحيح ــ الذى تقوم عليه النظرية التاريخية ، ومؤداه أن العقيدة هى المحور الذى تدور حوله عجلة التاريخ ، فإذا صحت العقيدة أخذت الحضارة طريقها نحو الازدهار ، أما إذا فسدت العقيدة فإن الحضارة تخبو وتأخذ طريقها نحو الأفول والانهيار .

أوردنا فى مستهل الفصل الحالى الرأى الذى قال به (جوبينو) ، من أن أفول الحضارات وانحلال الأمم لا يرجع إلى فساد العقيدة أو الظلم والطغيان أو الترف ، زاعماً أن كثيرا من الأمم ظلت مزدهرة على الرغم من فساد عقائدها ، أو انحلالها

(١٣) الشبهات والأخطاء . مرجع سابق ص (٣٥٨) .

(١٤) قد يتحقق بعض التقدم الاقتصادى إذا أخذ الإنسان بأسبابه ــ على الرغم من التدهور الحضارى . وسنناقش ذلك ببعض التفصيل فيما بعد إن شاء الله .

الخلقى والاجتماعى . وقد أرجع هذا الكاتب السبب فى أفول الحضارات إلى وجود أجناس دنيئة — غير راقية — من البشر . لقد اعتقد (جوبينو) — كما اعتقد غيره — أن التقدم فى الفن أو الفلسفة ، يعنى النمو الحضارى . فانتهى إلى رأيه — استنادا إلى هذا الاعتقاد الخاطىء — أن الأغريق اشتهروا بالتأملات الفلسفية والتفكير المنطقى ، إلا أن عقائدهم كانت عقائد وثنية فاسدة . فهل يمكن القول — مع (جوبينو) — أنه كانت للإغريق (حضارة) مزدهرة ، بالرغم من فساد العقيدة ؟ وهل يمكن القول أن المجتمعات المعاصرة التى يسودها الانحلال الخلقى والطبقية والاستغلال ، وحيث يفتقر الناس إلى الأمن والاستقرار ؛ بسبب الحروب المحلية والتوتر الدولى — وما تعانيه الأغلبية العظمى من الشعوب والأفراد من فقر — تعيش مرحلة ازدهار (حضارى) لمجرد تطورها فى مجالات العلوم الطبيعية ، والتكنولوجيا وإطلاقها للأقمار الصناعية ؟! .

إن للحضارة مفهوما إنسانيا لا ماديا ، ولا ينبغى أن نتجاهل هذا المفهوم الإنسانى عندما نتحدث عن الحضارة فى حالات ازدهارها أو أفولها . وقد نتساءل : هل يمكن أن نقرر — مثلا — أن شعب جنوب أفريقيا — الذى يعانى من طغيان الرجل الأبيض — أسعد حالا أو أفضل حضاريا مما كان عليه قبل استعماره ، لمجرد أن الرجل الأبيض قد نقل إليه بعض مظاهر التقدم الاقتصادى والتكنولوجى ؟ .

الفصل الرابع

الحتمية الاقتصادية

كان (Hegel) الفيلسوف الألمانى يؤمن بالفلسفة المثالية ، ويذهب إلى أن الفكر الإنسانى هو الدافع إلى التطور الاجتماعى . فالفكرة يتولد عنها نقيضها ثم يتولد عن النقيض نقيض النقيض ـــ وهذه هى المراحل الثلاث الأزلية للإطار الجدلى الذى استخدمه (هيجل) . فالأفكار تتطور ويتطور معها المجتمع .

أخذ (Karl Marx) بمادية (Feuerbach) التى تمثل الجناح الأيسر للفلسفة الهيجلية ، فادعى أن المادة وليس الفكر هى العامل ، أو المحدد الأساسى للتطور الاجتماعى . وأمعن (ماركس) فى فلسفته المادية فزعم أن الوعى أو الشعور يتولد عن المادة ، فهو مظهر الحركة فى خلايا المخ . وانتهى إلى أن أدوات الإنتاج ووسائله التكنولوجية ، هى التى تحدد شكل التنظيمات الاجتماعية والسياسية والقانونية والفلسفية والدينية[١] .

كل شىء فى العالم ـــ فى رأى (ماركس) ، بما فى ذلك المجتمع الإنسانى نفسه ـــ يمر وفقا لضرورة جدلية خلال مراحل ثلاث : هى الإثبات أو الموضوع (thesis) ، ثم النفى أى نقيض الموضوع (antithesis) وأخيرا تصالح الأضداد أو مركب الموضوع (Synthesis) . وهكذا تستمر العملية التاريخية . فكل نسق من الإنتاج الاقتصادى يبدأ بحالة الإثبات لأنه أكثر الأنساق كفاءة ، ولكن بعد أن تتطور وسائل الإنتاج نتيجة لتطبيق الاختراعات التكنولوجية يصبح النسق الاجتماعى غير ملائم ، إذ يشكل عقبة أمام هذا التطور التكنولوجى وإمكانية الإفادة منه . ولذلك ينبغى القضاء عليه وذلك بقيام ثورة اجتماعية تنشىء نظاما جديدا يتركب من القديم والجديد . ففى كل مجتمع طبقتان ، تمثل إحداهما النظام القديم للإنتاج ،

---

(١) تيماشيف . مرجع سابق ص (٨٥) .

وتمثل الأخرى النظام النامى ، وينشأ الصراع (الطبقى) بينهما . وأخيرا تنتصر الطبقة الصاعدة لتنقل المجتمع إلى نظام جديد للإنتاج ، يحمل بدوره فى طياته بذور فنائه ، وهكذا تستمر العملية الدياليكتيكية من جديد[٢] .

ولعلنا نتبين من ذلك أن التاريخ — فى رأى (ماركس) — يمر بمراحل حتمية — لا دخل لإرادة الإنسان فيها . فالحتمية التاريخية . (Historical Determinism) تمثل فكرة (ماركس) التى أقام عليها تفسيره المادى للتاريخ . وتتلخص فى أن المجتمعات الإنسانية قد مرت بمراحل أو عصور مختلفة هى :

عصر المشاعية البدائية : حيث كان النظام قبليا ، وكانت القبائل تمارس عمليات الرعى والصيد ، ولم تكن توجد سوى طبقة واحدة هى القبيلة ، وقام النظام الاقتصادى والاجتماعى على أساس أن كل فرد ينتج حسب قدرته ويحصل من الناتج بقدر حاجته . وهكذا كانت الملكية مشاعية ، ولم ينشأ لذلك أى صراع طبقى ، إذ كان الصراع الرئيسى بين الإنسان والطبيعة . وكانت مشاعية الجنس هى إحدى ملامح هذا العصر . فالأسرة لم تظهر إلَّا مع ظهور الملكية الخاصة ، حيث استأثر الرجل بالمرأة ، كما استأثر بملكية الأرض . وفى صراع الإنسان ضد الطبيعة ، وعجزه عن تفسير ظواهرها ، عرف معنى التقديس وعبادة الظواهر الطبيعية كالأشجار والحيوانات . وهكذا تشكل الدين — أى عبادة الطواطم — تبعا للأساس المادى — أى وسائل الإنتاج — الذى قام عليه عصر المشاعية البدائية .

العصر العبودى : الذى بدأ باكتشاف الزراعة وأصبحت الأرض هى الأساس المادى لذلك العصر ، الذى ظهرت فيه الملكية الخاصة وبدأ فيه الاستغلال ، فقد انقسم المجتمع إلى طبقتين رئيسيتين هما : طبقة الأسياد ، وطبقة العبيد . واستغل الأسياد الدين كسلاح معنوى لتخدير طبقة العبيد ، وخداعهم بالنعيم (الزائف) الذى ينتظرهم فى الحياة الآخرة . ونشأت ظاهرة الأسرة فى ذلك العصر حيث كان السيد يمتلك عددا من النساء فى إطار ملكيته لوسائل الإنتاج المادية .

عصر الإقطاع : اشتد الصراع — بفعل الجدل الدياليكتيكى — بين طبقتى الأسيا والعبيد بسبب تناقض مصالح كل منهما . ومع تراكم مشاعر السخط والاستياء فى

---

(٢) المرجع السابق . ص (٨٥ — ٨٦) .

نفوس العبيد ومحاولاتهم المتكررة للتحرر من ربقة الأسياد ، انهار النظام العبودى باستيلاء الغزاة الخارجيين على السلطة ، وقيامهم بتقسيم البلاد على أسياد جدد (الإقطاعيين) . وفى ظل هذا النظام الجديد ، نال العبيد بعض الحرية ، إذ تحولوا إلى رقيق للأرض ، وانتقلت تبعية الرقيق من السيد إلى الأرض ، وسمح لهم بالحصول على بعض ثمار عملهم فى زراعة الأرض[٣] . يقول (ماركس) : إن وسيلة الإنتاج تغيرت بالتدريج عندما قام سكان المدن بممارسة الأعمال الحرفية وعمليات التجارة ، فنشأت طبقة جديدة هى طبقة البورجوازية ، وأصبح النظام الإقطاعى الذى يعتمد على الأرض نظاما بائدا ، ونشأ الصراع بين طبقة الإقطاعيين والبرجوازيين (وهم فى الأصل من نسل رقيق الأرض) وانتهى الصراع بانهيار نظام الإقطاع وظهور الرأسمالية[٤] .

عصر الرأسمالية : تطورت وسائل الإنتاج على أثر قيام الثورة الصناعية ، فأصبح المصنع والآلة من سمات النظام الرأسمالى . وانقسم المجتمع إلى طبقتين : الطبقة البرجوازية المالكة لوسائل الإنتاج ، وطبقة البروليتاريا (العمال) . والصراع بينهما حتمى كما يزعم (ماركس) فى حتميته التاريخية . وتنبأ (ماركس) بانتصار طبقة العمال وتدمير الملكية الخاصة ، ليتحول المجتمع إلى نظام الملكية الجماعية لوسائل الإنتاج ويتولد بذلك النظام الشيوعى الخالى من الطبقات ، وعندئذ لاتوجد الحاجة إلى الدولة وتختفى الأسرة ، كما يختفى الدين ، إذ لايوجد مايبرره كوسيلة من وسائل خداع الطبقة المُسْتَغِلَّة (الرأسمالية) للطبقة المُسْتَغَلَّة (العمال)[٥] .

حسبنا هذا العرض للجانب الاقتصادى والاجتماعى من فلسفة (ماركس) . ونشير إلى أن هذه الفلسفة قد انهارت تماماً « بجناحيها المادى والاجتماعى » ، بعد أن أثبت العلماء المتخصصون خواءها من أى محتوى علمى موضوعى . لقد وجهت

---

(٣) سنشرح نظام الاقطاع وعلاقة الرقيق بالأرض بشىء من التفصيل فى الجزء الثالث من هذا الكتاب بعون الله وتوفيقه .

(٤) أنظر فى عرض عصور التاريخ : عبد الحليم خفاجى . حوار مع الشيوعيين تحت أقبية السجون . دار الأنصار بالقاهرة ـ الطبعة الثانية ١٣٩٧هـ ـ ١٩٧٧ م . ص (٢٠) ومابعدها .

(٥) لفق (ماركس) نظرية فى الإستغلال ، أسماها فائض القيمة ، سنعرضها فى الجزء الثالث من الكتاب إن الله .

انتقادات عديدة إلى النظرية السوسيولوجية الماركسية نذكر منها مايلى :

(١) لم يوضح ماركس العلاقات (الحتمية) الصارمة بين الأساس المادى (الاقتصادى) للمجتمع ، وبين البناء الفوقى ، أى التنظيمات السياسية والاجتماعية والثقافية والقانونية والدينية . ولقد أثبت التاريخ ــ خلافاً لما انتهى إليه ماركس ــ أن المجتمعات التى تتفق فى الأساس الاقتصادى ــ كالزراعة مثلا ــ قد عاش بعضها فى ظل علاقات إقطاعية ــ كأوروبا العصور الوسطى ــ أو عبودية ــ كالامبراطورية الرومانية ــ بينما عاش بعضها الآخر فى ظل نظام لاطبقى ــ كالإسلام(٦) . كذلك فقد اتضح أن نفس النسق الاقتصادى الرأسمالى يتعايش مع أنظمة اجتماعية وسياسية متباينة ، كالملكية المطلقة والديمقراطية ، كما أنه ــ فى ظل النظام الرأسمالى ــ ظهرت اتجاهات مختلفة تماما فى الفلسفة والفنون وغيرها من الظواهر الثقافية(٧) .

(٢) أثبت التاريخ أيضاً أن التغير من نموذج اجتماعى إلى نموذج آخر لم يكن بالضرورة نتيجة لانتصار الطبقة المقهورة ، فلقد قضت الطبقة البرجوازية الصغيرة القوية على النظام الإقطاعى ، وكان المنطق الماركسى يقتضى أن يفعل ذلك رقيق الأرض(٨) .

(٣) لم تتحقق تنبؤات ماركس عن زوال الطبقة المتوسطة وانتصار الاشتراكية فى أكثر الدول تقدما من الناحية التكنولوجية(٩) .

(٤) إن ظهور الإسلام فى الجزيرة العربية لم يكن إفرازا لنظام طبقى فى قريش ، ولم يكن رأسماليا يحتفظ للمستغلين بأموالهم وامتيازاتهم ، ولم يكن الإسلام مخدرا للفقراء والمُعْدَمِين ، وإنما العكس هو الصحيح ، فقد حارب الإسلام الفقر ودعى إلى العمل والإنتاج(١٠) .

(٥) عندما دعى الإسلام إلى الملكية الفردية والملكية الجماعية على السواء وإلى التحرر من عبودية الأصنام والبشر ، لم يكن ذلك انبثاقا عن واقع اقتصادى معين

---

(٦) حوار مع الشيوعيين . مرجع سابق . ص (٢٠٧) .

(٧) تيماشيف . مرجع سابق . ص (٨٦ ــ ٨٧) .

(٨) المرجع السابق . ص (٨٧) .

(٩) المرجع السابق . ص (٨٧) .

(١٠) الشبهات والأخطاء . مرجع سابق . ص (٨٠) .

جاء الإسلام للقضاء عليه[11] .

(٦) إن نظرية ماركس نظرية أُحادية تركز على عامل واحد ، هو العامل الاقتصادى فى إحداث التغير الاجتماعى ، والواقع أن مثل هذه النظريات (كالنظرية العنصرية والنزعة الذاتية والنظريات الأحادية الأخرى) تبالغ فى تبسيط عملية التغير الاجتماعى ذات الطبيعة المركبة[12] . ولقد اعترف (إنجلز) بأنه ـــ هو و (ماركس) قد بالغا فى تقدير أهمية العامل الاقتصادى ، وأنه لم يكن لديهما الوقت الكافى أو الفرصة المتاحة لإنصاف العوامل الأخرى وأثرها فى توجيه حركة التاريخ[13] .

(٧) إن النظرية المادية الماركسية نظرية فاسدة من الناحية المنهجية ، لأنها ركزت على دراسة بعض وقائع التاريخ فى أوروبا بوجه خاص ،[14] وحتى فى هذا النطاق المحدود فقد أخطأت النظرية فى إبرازها لأهمية العامل المادى الاقتصادى ، لأن المعروف أن المسيحية المُحَرَّفة ـــ وهى عقيدة وثنية ـــ لعبت دورا كبيرا فى تشكيل التاريخ الأوربى زهاء ألف عام من عصر الإقطاع (من القرن الخامس حتى القرن الخامس عشر الميلادى) . والمعروف أيضا أن الهجوم على الكنيسة المسيحية وتحرير العقلية الأوروبية من مبادئها المنحرفة ، كان أحد العوامل البارزة فى حركة البعث (R'enaissance) وما ترتب عليها من تقدم مادى[15] .

(٨) قام (Max Weber) (١٨٦٤ م ـــ ١٩٢٠ م) باختبار الفرض الماركسى الذى مؤداه : أن الظواهر الاجتماعية والثقافية والدينية تخضع فى تحديدها للقوى الاقتصادية ، فانتهى إلى نتيجة عكسية تماما لما انتهى إليه (ماركس) . لقد ذهب (ماركس) إلى أن الإصلاح الدينى (البروتستانتى) كان نتاجا لظهور الرأسمالية ، ولكن (فيبر) أوضح أن الأخلاق البروتستانتينية وخاصة الكالفينية[16] ، لعبت دورا

---

(١١) المرجع السابق . (١٢) تيماشيف . مرجع سابق . ص (٨٨) .

(١٣) الشيوعية نظريا وعمليا لكايوهنت . مشار إليه فى : حوار مع الشيوعيين . مرجع سابق . ص (٢٦) .

(١٤) أى أنها استخدمت أسلوب الاستقراء الناقص .

(١٥) ومن الملاحظ ـــ كما أشرنا من قبل ـــ أن هذا التقدم المادى الذى يشاهده العالم المعاصر ، لايعكس بأى حال ارتفاعا فى المستوى الحضارى ؛ لافتقاره إلى مقومات الحضارة الثقافية والاجتماعية والروحية ، فضلا عن الجوانب السلبية للتقدم كالتضخم والتلوث (راجع الفصل الثانى من الكتاب) .

(١٦) نسبة إلى (calvin)وهو من المدرسين من رجال الكنيسة المسيحية .

كبيرا فى ظهور الرأسمالية . لقد عارض (calvin) مبدأ الاعتدال الذى نادى به المدرسيون فى عصر الإقطاع ، والذى مؤداه : أن على المرء ألا يتكالب على اقتناء الثروة ، وأن يقنع بالقليل ، لأن السعادة الحقيقية فى الآخرة . وذهب (كالفن) إلى أن حصول الإنسان على الثروة والأرباح الطائلة دليل على رضى الرب عليه . فالكالفينية تذهب إلى أن الخلاص (salvation) مسألة ضرورية ، وأنه يعتمد على المصير الذى تحدده مشيئة الله . ومع ذلك فإن تحقيق الإنسان للنجاح فى أمور الدنيا يعد دليلا قاطعا على أنه أصبح من المختارين . وهكذا يمكن القول بأن التوجيه الأخلاقى البروتستانتى كان شرطا ضروريا — وإن لم يكن كافيا بذاته — لظهور الرأسمالية الحديثة(١٧) .

(**٩**) إن مبدأ الحتمية الذى تقوم عليه نظرية ماركس — وكذلك كافة النظريات الأخرى التى تقوم على هذا المبدأ ، كنظرية (جوبينو) فى الحتمية العنصرية ، ونظرية (Buckle) فى الحتمية الجغرافية — هذا المبدأ قد تخضع له الظواهر الطبيعية ، ولكنه لا يسرى على الظواهر الاجتماعية ؛ بسبب الحرية التى يتمتع بها الإنسان ، بوصفه كائنا عاقلا إراديا مدركا يملك القدرة على الاختيار فى مجالات النشاط الاقتصادى والاجتماعى . ولعل الصحيح فى ذلك أن الإنسان فى سلوكه الإرادى يخضع للعديد من المؤثرات الاجتماعية والثقافية والبيئية(١٨) ، ومع ذلك لاينبغى أن نذهب إلى حد القول (بالحتمية) ، وإلا انتهينا إلى إسقاط مبدأ المسئولية الفردية والجماعية عن الإنسان الفرد والمجموع .

إن علماء الاجتماع المعاصرين يتجهون نحو الكشف عن قوانين وظيفية ، بينما يتحاشون فكرة القانون السببى الذى يحاول إرجاع سلوك الظاهرة إلى سبب واحد نهائى وقطعى . إن فكرة القانون الوظيفى تستهدف إيجاد الارتباطات القائمة بين الظواهر ، وهى فكرة صحيحة بكل تأكيد . إننا إذا أخذنا مثلا ظاهرة الجريمة فإننا لانستطيع القول بأنها ترجع فقط إلى البيئة الاجتماعية ، أو إلى العامل الاقتصادى ، أو إلى الوراثة ، إذ يصعب إرجاع الظاهرة إلى عامل واحد . ولكن قد نستطيع —

---

(١٧) تيماشيف . مرجع سابق . ص (٢٥٨) .

(١٨) د . عبد الباسط محمد حسن : أصول البحث الاجتماعى . الناشر : مكتبة وهبة بالقاهرة : الطبعة التاسعة ١٩٨٥ م . ص (١٠١ — ١٠٢) .

من خلال فكرة الارتباط (correlation) — أن نحدد مقدار ارتباط ظاهرة الإجرام بالعامل الاقتصادى ، ومقدار ارتباطها بعامل تفكك الأسرة ، أو بعامل فتور الوعى الدينى وهكذا[١٩] .

تحاول بعض النظريات إرجاع الجريمة الخلقية إلى ظروف البيئة الاجتماعية ، أو إلى العامل الاقتصادى ، وكأن المجرم كان مدفوعا بقوة (جبرية — حتمية) لارتكاب الجريمة ، وبناءً على ذلك ؛ لايعتبر المجرم الخلقى مسئولا عن جريمته . ولاشك أن مثل هذا الاتجاه له خطورته البالغة على المجتمع .

ولعلنا نلاحظ أيضا ، أن ماركس قد اعتمد على قوى غيبية — غامضة — تفسر تأثير العامل المادى (أساليب الإنتاج) فى تشكيل النظام الاجتماعى والسياسى والدينى .

ولقد حاول الاقتصادى الإيطالى (Achile Loria) (١٨٥٧ م — ١٩٣٤ م) أن يقدم بديلا واضحا ومفهوما عن القوى الغيبية — التى افترض (ماركس) أنها تدفع بالمجتمع إلى التقدم — فذهب إلى أن الانحسار التدريجى فى الأرض الحرة — أى الأرض المباحة التى لا مالك لها — هو العامل الحاسم فى عملية التطور الاجتماعى[٢٠] .

رأينا فى مطلع هذا الفصل كيف أن (ماركس) قام بجمع شتات غير متناسق من أفكار الفلاسفة ، أمثال (هيجل) و (فيورباخ) فضلا عن تشويهه للنظرية الكلاسيكية فى القيمة . ونضيف إلى ذلك الآن أن (ماركس) و (انجلز) قد تأثرا أيضا — وإلى حد كبير — بنظرية (Morgan) فى التطور الاجتماعى ، والتى ركزت على العامل التكنولوجى . لقد زعم (مورجان) أن هناك مراحل محددة للتطور . فالخبرة البشرية تسير تقريبا فى دروب محددة ؛ لأن عملية العقل الإنسانى — فى زعمه — عملية موحدة مهما تباينت المجتمعات الإنسانية . وادعى (مورجان) أن المراحل التكنولوجية التى مرت بها البشرية ، قد ارتبطت بتطور

---

(١٩) المرجع السابق . ص (٤٥ — ٤٦) .

(٢٠) تيماشيف . مرجع سابق . ص (١٤١ — ١٤٣) .

متميز فى الدين والأسرة والملكية والتنظيم السياسى [٢١]

ولقد حاول (T . Veblen) (١٨٥٧ م ـــ ١٩٢٩ م) التأكيد على أهمية العامل التكنولوجى ، فزعم أن التكنولوجيا هى التى تشكل العلاقات الاجتماعية والثقافية . ويذهب (فبلن) إلى أن الغرائز الإنسانية عندما تفصح عن نفسها تتأثر بالبيئة المادية . فالإنسان فى رأيه هو نتاج لما يصنعه[٢٢] . ويرى (White) أن للثقافة عناصر ثلاثة : هى الثقافة التكنولوجية ، التى تتكون من الوسائل المادية واستخدامها ، والثقافة السوسيولوجية ، والتى تتكون من أنماط السلوك فى مجال العلاقات الاجتماعية ، وأخيرا الثقافة الأيديولوجية ، أو النسق الأيديولوجى ويتكون من الأفكار والمعتقدات والمعرفة . ويذهب (هوايت) إلى أن النسق التكنولوجى ، هو العامل الحاسم فى عملية التطور الثقافى ، بينما تعتمد الأنساق الاجتماعية والأيديولوجية على النسق التيكنولوجى . ولعلنا نلمس فى رأى هذا الكاتب اتجاهاً نحو الحتمية التكنولوجية[٢٣] .

وقد يكون من المناسب أن نشير إلى محاولات أخرى فى تفسير التاريخ ، انطلاقا من فكرة (الحتمية) وتأثير البيئة الخارجية فى عملية التطور الاجتماعى . يذهب (Buckle) إلى أن العمليات الاجتماعية والتاريخية هى رد فعل للبيئة الخارجية وتأثيرها على العقل ، كما أنها من فعل العقل وتأثيره على البيئة الخارجية . ويعتقد (بكل) أن البيئة الجغرافية ذات تأثير قوى ومباشر فى البدائيين ، إلا أن هذا التأثير يتضاءل كلما تقدمت الثقافة . إن التقدم الثقافى يعتمد فى رأى (بكل) على ظهور الطبقة العاطلة بالوراثة عندما يزيد الإنتاج على الاستهلاك ـــ أى عندما يتحقق فائض فى الإنتاج نتيجة للظروف المواتية من المناخ والتربة الصالحة . ويرى (بكل) أن المناخ المعتدل يدفع إلى النشاط ، بينما يدفع المناخ الحاد إلى الكسل والاسترخاء . ولكن (بكل) لم يهمل ـــ كما فعل ماركس وغيره من (الحتميين) ـــ دور الإنسان الإيجابى فى عملية التطور ، إذ يرى أنه قادر ـــ فى المراحل التاريخية اللاحقة ـــ على السيطرة على الظواهر الطبيعية الخارجية[٢٤] .

---

(٢١) تيماشيف . مرجع سابق . ص (٨٩) .

(٢٢) المرجع السابق . ص (١٤٣ ـــ ١٤٤) .

(٢٣) المرجع السابق . ص (٤٢٠ ـــ ٤٢١) .

(٢٤) المرجع السابق . ص (٩٣) .

إن القول بالحتمية يتجاهل حقيقة الإنسان ، كما يتجاهل طبيعة العلاقة بين الإنسان والكون . إن الإنسان ـــ فى جانب من تكوينه ـــ كائن حى كسائر الكائنات الحية الأخرى ، ولكنه ـــ فى جانب آخر من تكوينه ـــ كائن إرادى عاقل ، يملك القدرة على الاختيار فى مجالات معينة من النشاط الإنسانى .

إن للإرادة الإنسانية مجالات تستطيع فيها أن تمارس حريتها ـــ ولو أنها تتقيد فى ذلك بمحددات معينة . إن الظواهر اللاإرادية ـــ أى الظواهر التى تتحرك بطريقة لاشعورية غير واعية ، كالظواهر الفكلية والطبيعية والبيولوجية ـــ تخضع فى تكوينها وفى حركتها لقوانين وسنن موضوعية (إلهية) خضوعا لا إراديا لا اختيار فيه ، مثل دوران الأرض حول محورها ودورانها حول الشمس ، وما يترتب على ذلك من تعاقب الليل والنهار وتوالى الفصول .

لايستطيع الإنسان أن يتدخل بإرادته فى عمل تلك السنن والقوانين الإلهية . وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك . يقول تعالى : ﴿ **قال إبراهيم فإن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذى كفر** ﴾[٢٥]. إن الإنسان لايستطيع أن يتجاهل جاذبية الأرض ، وإذا ألقى الإنسان بنفسه (اختباراً) من فوق قمة الجبل فلاقى حتفه ، هل يمكن القول بأن موته كان أمرا محتوما ؟ وإذا تناول المرء (اختيارا) مادة سامة فمات لفوره ، فهل يمكن القول بأن المادة أقوى أو أعلى من الإنسان ؟ إن الصحيح أن نقول إن الإنسان مسئول عن هلاكه ، لأنه تجاهل قوانين الكون والمادة . لايجوز لنا أن نتحدث عن الجبرية أو الحتمية فى إطار العمل الإرادى ، وإنما الصحيح أن نقول إن الظواهر اللاإرادية وقوانينها تعتبر محددات (constraints) للسلوك الإرادى .

إن للإرادة مجالات عمل يستطيع الإنسان فيها أن يمارس حرية الاختيار بين عدد من البدائل . ومع ذلك ـــ ولأن الإنسان كائن عاقل ـــ يميز بين النافع والضار ، فإنه يأخذ فى اعتباره ـــ أثناء عملية المفاضلة ـــ طبيعة الظاهرة اللاإرادية التى يتعامل معها وقوانينها . وعلى سبيل المثال : توجد للتربة الزراعية خصائص ومكونات يحاول الإنسان أن يكشف عنها ، وأن يتعرف على طبيعة العمليات الحيوية

---

(٢٥) البقرة (٢٥٨) .

التى تجرى بداخلها ، حتى يعرف كيف يتعامل معها ويعرف ما يلائمها من سماد وبذور وأساليب الحرث والرى ، ويحدد المعدل الأمثل للاستغلال ـــ أى المعدل (الطبيعى) الذى لايرهق التربة ولا يفسدها ـــ لكى تظل دائما قادرة على العطاء . يأخذ الإنسان ذلك فى حسابه ، فى نشاطه الزراعى (الاقتصادى) . فإن فعل أعتطه التربة بسخاء ، وإن لم يفعل وتجاهل خصائصها ومكوناتها وقوانينها ، فإنها تمتنع عليه ، ولو بعد حين ، فلا يحصل منها على مايحتاج إليه من ثمار . فهل يمكن القول بأن التربة (أو الظاهرة اللاإرادية) تمارس ضغطا ، أو تشكل حتمية على سلوك الإنسان ؟ .

إن الإرادة تنطوى على الاختيار . والاختيار ينفى الجبر والقهر . يستطيع الإنسان أن يتجاهل قوانين التربة ، ولكنه يتحمل فى النهاية نتيجة هذا التجاهل . ولقد حدث ذلك بالفعل عندما اندفع الإنسان المعاصر فى استغلال الأرض الزراعية بمعدلات أعلى من المعدل الطبيعى ، فتوسع فى استخدام الأسمدة والمواد الكيماوية ، حتى تصحرت الأرض وتولدت المشكلات البيئية الحادة .

إن القول بالجبرية أو الحتمية (الاقتصادية أو الجغرافية أو العنصرية) ، يحيل الإنسان إلى كم سلبى مهمل . وليس الإنسان كذلك . والتاريخ القديم والحديث يؤكد هذه الحقيقة . إن للإنسان دورا إيجابيا وفعالا فى الحياة وفى عملية البناء الحضارى . يستطيع الإنسان ـــ وقد استطاع بالفعل ـــ أن يتغلب على مشكلة نقص الموارد ، ويستطيع ـــ وقد استطاع بالفعل ـــ أن يتحرر من الجاذبية الأرضية ، ويستطيع ـــ وقد استطاع بالفعل ـــ أن يقيم حياته على أسس عادلة يتحقق بها ـــ ومعها ـــ الحق والحرية والمساواة والتكافل والإيثارية والعدل .

ليس صحيحا ماتذهب إليه الماركسية من أن الملكية الخاصة هى بالضرورة مصدر الاستغلال والظلم الاجتماعى . فلم تكن الملكية الخاصة يوما ما مصدرا للمساوىء الاجتماعية فى العالم الإسلامى ، منذ عهد النبوة وحتى الخلافة العباسية . وقد يكون العكس هو الصحيح ، إذ كانت الملكية العامة (الأرض الخراجية) مصدرا للمتاعب السياسية والاجتماعية . ولم يكن ذلك ؛ لأن الملكية العامة فى ذاتها قد أثارت تلك المتاعب ، وإنما كان ذلك ؛ لأن البعض ـــ أمثال الحجاج بن يوسف

الثقفى ، وقد انحرف عن منهج الإسلام وقواعده — أحال الأرض العشرية للمسلمين إلى أرض خراجية طمعا فى زيادة الأموال التى تحصل عليها . وقد أشرنا إلى ذلك — فى معرض حديثنا عن عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه — بالفصل السابق ..

القضية إذن قضية سلوك إرادى ، لا مجال فيه للحتمية أو الجبرية .

وليس صحيحا ماتزعمه الماركسية من أن الثورة الصناعية ، وما تمخضت عنه من تملك الرأسماليين للمصانع والآلات ، كانت سببا فى الظلم الاجتماعى واستغلال العمال . ولعل الصحيح فى ذلك أن القيم الاقتصادية والاجتماعية التى سادت أوروبا قبل الثورة الصناعية (فى عهد الرأسمالية التجارية) وبعدها (فى عهد الرأسمالية الصناعية) كانت قيما منحرفة ، وكان الاستغلال متأصلاً فى نفوس الرأسماليين . إننا لو تصورنا قيام الثورة الصناعية فى العالم الإسلامى — حيث سادت عقيدة التوحيد بمقوماتها الإيمانية والتعاملية والأخلاقية — هل كان يمكن أن تقوم العلاقات بين العمال وأصحاب العمل على أسس استغلالية غير عادلة ؟[٢٦] .

إن الحضارة إنسانية بالضرورة — ولم يثبت حتى الآن قيام (حضارة) فى عالم الحيوان . فالحضارة إذن ترتبط بالجانب الإدراكى والروحى للإنسان ، ولا ترتبط بجانبه الحسى . إن مجرد التقدم المادى الذى يستهدف إشباع حاجات الجسد ونوازعه ، ليس هو الهدف النهائى من حياة الإنسان ، وإنما هو مجرد هدف ووسيلة لتحقيق غاية أسمى من مجرد الإشباع الحسى . إن (إنسانية) الإنسان لا تتحقق إلا فى مجتمع قوامه العدل والحق والرحمة والتكافل والإيثارية ، ولن يقوم مثل هذا المجتمع إلا على أساس عقيدى ، حيث تسود عقيدة التوحيد ، وتهيمن على كافة جوانب السلوك الإنسانى فى المجالات الدينية والثقافية والاجتماعية والسيكولوجية والاقتصادية[٢٧] .

وقد يكون من المناسب أن نختتم دراستنا للتفسير المادى للتاريخ ، بالإشارة إلى مجموعة من الدراسات الأمريكية الحديثة ، التى أثبتت أن ما ذهب إليه (ماركس وإنجلز) من وجود مرحلة مشاعية أولى غير صحيح . فقد أوضحت تلك الدراسات

(٢٦) سنناقش القضايا المتعلقة بتاريخ الثورة الصناعية والملكية الخاصة والعامة ، بشىء من التفصيل ، فى الأجزاء التالية من الكتاب بمشيئة الله وعونه .

(٢٧) سنناقش ذلك ، بشىء من التفصيل ، فى فصل لاحق بعون الله .

وجود الملكية الخاصة للأدوات والأسلحة والملابس وغير ذلك — إلى جانب الملكية الجماعية للأرض — بل إن هذه الملكية الخاصة كانت تمثل جزءاً من النظم التى قامت عليها الشعوب البدائية . ومن ناحية أخرى فقد أوضحت الدراسات الحديثة خطأ الفرض القائل : بأن مراحل النمو الاقتصادى قد انتقلت من مرحلة الصيد إلى مرحلة الرعى ثم مرحلة الزراعة . لقد بين (Hahn) أنه — فى الوقت الذى كان فيه الإنسان البدائى يمارس عمليات الصيد — كانت المرأة تشتغل بالتقاط ما تنتجه الأرض من ثمار ، كما وجدت الزراعة دون أن تسبقها مرحلة متوسطة لرعى الماشية . وقد تأيد ذلك فى بعض مجتمعات الهنود فى أمريكا(٢٨) .

كذلك ، قد يكون من الطريف أن نشير إلى مايؤكد ما ذهبنا إليه بالفقرة (٧) فى هذا الفصل ، من أن (ماركس) قام بدراسة التاريخ الإنسانى اعتمادا على وقائع معينة تثبت صحة ما ذهب إليه ، بينما تجاهل وقائع أخرى لأنها تثبت فساد ما ذهب إليه . فقد أثيرت الشكوك حول المناهج التى استخدمها العلماء التطوريون ، بعد ماتبين أنهم ينتقون شواهد معينة بالذات ، ثم ينظمونها على نحو معين ؛ لكى تبدو ملائمة للمراحل التطورية ، بينما يعتبرون ما لايناسب الإطار التطورى من قبيل المخلفات أو الرواسب ، ويصنفونها على أنها حالات فردية(٢٩). ومن هنا يكون الواجب على الباحث المنصف والمحايد أن يكون حذرا فى تقبله للنظريات والفروض التى يصوغها الكتاب لتفسير القوانين والظواهر ، وعلى وجه الخصوص ماكان منها متعلقا بسلوك الإنسان . وقد نشير — للتدليل على ذلك — إلى أن النظرية الاجتماعية والتاريخية التى صاغها (ماركس) ، قد أقامها على فرض خاطىء ، مؤداة أن المادة أزلية ، وأنها تخضع للتطور والجدل الدياليكتيكى ، انطلاقا من فكرة النقيض والصراع . ولقد أثبت (٣٩) عالما سوفيتيا — من علماء المادة عام ١٩٣٩ — زيف الفرض الماركسى . ومن ناحية أخرى تؤكد كافة الدراسات الحديثة أن الكون بكل مافيه من ظواهر فلكية وفيزيقية وبيولوجية ، يقوم على التوازن لا الاختلال ، وأنه لامجال مطلقا لفكرة التناقض أو الصراع مع التوازن ، وإنما تصدق تلك الفكرة فقط مع الاختلال(٣٠) .

---

(٢٨) تيماشيف . مرجع سابق . ص (٢٠٥) . (٢٩) المرجع السابق . ص (٢٠٥ — ٢٢٦) .

(٣٠) راجع فى ذلك . الفصل العاشر بعنوان « التوازن الشامل » من كتابنا : « التوازن والتحليل الاقتصادى » . ١٤٠٦ هـ — ١٩٨٦ م .

الفصل الخامس

الداروينية الاجتماعية

لجأ (Bagehot) (١٨٢٦ م — ١٨٧٧ م) إلى تطبيق نظرية النشوء والارتقاء — التى صاغها (داروين) — على المجتمعات الإنسانية ، وحاول بذلك أن يفسر عملية التغير الاجتماعى باستخدام مبادىء الانتخاب الطبيعى والبقاء للأصلح على المستوى السوسيولوجى . لقد تأثر (باجوت) بأفكار (داروين) تأثرا كبيرا ، دفعه إلى القول بأن الفرق بين الإنسان المتحضر والإنسان غير المتحضر هو الفرق بين الحيوان الأليف والحيوان المتوحش ، وأن عملية (استئناس) الإنسان هى ذاتها عملية استئناس الحيوان .

ولكى يفسر (باجوت) عملية التقدم، استعار من(داروين) مبدأ القابلية أو التحول (Variability) الذى يذهب إلى وجود ميل لدى النسل أو الأبناء للاختلاف عن أسلافهم ؛ لأنه بدون التسليم بهذا المبدأ يصبح من العسير تصور إمكانية إطراد التحسن فى النسق البيولوجى أو الاجتماعى[١] .

أما (Gumplovicz) فقد ذهب إلى أن التطور الثقافى والاجتماعى هو نتاج للصراع بين الجماعات الإنسانية على غرار الصراع من أجل البقاء . يقول (جمبلوفتش) إن النوع الإنسانى قد ارتقى عن نماذج قديمة مختلفة ومتنوعة فى أماكن وعصور مختلفة ، ومعنى ذلك أنه لاتوجد رابطة دم بين أجناس البشر . كذلك فقد استنتج هذا الكاتب — من الحروب التى نشبت بين الجماعات فى الماضى — تأصل روح العداء والكراهية بين الأجناس والجماعات المختلفة . ويفسر الصراع بالرغبة فى تحسين الأوضاع الاقتصادية ؛ أى أنه يتجه فى تفكيره اتجاهاً (ماركسيـاً) .

---

(١) المرجع السابق . ص (١٠٠ — ١٠٢) .

ويذهب (جمبلوفتش) إلى أنه فى العصور القديمة ، كان المنتصرون يبيدون المهزومين إبادة تامة ، إلا أنه فى العصور اللاحقة ، وجد المنتصرون أنه من الأفضل لهم أن يستعبدوا المهزومين ، وهكذا نشأت الدولة فى زعم هذا الكاتب ؛ نتيجة تسلط جماعة على أخرى . ومع نشأة الدول قامت الرغبة فى الغزو بالإضافة إلى نشوب الصراع الطبقى داخلها .

وقد رفض (جمبلوفتش) فكرة تطور الجنس البشرى فى مجموعه ؛ لأنه لا يؤمن بوجود هذا الجنس ككل . أى أنه لايرى أن هناك تقدما أو تقهقرا فى حركة التاريخ ككل . إذ لا توجد حضارة إنسانية موحدة ، ولكن توجد حضارات خاصة ، وقد يحدث التقدم فى مراحل معينة ومناطق معينة . وهكذا كان (جمبلوفتش) متشائما فى نظرته إلى الحياة وإلى التاريخ الإنسانى . وكانت آراؤه خليطا من الماركسية والداروينية الاجتماعية(٢) .

قد نتفق مع (جمبلوفتش) فيما ذهب إليه من أنه لاتوجد حضارة عالمية للجنس البشرى فى مجموعة ، إلا أننا لانستند فى هذا الرأى إلى التفسير الذى قال به هذا الكاتب ، والذى مؤداه : أنه لايوجد (جنس بشرى واحد أو موحد) وإنما توجد (أجناس متباينة) . إن هذا التفسير خاطىء من ناحية ، ويتعارض مع الإسلام من ناحية أخرى . لقد أثبت العلماء أنه لافرق بين إنسان وإنسان فى النواحى الفسيولوجية والعقلية ، وفضلا عن ذلك ، فإن نظرية اروين — التى أقام عليها (جمبلوفتش) دراسته — قد ثبت عدم صحتها . وسنعود إلى مناقشة هذا الموضوع بعد قليل بعون الله .

أما عن موقف الإسلام من قضية الجنس البشرى ، فإن القرآن الكريم يؤكد وحدة هذا الجنس . يقول تعالى فى أول آية من سورة النساء : ﴿ **يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساءً ...** ﴾(٣) . قد يختلف الناس فى اللون أو فى اللغة أو فى المذهب ، وقد تختلف الجماعات فى العادات والتقاليد ، ولكن ذلك كله لا تأثير له فى العملية الحضارية ، والتأثير الوحيد فى تلك العملية ينشأ عن العقيدة التى يؤمن بها الإنسان كما بيّنا من قبل .

---

(٢) المرجع السابق . ص (١٠٢ — ١٠٥) .

(٣) النساء (١) .

ممن أقاموا نظرية فى التطور الحضارى تجمع بين الماركسية والداروينية ــ أيضا ــ (Sumner) (١٨٤٠ م ــ ١٩١٠ م) . فقد ذهب هذا الكاتب إلى أن « البقاء للأصلح » هو قانون المدنية أو الحضارة . وأن التطور عملية تلقائية تسير فى اتجاه واحد ، لا يملك الإنسان بإرادته دفعها أو إعاقة مسارها . والصراع من أجل البقـــاء ،أى صراع الإنسان ضد الطبيعـــة وصراع الإنسان ضد الإنسان ،هو الدافـــع نحو التقدم . وينتهى (سمنر) إلى مقولة مؤداها : أنه لاينبغى أن يلام الشخص الذى يضع العراقيل والعقبات أمام غيره ، فضلا على أنه لايمكن وقف القوى الاجتماعية ، التى تؤدى إلى الاحتكار والحروب وقيام الطبقات الاجتماعية وتولد الصراع الطبقى . وهكذا يكون الدافع الاقتصادى ــ لا الأخلاقى ــ هو المحرك الرئيسى فى عملية التطور[٤] .

يتضح لنا من العرض السابق أن الداروينيين الاجتماعيين قد اعتقدوا أنه يمكن أن تنقل النظرية الداروينية ــ التى ثبت خطؤها ــ من مجال التطور البيولوجى إلى مجال التطور الاجتماعى ؛ إذا استبدلنا الجماعات الاجتماعية بالكائنات العضوية . وعلى ذلك ، فإن المجتمع الإنسانى يخضع لسنة التطور كما يخضع لها الكائن العضوى . وهكذا نشأت المدرسة العضوية فى علم الاجتماع . ويرى (Lilienfeld) أن المجتمع الإنسانى كائن عضوى حقيقى ، وأنه استمرار للطبيعة أو للقوى التى تخضع لها كافة الظواهر الطبيعية ، وأنه أكثر الكائنات العضوية تطورا .

ذهب (ليليا نفلد) إلى أن الأفراد يمثلون خلايا الكائن العضوى (الاجتماعى) ، وأن مايقوم به الكائن الاجتماعى من نشاط اقتصادى وسياسى يمثل العمليات الفسيولوجية والمورفولوجية ، التى يؤديها الكائن العضوى . وزعم هذا الكاتب أن الأجناس القوية من البشر تناظر الذكور ، بينما تناظر الأجناس الضعيفة الإناث ، وأن الصراع يماثل الصراع بين اللواقح حول البويضة! .

ويرى (schaffle) أن الطرقات والمبانى هى الهيكل العظمى للجسم الاجتماعى ، وأن الاقتصاد يمثل التغذية ، وتعتبر السلع المتراكمة المادة التى توجد بين الخلايا ، كما أن تبادل السلع وانتقال الأشخاص بمثابة الحركة فى الكائن العضوى .

---

(٤) المرجع السابق . ص (١٠٩ ــ ١١٥) .

ويستنتج من كتابات (شافل) ، أنه يفسر نشأة الحضارات انطلاقا من فكرة (داروين) عن الانتخاب الطبيعي[٥] .

والواقع أنه من غير الملائم أن نناقش موضوع التطور دون أن نعرض أفكار (Herbert Spencer) ، التى تدور حول اعتبار المجتمع كائنا عضويا يخضع — مثله — لسنة التطور . إن المبدأ التطورى هو الأساس الذى أقام عليه (سبنسر) مذهبه ، وهو يرى أن هناك اتصالا فى التطور الذى يحدث فى العالم غير العضوى (المادة غير الحية) ، والتطور العضوى (للكائنات الحية) ثم التطور فوق العضوى الذى يحدث فى المجتمعات الإنسانية . ويؤمن (سبنسر) بأن الطبيعة تتخلص من الطالح وتحتفظ بالأصلح . وليس الأصلح فى رأيه الأفضل من الناحية الأخلاقية ، وإنما هوالأعظم قوة والأشد ذكاءً[٦] .

لسنا بحاجة إلى القول أن النظريات العضوية التى عرضناها حتى الآن ، هى نظريات أحادية تنتمى إلى النزعة العنصرية ، إذ تركز على عملية الانتخاب الطبيعى والبقاء للأصلح . ولكن (cooley) — وعلى الرغم من انتمائه إلى المدرسة العضوية — لم يأخذ بمبدأ العامل الوحيد ، الذى يدفع إلى التطور . ولقد عبر عن وجهة نظره هذه على النحو الآتى : « إن النظرية العضوية للتاريخ لاتعتبر عاملا معينا ، أو عدة عوامل أكثر أهمية من غيرها ، فهى تنكر فى الحقيقة أن يوجد العقل أو النظم أو الظروف النفسية وجودا واقعيا مستقلا عن الحياة الكلية ، التى تشارك فيها كافة هذه العوامل على نحو يماثل مساهمة أعضاء الجسم فى تحقيق حياة الكائن العضوى الحيوانى »[٧] .

وقد نضيف إلى ذلك فكرة أخرى تؤكد وجهة نظر (كولى) فى رفضه لمبدأ الانتخاب الطبيعى والبقاء للأصلح . وتتلخص تلك الفكرة فى أن الإنسان — وبالتالى المجتمع — كائن إرادى عاقل فى جانب من تكوينه . وذلك يعنى أن تطوره الحضارى لايتحقق على نحو تلقائى بلا وعى أو إدراك ، كما تذهب الداروينية التى تركز على غريزة

---

(٥) المرجع السابق . ص (١٤٨ — ١٥٠) .

(٦) المرجع السابق . ص (٧٠) ومابعدها .

(٧) (Charles H. Cooley: « Atheory of social Causation » مشار إليه بالمرجع السابق . ص (٢٥١) .

البقاء . إن النمو الذى يتحقق فى الجوانب الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والسيكولوجية من حياة الإنسان ليس نموا لاشعوريا . فالحضارة تزدهر أو تذبل بإرادة الإنسان . والإنسان ـــ بإرادته ـــ يصنع التاريخ .

لقد لاحظ (كولى) ذلك . فهو يقول : « إن وجهة النظر التطورية تدفعنا إلى الاعتقاد بأن الحياة هى عملية إبداعية ، بمعنى أننا نستطيع خلالها أن نصنع شيئا جديرا ... وأن الإرادة الإنسانية هى جزء من تلك الطاقة الإبداعية التى تفعل ذلك »(٨) .

إننا إذا نظرنا إلى الإنسان ، نجد أنه ـــ فى جانب من تكوينه ـــ كائن حى ، كسائر الكائنات الحية الأخرى من الناحية الفسيولوجية ، بمعنى أنه يتكون من خلايا حية وأجهزة وأعضاء عضوية . ولكن الإنسان ـــ فى جانب آخر من تكوينه ـــ كائن إرادى عاقل مدرك . وهو فى ذلك يختلف عن الكائنات الأخرى ـــ اللاإرادية . إن الحيوان وكذلك النبات كائنات لا إرادية تتحرك حركة لاشعورية غير واعية . وفضلا عن ذلك ، يتميز الإنسان عن غيره من الكائنات الحية بالروح ـــ وهى نفخة من روح الله ـــ التى تسمو به إلى آفاق يدرك بها مالايدركه العقل وما لاتقع عليه الحواس . والإنسان فى حقيقته ليس (مزيجا) من الجسد والعقل والروح ، وإنما هو (مركب) منها جميعا ، بمعنى أنه لاينبغى لنا أن نتحدث عن الإنسان (الجسد) أو الإنسان (العقل) أو الإنسان (الروح) ... وعندما يسلك الإنسان سلوكا إراديا معينا ، فإن هذا السلوك لايكون مصدره النهائى العقل وحده ، لأن العقل لايفكر من فراغ ، وإنما يكون السلوك (الإرادى) محصلة لتفاعل العديد من القوى ، مثل ضغوط الجسد ونزعاته ، وقوى العقل وسبحات الروح ، وما يعتمل فى نفس الإنسان من مشاعر وعواطف واستجابات . ولعل ذلك ماعبر عنه (كولى) بقوله : « إنه لا يوجد العقل ولا توجد النظم ولا توجد الظروف النفسية ، وجودا واقعيا مستقلا عن الحياة الكلية ، التى تشارك فيها كافة هذه العوامل » . نخلص من ذلك إلى أن العملية الحضارية عملية مركبة ، تشترك فيها كافة العوامل الاقتصادية ـــ المادية ـــ والعوامل الاجتماعية والثقافية والسيكولوجية . على أن

(٨) المرجع السابق . ص (٢١٥) .

اشتراك العوامل الاقتصادية ــ أى المادية ــ فى العملية الحضارية لايتحقق على نحو تلقائى دون تدخل الإرادة الإنسانية ، فالمادة لا إرادية بطبيعتها وتكوينها .

ولايمكن أن تسمو « اللاإرادة » على « الإرادة » . وهذه النتيجة أو ــ بتعبير أدق ــ هذه الحقيقة ، تقوض كافة النزعات الحتمية سواء كانت عنصرية أو اقتصادية أو جغرافية أو غريزية ، كما تدعى الداروينية ، ولقد لاحظ ذلك (كولى) وغيره من العلماء . فهذا (L. E. Ward) ــ الذى يتفق مع (سبنسر) فى نظريته عن التطور الكونى ــ يرى أن التدخل الإرادى من جانب الإنسان أمر ضرورى فى إحداث التطور[٩] ــ وهو فى ذلك يخالف (سبنسر) الذى ذهب إلى أن (الطبيعة) تتخلص من الطالح وتحتفظ بالصالح ، كما أشرنا منذ قليل .

ولنا أن نتساءل : هل كانت عمليات الإبادة الجماعية التى قامت بها جيوش إنجلترا وفرنسا والبرتغال ، وغيرها من الدول الأوروبية فى عهد الرأسمالية التجارية ، ضد شعوب آسيا وأمريكا عمليات تلقائية لم تتدخل فيها الإرادة الإنسانية ؟. وهل يمكن أن نطلق عليها عمليات انتخاب طبيعى ؟. لقد تدفق المستعمرون الأوروبيون على مناطق عديدة فى آسيا ، وارتكبوا أبشع ألوان الجرائم من أجل الحصول على الذهب والفضة وغيرهما من المعادن النفيسة . وتدفق المستعمرون الأسبان على جزر الهند الغربية وأمريكا الوسطى ، وعمدوا إلى إخضاع الهنود الحمر بالقوة ، اعتمادا على أسلحتهم النارية التى لم يعرفها سكان تلك البلاد من قبل ، وشنوا عليهم حرب إبادة جماعية ، واستخدموا أبشع أساليب البطش والإرهاب ، واستخدم الإنجليز أساليب القرصنة والسطو على السفن الأسبانية .

ويؤكد تاريخ الاستعمار أن (فاسكو دى جاما) أحرق مركبا للحجاج تحمل مئات الرجال والنساء والأطفال ، ولم تحرك مشاعره توسلات النساء وبكاؤهم وصراخ الأطفال وعويلهم . وأسر (دى جاما) حوالى ألفا من البحارة الهنود ، وشنقهم وقطع أيديهم ورؤوسهم ، ووضع جثثهم فى مركب حملها التيار إلى الشاطىء لكى يراها الناس لإثارة الرعب فى نفوسهم .

---

(٩) المرجع السابق ص (١١٩) .

هل نسمى ذلك انتخابا طبيعيا أو بقاءً للأصلح ؟ إن الوثنية وحدها ـــ وعدم الإيمان بالمساءلة فى الآخرة ـــ هى التى تفسر لنا التاريخ الاستعمارى ، وتفسر لنا عمليات الاستنزاف التى مارسها ـــ ولا يزال ـــ المستعمرون لموارد وخيرات الشعوب الضعيفة . إن العامل الاقتصادى أو الدافع الاقتصادى لايمكن أن يفسر هذه النزعة العدوانية اللاإنسانية ـــ ولا يفسرها أيضا اختلاف الجنس أو العنصر ـــ بفرض وجود هذا الاختلاف .

وهل يمكن أن نسمى ماقامت به روسيا من عمليات سحق بالدبابات للشعب البولندى ـــ فى القرن الحالى ـــ انتخابا طبيعيا أو بقاءً للأصلح ؟ ألم يكن الدافع إلى تلك المذابح هو فرض النظام الشيوعى ، الذى يقوم على الإلحاد وإنكار وجود الله ؟ إن فساد العقيدة هو العامل الحقيقى الذى يفسر لنا ذلك وغيره من انحرافات السلوك الانسانى .

إن الصراع الحقيقى الذى يدور بين الإنسان والإنسان ـــ على مستوى الفرد أو المجموع ـــ إما أنه صراع بين حق وباطل ، أو صراع بين باطل وباطل .. وإما أنه صراع بين توحيد ووثنية ، أو صراع بين وثنية ووثنية .. وإنه لكذلك ، مهما كانت أسبابه الظاهرية . قد يكون السبب الظاهرى للصراع اقتصاديا ، أو سياسيا ، ولكنه فى نهاية التحليل صراع عقائدى . لقد قامت حروب طاحنة بين الدول الأوروبية من أجل الاستئثار بالمستعمرات ، وعلى سبيل المثال ، حرب السنين السبع (١٧٥٦ ـــ ١٧٦٣) بين إنجلترا وفرنسا ، من أجل السيادة الاستعمارية على أمريكا والهند ، فهل يبرر العامل الاقتصادى تلك الحروب ، التى أُرهقت فيها أرواح الملايين من البشر ؟ لقد حرم الله قتل النفس ـــ إلا بالحق ـــ فهل يمكن أن يكون استهداف سلب الموارد وخيرات المستعمرات ، حقا يبرر العدوان والطغيان ؟ لاشك أن هذه الحروب إنما كانت صراعا بين وثنيات ، فهى ـــ وبكل تأكيد ـــ صراع بين باطل وباطل ، ولايمكن تفسيرها أو تبريرها بفكرة البقاء للأصلح ، أو الانتخاب الطبيعى على النحو الذى يجرى فى عالم الحيوان كما تزعم الداروينية .

قد تكون فكرة الصراع من أجل البقاء ، والبقاء للأقوى ـــ كما يقول (سبنسر) ـــ صحيحة عندما تسود العقائد الوثنية الفاسدة . ولكن الفكرة غير

صحيحة وبكل تأكيد ، إذا كانت العقيدة السائدة هى عقيدة التوحيد . إن من مقتضيات التوحيد إفراد الله بالربوبية والعبودية والألوهية والحاكمية والسلطان . ومن مقتضيات ذلك ، الاعتراف بأن الله سبحانه وتعالى هو الذى يحيى ويميت ، وأنه سبحانه الذى يعز ويذل ، وأنه سبحانه هو الرازق . فلماذا إذن الصراع من أجل البقاء أو من أجل الرزق ؟ عندما تسود عقيدة التوحيد فإنها تهيمن على كل جوانب السلوك الإنسانى ، على مستوى الفرد ومستوى المجموع فى كافة مجالات الحياة الدينية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والسيكولوجية . ويكون الالتزام بمنهج الله القائم على الحق والعدل والرحمة والتكافل والإيثارية. ويكون الصراع بين الحق والباطل من أجل الإصلاح وعمارة الأرض . وهكذا ، لا يتصور مطلقا أن يقع الصراع من أجل (البقاء) ، أو من أجل سيادة الأقوى إلا فى غياب عقيدة التوحيد .

إن ماذهب إليه (جمبلوفتش) من تأصل روح العداء والكراهية بين الجماعات الإنسانية ، وما انتهى إليه (سمنر) من تبرير للحروب وإراقة الدماء ، زاعما بأن البقاء للأصلح (أى الأقوى) ، هو قانون المدنية ، كل ذلك مرفوض تماما ، لأنه يتعارض مع الفطرة الإنسانية و (إنسانية) الحضارة ، ولأنه ــ فوق ذلك كله ــ يناقض مقتضيات التوحيد .

نشير ــ فى نهاية بحثنا للداروينية الاجتماعية ــ إلى أحد علماء ذلك المذهب وهو (Novicow) الذى أوضح أن الصراع من أجل البقاء هو الميكانيزم الأساسى فى عملية التطور . لقد تأثر (نوفيكوف) بأفكار (سبنسر) الذى كان يؤمن بتلقائية التطور من البسيط إلى المركب انطلاقا من النظرية الداروينية العضوية . ذهب (نوفيكوف) إلى أن التغير الاجتماعى يمر من خلال مراحل أربعة :

المرحلة الأولى : يأخذ فيها الصراع الطابع الفسيولوجى ، الذى يتمثل فى محاولة التخلص من مصادر التهديد والخطر ، أما **المرحلة الثانية** فيأخذ فيها الصراع الطابع الاقتصادى الذى يتحول إلى الطابع السياسى فى **المرحلة الثالثة** ــ وأخيرا فى **المرحلة الرابعة** يصبح الصراع فكريا أى من أجل السيطرة الفكرية ، ويرى أن حدة

الصراع آخذة فى التناقص نتيجة تزايد العدالة والتعاطف[١٠] ، وهكذا يختتم (نوفيكوف) نظريته فى التطور بالتفاؤل على خلاف (جمبلوفتش) ، الذى كان متشائما فى نظرته إلى الإنسان وإلى الحياة على نحو ما أسلفنا فى مستهل هذا الفصل .

ولعلنا نلاحظ أن هذا الكاتب حاول إبراز طبيعة الصراع بين الجماعات الإنسانية على مر التاريخ ، وأن يبين تغير الدوافع الكامنة وراء هذا الصراع . ويعنينا من تلك النظرية جانبها الذى يتعلق بصراع الأفكار . فنحن نعتقد ـــ والتاريخ يؤكد هذا الاعتقاد ـــ أن الصراع دائما صراع بين الحق والباطل ، وقد يقع الصراع بين باطل وباطل مهما كانت الدوافع أو العوامل الظاهرية لهذا الصراع . إن العقيدة هى العامل الحقيقى الكامن وراء كافة الصراعات والحروب التى دارت وتدور بين الناس . قد يكون السبب الظاهرى ، أو المباشر اقتصادياً أو سياسياً ، أو لدوافع عنصرية واستعلاء الجنس ، أو لغير ذلك من أسباب ، إلا أنه فى نهاية التحليل ، تكمن العقيدة كعامل حقيقى وحاسم فى الصراع . ولن تخف حدة الصراع ، على خلاف مايذهب (نوفيكوف) ؛ لأن الشر والخير يوجدان معا فى النفس الإنسانية ، ولن يختفى أحدهما إلا بانتهاء الحياة نفسها .

لقد انهارت الداروينية فى جانبها البيولوجى ، بعد أن أثبتت بحوث العلماء خرافة مبدأ الانتخاب الطبيعى فى عالم الحيوان وعالم النبات ، وانهارت نظرية النشوء والارتقاء تماما .

زعم (داروين) أن التجربة قد أثبتت أن كل الكائنات تنحدر من أصل واحد ، إلا أنها اختلفت وتباينت إلى أجناس وفصائل بسبب العوامل البيئية المختلفة . وزعم أيضا أن هذا (التطور) فى الأنواع حدث نتيجة لتفاعلات مادية داخلية دون أية قوة من خارجها .

ولقد انهارت مزاعم (داروين) تماما ، بعد أن اكتشف العلماء حيوانات بحرية دنيا باقية حتى اليوم ، دون أن تخضع للتطور أو الترقى كما يدعى . وكشف

(١٠) المرجع السابق . ص (١٤٦ ـــ ١٤٧) .

علماء الطبقات الجيولوجية أيضا وجود حيوانات دنيئة فوق حيوانات عليا . وأثبت علماء الأحياء والكيمياء الحيوية أنه من المستحيل تفسير التفاعلات العضوية وغير العضوية ، التى تجرى داخل الكائنات الحية ، دون افتراض وجود قوة خارجية ، وأن تفسير (داروين) للتطور الذاتى مجرد تفسير شخصى لا يقوم عليه دليل من العلم ونضيف إلى ماسبق ، أن (داروين) قد استخدم المنهج الاستقرائى الناقص . (incomplete deduction) حاول تعميم نتائجه ، أى أن تجاربه لم تشمل كافة أنواع الكائنات الحية وإنما اقتصرت فقط على بعض المفردات (١١) .

وإذا كانت نظرية (داروين) قد انهارت على هذا النحو فى جانبها البيولوجى ، فقد كان الواجب أن تنهار الداروينية فى جانبها الاجتماعى أيضا ؛ لأنه يرتبط وجودا وعدماً بالجانب البيولوجى . ومع ذلك ؛ فلا يزال دعاة المذاهب المادية والعنصرية يروجون للداروينية الاجتماعية . وهذا الاتجاه إنما يؤكد ماذهبنا إليه حالا ، من أن عناصر الشر والفساد لا يمكن أن تختفى إلا بانتهاء حياة الإنسان نفسها .

ومما تجدر الإشارة إليه بهذه المناسبة أن الماركسية أيضا قد انهارت فى جانبها الفلسفى ؛ بعد أن أثبت العلماء خرافة قوانين ماركس عن المادة والجدلية ، ومع ذلك يصر دعاة الماركسية على صحة جانبها الاجتماعى ... أقامت الداروينية الاجتماعية نظريتها فى تفسير التاريخ الإنسانى على أساس النظرية البيولوجية ، أو العضوية فى الانتخاب الطبيعى والصراع من أجل البقاء والنشوء والارتقاء . وأثبت العلماء فساد تلك النظرية والفروض التى قامت عليها . وكان الواجب أن يدفع ذلك علماء الاجتماع وعلماء التاريخ إلى التخلى عن مذهبهم فى التطور الاجتماعى . ولكنهم — مع ذلك — يتمسكون بهذا المذهب ويدافعون عنه ، وكذلك يفعل دعاة الماركسية الاجتماعية .

أقام ماركس نظريته فى الحتمية الاقتصادية على أساس فلسفته المادية ، التى استعارها من (فيورباخ) وفيما زعمه من قوانين للمادة . وأثبت علماء المادة — المتخصصون — أن تلك القوانين لا وجود لها ، وأن المادة ليست أزلية ، وأنها ليست من الحقائق العلمية الثابتة .

---

(١١) الشبهات والأخطاء . مرجع سابق . ص (١٣٢ — ١٣٦) .

إن من أهم التطورات العلمية فى القرن الحالى أن العلماء أثبتوا (بالدليل الحسى) ، أن المادة مؤلفة من كهرباء ، وأخذت صور فوتوغرافية للبروتونات والإلكترونات المتحركة ، وثبت أن كتلة الإلكترون ــ وهى مقياس ماديته ــ تنشأ عن كهربائيته ، أى حالته الكهربائية . وهكذا أصبحت المادة نفسها نوعا من الطاقة . فأين إذن المادة التى تحدث عنها (ماركس) ؟ !

وعلى الرغم من انهيار هذا الجانب الفلسفى للماركسية ، فإن دعاتها لا يزالون يصرون على صحة المذهب الاجتماعى ، الذى صاغه (ماركس) تأسيسا على قوانينه المزعومة وفلسفته المتداعية .

إن كان لنا من تعقيب على موقف دعاة تلك المذاهب وغيرها من المذاهب الوضعية الأخرى ، فإنه لا يسعنا إلا أن نقرر أنه موقف غير علمى لا يتسم بالموضوعية ، ولا يمكن أن يساعد على البحث العلمى الجاد ، أو التوصل إلى حقائق ثابتة يمكن أن تخدم قضية الإنسان ومستقبله الحضارى .

إن الآراء والمزاعم التى قال بها دعاة الداروينية الاجتماعية ، بعيدة كل البعد عن الموضوعية العلمية ، إذ كيف يمكن التسليم بما انتهى إليه (باجوت) من أن الفرق بين الإنسان المتحضر والإنسان غير المتحضر هو الفرق بين الحيوان الأليف والحيوان المتوحش ؟ وهل يمكن القول بأن الحضارة ، وهى بطبيعتها عملية إنسانية إرادية ، هى ذاتها عملية استئناس للحيوانات المتوحشة ؟ إن فكرة الصراع من أجل البقاء والبقاء للأصلح أو للأقوى ، التى استعارها دعاة الداروينية من عالم الحيوان أو النبات ــ بفرض صحتها ــ لا يمكن التسليم بها فى عالم الإنسان . فالصراع الذى يجرى بين الحيوانات صراع غريزى لا تحركه عوامل إرادية . والصراع الغريزى له قوانينه التى طبع الله الكائنات الحية عليها . إن القط يفترس الفأر دائما ، ولكن الفأر لا يفترس القط مطلقا . والحيوان لا يفترس حيوانا آخر من جنسه إلا فى أجناس محدودة (كالأسماك) . أما الصراع الذى يجرى بين البشر ، فهو صراع إرادى هادف لا تحركه مطلقا عوامل غريزية ، وهو ــ كما بينا من قبل ــ صراع بين الحق والباطل أو صراع بين باطل وباطل .

وهذه الحقيقة تدفعنا إلى رفض الزعم الذى أورده (جمبلوفتش) ، من تأصيل

روح الشر والعداء بين الناس . إننا لا ننفى وجود الشر ، ولكننا لا ننفى أيضا وجود الخير ، ومن هنا يتولد الصراع . إننا إذا سلّمنا بأن الخير والشر من حقائق الوجود الإنساني ؛ فإن معنى ذلك أن نرفض ماانتهى إليه (سمنر) ، من أنه لا ينبغى أن يُلام الإنسان الذى يضع العراقيل والعقبات أمام أخيه الإنسان ، بدعوى وجود مايسمى بقانون كونى للتطور لا يملك الإنسان له دفعا ، وأن هذا القانون يعمل على دفع عجلة التقدم على أساس مبدأ البقاء للأصلح .

ونضيف إلى انتقاداتنا للداروينية الاجتماعية نقدا آخر ، نوجهه إلى النظرية العضوية ، التى تنظر إلى المجتمع على أنه كائن حى كالكائنات العضوية . فقد لجأ أنصار التماثل العضوى إلى التصورات الفلسفية التى تبتعد كثيرا عن الواقع ، من ذلك ماذهب إليه (ليليانفلد) من أن الأجناس القوية من البشر تناظر الذكور ، بينما تناظر الأجناس الضعيفة الإناث ، وأن الصراع بين البشر يماثل صراع اللواقح حول البويضة . ولعل (ليليانفلد) كان يريد بذلك أن يصور تكالب الدول الأوروبية (القوية) على المستعمرات (الضعيفة) ، والصراع الذى اشتد أواره بين تلك الدول وتنافسها الدموى حول المستعمرات .

إن التفسير الصحيح للتنافس الاستعمارى إنما يكمن فى الانحراف العقدى . والصراع الذى نشب بين الدول الأوروبية من أجل الاستئثار بموارد المستعمرات إنما كان صراعا بين باطل وباطل ، ولا يمكن مطلقا أن تفسره فكرة الانتخاب الطبيعى أو مبدأ البقاء للأصلح ، أو النزعات العنصرية ، أو الحتميات الاقتصادية ، أو التكنولوجية أو الجغرافية . وإذا سلمنا جَدَلاً بأن تلك الفكرة أو المبدأ أو النزعات أو الحتميات ، قد لعبت دورا فى هذا الموضوع ، فإننا نرجعها جميعها إلى عامل واحد وحاسم ، وهو فساد العقيدة .

الفصل السادس

النظرية الاجتماعية

أشرنا فى الفصل الثالث ، وفى معرض مناقشتنا للنزعة العنصرية ، التى تعلى من شأن الجنس وتجعل تاريخ أوروبا ممثلا لتاريخ العالم ، أشرنا إلى (دانيلفسكى) الذى عارض تلك النزعة ، وحاول أن يجيب على السؤال الذى مؤداه : لماذا تضمر أوروبا العداء لروسيا ؟ .

رفض (دانيلفسكى) أن تكون الخبرة الأوروبية ممثلة للخبرة فى العالم بأسره ، وذهب إلى أنه من غير العلمى أن ننظر إلى التاريخ الإنسانى على أنه تاريخ أوروبا وحدها ، بينما نتجاهل التطورات فى مناطق أخرى من العالم . ورأى هذا الكاتب تركيز البحث التاريخى على الحضارات التى قامت فى أنحاء كثيرة من العالم ، كالحضارات المصرية والصينية والسامية القديمة والهندية والإيرانية والعبرية والإغريقية والرومانية والعربية والجرمورومانية والسلافية والمكسيكية وحضارة (بيرو) [1] .

وهذا الاتجاه الذى اتجه إليه (دانيلفسكى) يعتبر نقطة الانطلاق للنظرية الاجتماعية التاريخية ، التى تبدى الاهتمام بدراسة الثقافات المتميزة للجماعات الإنسانية ، دون حصر الاهتمام بدراسة ثقافة معينة دون غيرها .

ولعل (شبنجلر) يُعتبر أبرز من سار فى هذا الاتجاه ، إذ يؤكد أن لكل ثقافة طابعها أو أسلوبها الخاص ، وأن لكل ثقافة روحا مميزة بحيث لا يمكن تخفيضها إلى ثقافة أخرى . ويلخص (Timasheff) آراء (شبنجلر) فى العبارة الآتية : « ليس لتاريخ الإنسانية ككل أى معنى يمكن الكشف عنه ، وعلاوة على هذا ، فإن التقسيم التقليدى للتاريخ العام إلى قديم ووسيط وحديث ، تقسيم مضلل إلى أبعد حد .

---

(١) تيماشيف . مرجع سابق ص (٩٤) .

وليس له أية فائدة تفسيرية : أما الدلالة الكبرى فتكمن فى (تواريخ) حياة كل من الثقافات منفردة ، على حين أن العلاقات المتبادلة بينها عديمة الأهمية نسبيا وعرضيا . وكل ثقافة من هذا النوع المستقل هى مايملكه شعب (أو مجموعة شعوب) يشترك فى فلسفة حياة واحدة » (٢) .

ومما لا شك فيه أن هذا الاتجاه فى دراسة التاريخ يعتبر أكثر علمية وواقعية من النظريات الأحادية ، التى تحاول إبراز عامل واحد مؤثر فى حركة التاريخ ، كالنظريات التى سبقت لنا دراستها : الداروينية الاجتماعية ، والحتمية الاقتصادية ، أو التكنولوجية ، والحتمية الجغرافية ، والحتمية العنصرية . لا ينبغى للباحث فى النظرية التاريخية أن يركز البحث على عامل وحيد ، أو حتى ثقافة معينة بينما يتجاهل العوامل أو الثقافات الأخرى . ولقد سبقت لنا الإشارة إلى أن الحياة الإنسانية تتسم بالتعقيد ، وتشابك العوامل الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والسكولوجية ، كما أشرنا إلى رأى (هيكس) عن التأثير المتبادل بين هذه العوامل . كذلك فقد أوضحنا فى أكثر من مناسبة أن كافة تلك العوامل لا تعدو أن تكون عوامل سطحية أو مباشرة ، تؤول كلها فى نهاية التحليل إلى عامل نهائى أو غير مباشر هو العقيدة .

ولا جدال فى أن هناك حضارات قامت فى أزمنة وأماكن مختلفة من العالم ، وأن الدراسة الموضوعية تقتضى ألا يتجاهل الباحث تلك الحضارات ، وهو الأمر الذى دعى إليه (دانيلفسكى) و (شبنجلر) وغيرهما من أصحاب الاتجاه السوسيولوجى (الاجتماعى) فى دراسة التاريخ . وتأكيدا لصدق هذا الاتجاه وواقعيته نشير إلى أنه — فى القرن السابع الميلادى — ولدت حضارة من أروع الحضارات التى شهدها العالم فى تاريخه القديم والحديث ، وهى الحضارة الإسلامية التى قامت فى الجزيرة العربية ، وذلك فى الوقت الذى كانت أوروبا ترزخ تحت النظام الإقطاعى بكل مساوئه الاقتصادية والاجتماعية والدينية (٣) . وبكل أسف يتجاهل علماء الغرب هذه الحقيقة .

---

(٢) المرجع السابق . ص (٤٠٢) .

(٣) سنتناول شرح هذا النظام فى دراسة لاحقة بإذن الله . ولقد سبق أن تعرضنا للنظام الإقطاعى فى فصول سابقة — من قبيل الاستشهاد والتدليل على فساد النزعة العنصرية فى تفسير التاريخ .

لقد ساد النظام الإقطاعى أوروبا خلال الفترة من القرن الخامس الميلادى وحتى القرن الخامس عشر . وكان نظاما طبقيا يحتل فيه الإقطاعيون ورجال الكنيسة المرتبة الأولى ، بينما كانت الطبقات الأخرى كالتجار والصناع ورقيق الأرض ؛ تحتل المراتب الدنيا فى السلم الاجتماعى .... وكانت الكنيسة تدعى لنفسها بحق منح الغفران للمسىء ، وكان بعض رجالها يبيعون ما أسموه صكوك الغفران ، مما كان مصدرا للإرهاب والبطش ، وأيضا وسيلة من وسائل ابتزاز الأموال فضلا عن تماديهم فى استخدام حق الحرمان من المغفرة لإذلال الناس وإرهابهم . ووقفت الكنيسة فى وجه كل تفتح فكرى أو كشف علمى .

ولقد أسفر ذلك — وغيره — عن انتشار الفقر والمجاعات والظلم الاجتماعى ، وأطبق على أوروبا ظلام الجهل والتخلف . ولكن ، فى نفس الوقت ، كان نور الإسلام يضيء جوانب من العالم فى آسيا وأفريقيا . لقد أحدثت عقيدة التوحيد فى جزيرة العرب تغيرات جذرية عميقة فى المجتمع الجاهلى ، فنقلته من الوثنيات المتعددة إلى التوحيد ، ومن قبائل متباغضة متنافرة إلى أمة متآلفة متماسكة ، ومن أخلاق الجاهلية إلى مكارم الأخلاق . وازدهرت الحضارة الإسلامية فى كافة مجالات النشاط الاقتصادى والاجتماعى والعلمى والثقافى .

ونفذت إشعاعات تلك الحضارة إلى أوروبا من منافذ ثلاث : من جزيرة صقلية إلى إيطاليا ، ومن الأندلس إلى جنوب فرنسا ، ومع الحروب الصليبية إلى قلب أوروبا ، واستفادت أوروبا بمنجزات الحضارة الإسلامية . تحررت العقلية الأوروبية من خرافات المسيحية المحرفة ، وعرفت معنى الحق والعدل والحرية ، وأفادت كثيرا من المنهج التجريبى فى البحث فى العلوم الطبيعية . وهكذا بدأ عصر النهضة فى أوروبا بعد أن تحررت من نظام الإقطاع .

هذه اللقطة التاريخية السريعة توضح فساد النظريات الأحادية ، التى تركز على عامل الجنس أو العامل الاقتصادى أو الصراع من أجل البقاء ، وتؤكد — كما تذهب النظرية الاجتماعية التى قدمها (دانيلفسكى) و (شبنجلر) وغيرهما — أن التقدم أو التخلف عملية مركبة ، تتفاعل فيها عوامل عديدة : منها ما هو اجتماعى ، ومنها ما هو ثقافى ، ومنها ما هو اقتصادى ، ونحن نضيف من جانبنا ، أن كافة تلك

العوامل تنبثق من عامل حاسم ومؤثر هو العقيدة .

لقد أثرت الحضارة الإسلامية فى أوروبا تأثيرا إيجابيا ، وأسهمت بدرجة كبيرة فى النهضة الأوروبية فى مجالات العلوم الطبيعية والنشاط الاقتصادى ، فضلا عن انفتاح العقلية الأوروبية على المفاهيم الإسلامية للحق والحرية والعدالة والمساواة . ولكن الشيء الذى رفضته أوروبا ـــ بسبب التعصب الدينى ـــ هو تقبلها لهذه المفاهيم على أساس من عقيدة التوحيد ، إذ اتجهت ـــ فى مجالات العلوم الإنسانية ـــ إلى الفلسفة الإغريقية والقانون الرومانى . وهكذا احتفظت تلك القارة بعقائدها الوثنية ؛ ولذلك افتقرت الحضارة الأوروبية إلى عامل القوة الدافعة الحقيقية وهى العقيدة ، الأمر الذى حرم تلك الحضارة من أهم مقوماتها الإنسانية ، على الرغم مما حققته تلك القارة من تقدم مادى .

ولا يعنى ذلك أننا من أنصار العامل الوحيد فى التغير الاجتماعى . فالعقيدة ليست عاملا بسيطا يتميز بوصف مستقل ، كالعامل الاقتصادى أو العامل الثقافى أو البيئى ، وإنما العقيدة فى جوهرها عامل أصيل يحدث تأثيرات جوهرية فى كافة جوانب الحياة الإنسانية . إن العقيدة لا تقوم بذاتها ، وإنما تقوم بمكوناتها أو أصولها الإيمانية والتعبدية والتعاملية والأخلاقية . وما لم تحدث العقيدة تأثيراتها فى المجالات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية والسيكولوجية ؛ فإنها تفقد ذاتها ووجودها ، لا بد أن تهيمن العقيدة على كافة جوانب السلوك الإنسانى حتى تؤكد ذاتها ووجودها .

نعود إلى النظرية الاجتماعية ونؤكد أن أهم مايميزها عن غيرها من النظريات السابقة التى عرضناها أنها ركزت على الإنسان بوصفه إنسانا ، يملك العقل والإدراك والإرادة ، وليس كمًّا سالباً تؤثر فيه أو تعبث به الحتميات الاقتصادية أو العنصرية .

سبقت لنا الإشارة إلى النزعة التطورية عند (سبنسر) وماذهب إليه من أن تلك النزعة كونية ، بمعنى أن العقل الإنسانى ليس هو العامل الحاسم فى إحداث التطور . بل لقد ذهب هذا الفيلسوف إلى أن تدخل العقل فى حركة التطور قد يحرفها عن مسارها الطبيعى . أما (Ward) ـــ وكذلك (Giddings) فقد أكدا على أهمية العقل الإنسانى ودوره الإيجابى فى عملية التطور . وقد اشترك هذان العالمان فى نزعتهما السيكولوجية . يذهب (وارد) إلى أن الشعور هو القوة المحركة للظواهر

الاجتماعية ، وقسم القوى الدافعة للتطور إلى قوى تعمل على حفظ النوع ، وقوى تتعلق بتطور وجود الإنسان ، وهى إما إيجابية تعمل على تحقيق اللذة ، أو سلبية تحاول تجنب الألم ، وأخيرا . القوى الاجتماعية التى تقسم بدورها إلى قوى أخلاقية وجمالية وفكرية . هذه القوى الاجتماعية هى قوى نفسية واضحة تنحصر فى الشعور [٤] .

ذهب (جيدنجز) — وهو فى ذلك يتفق مع (وارد) — إلى أن المجتمع يمثل بصورة أساسية ، ظاهرة نفسية . كذلك فقد آمن هذا الكاتب — وكما فعل (سبنسر) — ومن بعده (وارد) بأن التطور هو القانون الأسمى للوجود ، وأن التطور الاجتماعى ليس إلا مظهرا للتطور الكونى . وذهب (جيدنجز) مذهب الداروينيين الاجتماعيين ، فقرر أن القوانين الفيزيقية للانتخاب الطبيعى هى التى تحدد قوانين الاختيار الاجتماعى ، التى تتعلق بالمظهر النفسى أو الإرادى للمجتمع . ولكنه مع ذلك لم يذهب إلى حد القول بتلقائية عملية الانتخاب والتطور ، وإنما ركز على دور العقل والأخلاق فى تلك العملية ، فرأى أن قانون البقاء هو قانون بقاء (القيم) وهكذا — وعلى خلاف (سبنسر) — فقد أكد (جيدنجز) على أهمية الإرادة الإنسانية فى عملية التطور [٥] .

والواقع أننا لا يعنينا من النظرية الاجتماعية — كما صاغها (وارد) و (جيدنجز) — سوى هذا التأكيد لدور الإنسان الإيجابى فى عملية التطور فى كافة جوانبها الاقتصادية والاجتماعية والثقافية ، كذلك فإننا نرى أن الصراع من أجل البقاء أو البقاء للأصلح ، هو فى حقيقته صراع بين الحق والباطل ، وأن الغلبة فى النهاية دائما للحق . يقول تعالى : ﴿ **بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق** ﴾[٦] . ويقول سبحانه : ﴿ **وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا** ﴾[٧] . ويقول جل شأنه :﴿ **ويمحُ الله الباطل ويحق الحق بكلماته**﴾ [٨] واتباع الحق عملية إرادية . يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ **وقل الحق من ربكم فمن**

(٤) راجع فى ذلك : تيماشيف . مرجع سابق . ص (١٢٠ — ١٢١) .

(٥) المرجع السابق . ص (١٣٥ — ١٣٨) .

(٦) الأنبياء (١٨) . (٧) الإسراء (٨١) . (٨) الشورى (٢٤) .

شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ﴾ [٩] .

وإذا كان الأمر صراعا بين الحق والباطل فإن ذلك ينفى فكرة التطور كعملية كونية مطردة ؛ لأن الباطل قد يعلو أحيانا استنادا إلى قوى الشر تدعمها القوة المادية . وعلى ذلك ، نفهم الحضارة فى ازدهارها وأفولها كعملية مداولة ، فتزدهر الحضارة عندما ينتصر الحق ويسود ، وتأفل الحضارة عندما ينتصر الباطل أو يطغى ، يقول تعالى ﴿ **وتلك الأيام نداولها بين الناس** ﴾ [١٠] . وسنعود بمشيئة الله إلى مناقشة قضية الصراع بين الحق والباطل فيما بعد ، فى إطار بحثنا للنظرية التاريخية . وقد يكفى أن نشير الآن إلى مايؤكد ماذهبنا إليه من نفى لفكرة التطور . فقد شهد القرن التاسع عشر الميلادى مراجعة كاملة للمذاهب التطورية ، وأثبتت الدراسات الأمبيريكية فساد تلك المذاهب . ونذكر على سبيل المثال اختبار (Westermark) للفرض التطورى الذى مؤداه : أن الإباحية أو المشاعية الجنسية كانت أولى مراحل تطور الأسرة الإنسانية ، وقد نجح (وسترمارك) بالفعل فى دحض هذا الفرض ، وأوضح أن الإنسان منذ اللحظة الأولى لحياته يميل إلى الزواج ، وأن الأسرة الأبدية البسيطة كانت أكثر النماذج شيوعا ، وأن وجود مرحلة إباحية أولى ليست إلا وهما وخرافة [١١] .

عرضنا أمثلة أخرى — فى نهاية الفصل الرابع — للدراسات الحديثة التى أثبتت فساد الفروض التى قامت عليها النزعة التطورية ، كالفرض القائل بالمشاعية الأولى فى الملكية ، والفرض الخاص بمراحل التطور والانتقال من مرحلة الصيد إلى رعى الماشية ثم الزراعة .

خلاصة القول : أن فكرة التطور فكرة غير صحيحة ، وأن الفكرة البديلة التى ينبغى أن تكون نقطة الانطلاق فى صياغة النظرية التاريخية ؛ هى فكرة المداولة ، التى تقوم على أن الصراع دائم ودائب بين التوحيد والوثنية ، أى بين الحق والباطل .

فى بداية هذا الفصل ذكرنا أن (شبنجلر) يعتبر من أبرز رواد الدراسات

---

(٩) الكهف (٢٩) .

(١٠) آل عمران (١٤٠) .

(١١) تيماشيف . مرجع سابق . ص (٢٠٤) .

الاجتماعية والتاريخية . ونضيف الآن أنه كان متشائما فى نظرته إلى الحضارة ، إذ كان يرى أنها خاتمة أو نهاية كل ثقافة . كان (شبنجلر) يرى أن الثقافة كائن حى تمر بمرحلة الطفولة ، ثم مرحلة الشباب والنضوج ، وأخيرا تنتابها الشيخوخة والموت (١٢) .

إن الباحث فى النظرية الاجتماعية للتاريخ لا ينبغى أن يتجاهل إسهامات (Arnold Toynpee) فى مؤلفه الضخم بعنوان « دراسة التاريخ » (Study of History) والذى تناول فيه قضية الانتظامات التى تحكم ازدهار الحضارات وأفولها . وقد ذهب (توينبى) — كما ذهب (شبنجلر) إلى أنَّ الحضارة تظهر فى زمن معين وفى مكان معين ثم تنمو فى ظل ظروف معينة ، ويقود هذا النمو فى النهاية إلى إخفاق الحضارة ثم أفولها .

كان (شبنجلر) يرجع أصل الحضارات إلى القدر ولكن (توينى) أرجع هذا الأصل إلى (التحدى والاستجابة) . والتحدى قد يكون ناتجا عن قوى طبيعية كالمناخ القاسى ، أو عن البشر كالجيران المحبين للقتال ، وتظهر الحضارة ثم تنمو عندما توجد (صفوة) ، أو أقلية ذكية تجد الاستجابة لهذا التحدى . ولكن الحضارة يصيبها الإخفاق عندما لا توجد تلك الصفوة ، أو عندما لا يجد التحدى الاستجابة الملائمة (١٣) ، وبعد ذلك تتفكك الحضارة وتتحلل . ويرى (توينبى) أن أفول الحضارة يحدث بسبب قوى داخلية فى الحضارة ذاتها ، كالخلاف بين الصفوة والبروليتاريا ، أى أنه ينفى أن يكون الأفول نتيجة عدوان خارجى كما ينفى أن يكون لضرورة كونية أخرى .

والحضارة — فى مرحلة تفككها — لا تنمو فيها الثقافة نموا متكاملاً ، وإنما تنمو على نحو غير متناسق . فقد يتطور فيها الفن أو الاقتصاد أو الدين . وتتحول الأقلية إلى صفوة حاكمة بعد أن تفقد قدرتها على الإبداع ، فتفرض نفسها بالقوة وينمو حجم الوحدات السياسية وتتكون الإمبراطوريات مثلاً . وفى هذه المرحلة تكثر الحروب وتنشق البروليتاريا الداخلية على الصفوة ، وتهاجم البروليتاريا الخارجية الحضارة الآفلة ، وتجتاز الحضارة فترة من المتاعب تنتهى بدولة (عالمية) تخلقها الأقلية

---

(١٢) المرجع السابق . ص (٤٠٣) .

(١٣) المرجع السابق . ص (٤٦) .

الحاكمة ، أى دولة تتحكم فى المناطق التى تنتشر فيها الحضارة ، وقد تخلق البروليتاريا دينا (عالميا) . والمثال الواضح على ذلك ، الإمبراطورية الرومانية التى انتشرت فيها المسيحية (١٤) .

ونعرض الآن جانبا من آراء أحد العلماء البارزين من أصحاب الاتجاهات الاجتماعية والثقافية فى تفسير التاريخ وهو (Sorokin). يرى (سوروكين) أن التغير الاجتماعى يأخذ شكل التقدم المضطرد إلى أن يصل إلى درجة معينة ينعكس فيها الاتجاه ، ويستمر فى الاتجاه المعاكس ، ثم يعود مرة أخرى إلى الاتجاه (التصاعدى) المضاد . والواقع أن (سوروكين) يركز على قضية الثقافة ، التى يعرّفُها بأنها : مجموع المعانى والقيم والمعايير ، وكذلك مجموع الوسائل التى تنشىء هذه المعانى وتجعلها (اجتماعية) . وقد أورد تعريفا شاملا للثقافة فى كتابه (الديناميات الاجتماعية والثقافية) بأنها « مجموع كلّ شىء يخلقه أو يعدله النشاط الشعورى أو اللاشعورى لاثنين أو أكثر من الأفراد الذين يتفاعلون فيما بينهم ، أو الذين يؤثر أحدهم فى تحديد سلوك الآخرين » (١٥) .

ولعلنا نلاحظ أن التعريف الأول للثقافة يركز على مكوناتها ، بينما يبرز التعريف الثانى لها أهمية التفاعل الاجتماعى . ولكى نفهم نظرية (سوروكين) فى التغير الاجتماعى ينبغى لنا أولا أن نتعرف على مايعنيه بالنسق الفوقى .

يذهب (سوروكين) إلى أن العلاقة بين الظواهر الثقافية الاجتماعية إما أن تكون متكاملة ، أى متماسكة ، أو تكون غير متكاملة ، أى محايدة ، وإما أن تكون متناقضة ، أى متنافرة . ويعنى بالتكامل ، الاتساق المنطقى بين الظواهر الثقافية المتفاعلة (أو الاتساق الجمالى ـــ بالنسبة للظواهر الفنية) . عندئذ تكون هذه الظواهر أنساقا ثقافية اجتماعية . هناك أنساق أساسية تتعلق باللغة وبالدين وبالفنون وبالعلم وبالأخلاق . ويعتبر (سوروكين) النسق الكلى للسكان نسقا (فوقيا) يتكون من الأنساق الخمسة الأساسية . والنسق الفوقى يتصف بفكرة أساسية تمثل النظرة السائدة إلى الحقيقة فى ثقافة معينة ، وعندما يضفى الناس على شهادة

---

(١٤) المرجع السابق . ص (٤٠٧) .

(١٥) مشار إليه فى المرجع السابق . ص (٣٤٧) .

حواسهم صدقا مطلقا يكون النسق حسيا ، وإذا اعتقد الناس بوجود واقع أكثر عمقا وراء الانطباعات الحسية يكون النسق فكريا ، وإذا كان الارتباط بين النسق الحسى والنسق الفكرى منسجماً فإنه يتولد نسق ثالث للحقيقة ، يطلق عليه (سوروكين) اسم النسق المثالى . أما إذا لم يوجد مثل هذا الارتباط فإننا نكون إزاء ما أسماه النسق المختلط . ويؤكد (سوروكين) أن الثقافة بطبيعتها متغيرة ، وأن هذا التغير يحدث بصفة أساسية بسبب القوى الداخلية للنسق .

ويشير (سوروكين) فى معرض تطبيقه لنموذجه ، إلى أن الثقافة الإغريقية كانت فكرية بين القرنين الثامن والسادس قبل الميلاد ، ثم تحولت إلى مثالية خلال القرن الخامس ونصف القرن الرابع ، وذلك هو العصر الذهبى لأثينا ، وبعد ذلك أصبحت الثقافة حسية فى عهد الإمبراطورية الرومانية [١٦] .

من علماء الاجتماع التاريخى البارزين أيضاً (إ Alfred Weber) ويقول (فيبر) : إن الحياة تاريخية أساسا ، ويقسم الكيان الكلى المركب للتاريخ إلى ثلاث عمليات متميزة : هى العملية الاجتماعية ، والعملية الحضارية ، وأخيرا العملية الثقافية .

تتكون العملية الاجتماعية من الأحداث التى تقع داخل المجتمعات ، مثل قيام الأسر والقبائل والأمم ، ومن التنظيمات الاجتماعية ، ومن الصراعات التى تجرى داخل المجتمعات . وتتكون العملية الحضارية من النشاطات الإنسانية من أجل إخضاع واستغلال الطبيعة ، وما يبتدعه من تكنولوجيا ، ويحرزه من تقدم فى العلوم الطبيعية ، والتى يغلب عليها الطابع العقلى والنفعى . ومن سمات النتاج الحضارى قابليته للنقل والتراكم ، ولذا فإن العملية الحضارية واحدية الاتجاه وتقدمية فى نفس الوقت ، كما أنها ليست قابلة للانتكاس . أما العملية الثقافية فإنها تتميز بالإبداعية وتتضح فى الفن والدين والفلسفة . والنتاج الثقافى غير قابل للنقل بسهولة ولا تعرف للعملية الثقافية أنماطا يمكن تحديدها سلفا ، أو معايير موضوعية تصدق فى كل الأحوال وذلك على خلاف العملية الحضارية .

(١٦) المرجع السابق . ص (٤٠٩ ـــ ٤١٠) . وألفريد فيبر هو شقيق ماكس فيبر ، الذى تعرضنا لآرائه فى الفصل الرابع .

وقد انتهى (فيبر) من دراساته إلى دورية العملية الثقافية ، بمعنى أنها تزدهر على طريقة الموجات المتكررة ، وهى فكرة تشبه إلى حد ما ماذهب إليه (سوروكين) .

عرضنا ــ فيما سبق ــ أهم الاتجاهات التى تأخذ بالنظرية الاجتماعية للتاريخ . وقد أوضحنا أن تلك النظرية أقرب فى تفسير الواقع من النظريات الأحادية ، التى تركز على عامل الجنس أو العنصر أو على العامل الاقتصادى . كذلك أوضحنا أن هذه النظرية تتميز بإبرازها للدور الإيجابى للإرادة الإنسانية فى توجيه حركة التاريخ .

ونحن نتفق فى ذلك مع النظرية الاجتماعية ، ولكننا نعترض على مفهوم الحضارة الذى ذهب إليه أنصار تلك النظرية . ولعلنا نتبين من استعراض آراء الكتاب أمثال (شبنجلر وتوينبى وسوروكين وفيبر) أن هذا المفهوم غير واضح تماما ، فضلا عن عدم اتفاق هؤلاء الكتاب حول مفهوم موحد للحضارة . لقد أخذ (شبنجلر) بمفهوم ثقافى للحضارة . واعتبر أن الثقافة تتناول الجوانب الفنية والدينية والفلسفية من حياة المجتمع ، كما حاول أن يحدد لكل ثقافة طابعها المميز ، فذكر أن رمز الثقافة الكلاسيكية هو التمثال العارى ، ورمز الثقافة الغربية هو الحساب وموسيقى الآلات ، وأن رمز الثقافة العربية (المجوسية والمسيحية الأولى) هو الكاتدرائية .

أما (توينبى) والذى ركز دراسته على موضوع « الحضارة » ، فقد أخذ بمفهوم الثقافة عند (شبنجلر) ، وذهب إلى أن الحضارة الهلّينية تتميز بالطابع الجمالى ، بينما تتميز الحضارة الغربية بالطابع الفنى (التكنيكى) ، أما الحضارة الروسية فإنها ــ فى رأى (توينبى) ــ تتسم بالطابع الدينى . وقد رأينا أن هذا الكاتب قد أبرز أهمية عامل الدين فى عملية التغير التاريخى .

وتحدث (سوروكين) عن الثقافة التى اعتبرها المتغير الرئيسى فى حياة المجتمع ، وأدخل (الاعتقاد) كأحد مكونات الثقافة .

وميز (فيبر) بين الحضارة والثقافة ، وأعطى للثقافة مفهوما إبداعيا (إنسانيا) ، بينما قصر مفهوم الحضارة على الجانب المادى (الاقتصادى) وعلاقة الإنسان بالطبيعة .

وفى الفصل الثانى من دراستنا الحالية رأينا (وارد) يأخذ بالمفهوم الموسع للحضارة ، ليشمل الجانب المادى والجانب الإنسانى وقصر مفهوم الثقافة على هذا الجانب الأخير . كذلك رأينا أن البعض يضيق من مفهوم الثقافة ، فيقصره على مجالات الفكر والمعلومات والخبرات ، ويستبعد من نطاقها الجوانب السيكولوجية والاجتماعية كما يستبعد الجانب الروحى .

ونحن نرى ــ تأكيداً لما انتهينا إليه فى الفصل الثانى من الكتاب ــ أن للحضارة مفهوماً إنسانياً ، يرتبط أشد الإرتباط بالجانب الإرادى والإدراكى فى الإنسان ، فالحضارة هى التى تميز الإنسان ــ ككائن حى ــ عن غيره من الكائنات الحية ، يختلف الإنسان عن الحيوان فى نشاطه الذى يستهدف به الوفاء بحاجاته المادية ، ويختلف عنه كذلك فى علاقاته بأفراد جنسه ، أى فى الجانب الاجتماعى ، ويختلف عنه أيضا فى الجانب العاطفى والانفعالى. فالحضارة إذن إنسانية بطبيعتها ولها مكوناتها المادية والاجتماعية والسيكولوجية والثقافية .

والإنسان ــ فى نشاطه الاقتصادى وفى مجالات حياته الاجتماعية والسيكولوجية والثقافية ــ يتحرك فى هدى عقيدته ، أى فى إطار تصوره لأصل وجوده ولطبيعة علاقته بالكون .

ومن هذا المنطلق العقدى يتباين الأفراد ، وتتباين المجتمعات فى كافة مجالات النشاط الإنسانى ، بما فى ذلك النشاط الاقتصادى ذاته . إن ارتفاع المستوى الحضارى للإنسان ــ الفرد والمجموع ــ أو انخفاض هذا المستوى مسألة تتوقف على العقيدة ، فيرتفع المستوى الحضارى عندما تسود عقيدة التوحيد وتهيمن على كافة جوانب السلوك الإنسانى ، وينخفض هذا المستوى عندما تنحرف العقيدة عن التوحيد ، أو عندما لاتهيمن على كافة جوانب سلوك الإنسان .

والواقع أن قضية الدين ، وعلى الرغم من أن العديد من الكتاب قد أبرز أهميتها فى العملية الحضارية ــ كما رأينا ــ إلا أنها لم تحظ بما تستحقه من اهتمام . لم ينظر هؤلاء الكتاب إلى الدين النظرة الصحيحة ، ولم يركزوا بحوثهم على عقيدة التوحيد . ونعرض الآن موقف الفكر الوضعى من الدين تمهيدا لمناقشاتنا فى الفصول اللاحقة .

الفصل السابع

الدين والفكر الوضعي

يذهب الفكر الوضعى ـــ أى الفكر الذى لا يستمد مقوماته من الإسلام ـــ مذاهب شتى فيما يتعلق بتأثير عامل الدين فى مسارات الحركة التاريخية . البعض ينكر أن يكون للدين أى تأثير حضارى . ويرى هؤلاء أن الدين ظاهرة تختفى تدريجياً مع التقدم العلمى والتكنولوجى . وهذا (Turgot) (٧٢٧ م ـــ ١٧٨١ م) يقرر أنه كلما تقدمت معرفة الإنسان بالطبيعة ، فإن عقله يتحرر بالتدريج من التصورات والمعتقدات الغيبية . وحاول (أوجست كونت) أن يثبت هذا الزعم فيما يعرف بقانون الأدوار الثلاثة . فزعم أن المعرفة العلمية كانت ثمرة لعملية بطيئة من النضج العقلى ، استطاع الإنسان بعدها أن يتخلص من كافة التفسيرات الدينية والفلسفية الميتافيزيقية ، وأن يتجه فى تفسير الظواهر اتجاها علميا يقوم على ربط ظواهر الحياة ربطا موضوعيا [١] .

إن الادعاء بأن ثمة تعارض بين الدين والعلم ادعاء باطل . ومما يؤكد هذا البطلان أن الإسلام لايعارض البحث العلمى ولا يخشاه ، بل إنه يحث عليه ويدعو إليه[٢] . وفضلا عن ذلك فإن التقدم العلمى الذى أحرزه الإنسان لم يكشف بعد عن كثير من حقائق الوجود ، كما أن الفروض والنظريات العلمية التى يصوغها العلماء لتفسير الظواهر الكونية ، يثبت عدم صحتها وتتعرض للتعديل والتبديل . ومما ينبغى التأكيد عليه أن العلم لم يتوصل إلى حقيقة واحدة صحيحة تعارض ما جاء به الإسلام ، وأن الفروض والنظريات التى تصطدم بالإسلام يثبت فسادها .

يتجه بعض الفلاسفة فى نظرتهم إلى الدين اتجاها إلحاديا ، فينكرون الدين

---

(١) أصول البحث الاجتماعى . مرجع سابق . ص (١٩) .

(٢) انظر للمؤلف : التوازن والتحليل الاقتصادى . فصلا بعنوان « الدين والبحث العلمى » .

إنكارا تاما . وتذهب الفلسفة المادية إلى الزعم بأنه لايوجد فى الكون سوى المادة . وقد دفع هذا الاتجاه المادى المتطرف بعض الكتّاب إلى نفى الوعى والشعور كحقيقة لامادية ، وادعوا أن الوعى أو الشعور لايعدو أن يكون مظهرا للحركة فى خلايا المخ . ويرى البعض أن هذه الموجة الإلحادية قد بدأت فى القرن السابع قبل الميلاد على يد الفيلسوف اليونانى (طاليس) ، الذى زعم بأن الوجود قائم بذاته ولاتوجد أية قوة مدبِّرة له أو مسيطرة عليه[٣] .

وقد ذهبت شطحات العقل الإنسانى فى هذا الإلحاد شوطا بعيدا ، مما دعى (ماركس) إلى القول بأن الدين أداة تخدير للطبقة المغلوب على أمرها ، وأن وظيفة الدين خداع الناس حتى يسهل استغلالهم وسلب حقوقهم .

ولا شك أن هناك عوامل عديدة أسهمت فى تولد هذا التفكير الإلحادى . من هذه العوامل : الاعتقاد بأن الوثنيات البدائية والمعاصرة من الدين ، وتصور الكتّاب والفلاسفة أن المسيحية المحرّفة التى سادت أوروبا منذ عصر الرومان ، ومرورا بالعصور الوسطى هى من الدين . ونحن نعلم كيف انحرفت المسيحية عن عقيدة التوحيد وزعمت أن الله واحد من ثلاثة ، وكيف وقفت المسيحية فى وجه كل تفتح فكرى . ومن العوامل التى ساعدت على الاتجاهات الإلحادية أيضا : عمليات الدفع السلبى لقوى الدين الصحيح . ونضيف إلى ذلك ، الاعتقاد الخاطىء بأن الإنسان قادر على قهر الظواهر الكونية والسيطرة عليها كلما أحرز تقدما علميا أو تكنولوجيا .

وهناك إلى جانب هذه النزعات الإلحادية المادية اتجاه متطرف آخر ، تأخذ به الفلسفة المثالية والمذاهب الروحية التى انبثقت عنها . وقد أشرنا فى الفصل الأول من الكتاب إلى التأثيرات السلبية المعاكسة للتقدم الحضارى ، والتى مارستها الكنيسة المسيحية فى أروربا خلال عصر الإقطاع . وأوضحنا أن رجال الكنيسة كانوا يحاولون تسويغ النظام الطبقى ، وتبرير البؤس والشقاء فى الحياة الدنيا انتظارا لنعيم الآخرة . ونشير كذلك إلى نزعات التصوف التى تشوبها الفلسفة اليونانية ، ومفاهيم التصوف الهندى ، والوثنيات الفارسية والهيلينية ، والتى انحرفت انحرافا خطيرا عن أصول الفكر الإسلامى ، وشوهت عقيدة التوحيد التى يقوم عليها الإسلام . من

(٣) الشبهات والأخطاء . ص (٢١٢) .

ذلك مثلا ، مفاهيم وحدة الوجود والحلول والاتحاد وإعلاء الوجدان على العقل واحتقار المادة . ولاشك أن هذه الانحرافات تعتبر مسئولة عن النكسة الحضارية ، التى لحقت بالمسلمين وأوقعتهم فى براثن التخلف والضياع .

استعرض (دوركايم) فى كتابه « الصور الأولية للحياة الوثنية »[٤] الوثنيات التى سادت بعض المجتمعات البدائية ، وذهب إلى أن الجماعة هى المصدر الرئيسى للدين . وفرق بين ماهو مقدس وماهو علمانى ، وانتهى إلى أن الدين يؤدى وظيفة اجتماعية ، هى التكامل الاجتماعى الذى يتخذ مظهر المشاركة الجماعية فى الأنشطة المقدسة والمعتقدات الدينية ، وممن يعطى الدين تفسيرا اجتماعيا ــ أيضا ــ (سبنسر) و (تايلور) و (ماكس مولر) [٥] .

رأينا من مناقشاتنا فى الفصول السابقة أن (الدين) يعتبر فى نظر كثير من الكتاب عنصرا من عناصر الثقافة ، كالفن والفلسفة ، ويذهب (Chapin) إلى أن الثقافة تتركب من مجموعة من القوى ، منها ماهو اقتصادى ومنها ماهو سياسى أو فكرى ومنها ما هو دينى ويرى (Ratzenhofer) أن الحياة الاجتماعية هى مجموعة أو حزمة من المصالح تضرب بجذورها فى طبيعة الإنسان . ويجعل الدين من المصالح التى تقوم عليها الحياة الاجتماعية ، كالمصالح الفردية التى تستهدف تأكيد الذات ، والمصالح الفسيولوجية التى تستهدف الحصول على الغذاء ، والمصالح الاجتماعية . فهذه المصالح وغيرها ــ والتى من بينها الدين ــ هى القوى الحقيقية الكامنة وراء النشاط الفردى والجماعى .

ويتطرف البعض فى نظرته إلى أهمية الدين فيجعل منه العامل الحاسم فى عملية التطور . ومن هذا الرأى (Kidd) و (Coolange) . ويذهب الأخير إلى أن الدين هو الدافع الأساسى للتغير الاجتماعى ، بل إنه ينتهى إلى إهمال دور العقل فى عملية التغير . فالعقل يكسب الفرد نزعة فردية غير اجتماعية ، بينما يحقق الدين نوعا من التكامل الاجتماعى ، ويوحد بين الأجيال المتعاقبة ، ويمنع حدوث التفكك

(4) « The Elementary Forms of Relegion Life » .

(٥) تيماشيف . مرجع سابق . ص (١٧٧) . وانظر أيضا : د . مصطفى حلمى : الإسلام والمذاهب الفلسفية . دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع . الإسكندرية . ١٤٠٥ هـ ــ ١٩٨٥ م ص (٥٩) .

الاجتماعى ، وهكذا يرى (كولانج) أن الدين ينقذ الحضارة من أخطار الأفول ، وفى رأيه أن المذهب البروتستانتى قد ساعد على انتشار الحريات الاقتصادية والسياسية .

تحدثنا فى الفصل الرابع عن معارضة (ماكس فيبر) للفرض الماركسى الذى مؤداه : أن الظواهر الثقافية — بما فى ذلك الدين والأخلاق — هى نتاج للقوى الاقتصادية (المادية) ، ومعارضته لما ذهب إليه (ماركس) من أن المذهب البروتستانتى كان نتاجا لظهور الرأسمالية . ولقد انتهى (فيبر) إلى أن ظهور الرأسمالية كان نتاجا للمذهب البروتستانتى وخاصة للفكر الكالفينى . فالكاليفينية تدعى أن النجاح فى أمور الدنيا دليل على رضى الله على المرء . ولاشك أن مثل هذه الدعوى فى ذاتها تعتبر دافعا إلى المخاطرة من أجل تحقيق الأرباح والثروة . وهكذا قد يمكن القول مع (فيبر) أن الدين المسيحى — البروتستانتى — كان أحد العوامل الهامة التى ساعدت على ظهور النظام الرأسمالى .

وأوضح (فيبر) — من ناحية أخرى — أن النظام الأخلاقى للكنفوشية — وهو مذهب روحى يحتقر المادة — لم يكن ملائما بطبيعة الحال لظهور الرأسمالية فى الصين .

ولكن هل معنى ذلك أن البروتستانتينية كانت هى العامل الوحيد الذى دفع إلى ظهور الرأسمالية فى أوروبا ؟ لاشك أن الأمر لم يكن كذلك ، لأن حدوث هذا التغير يفترض وجود عامل آخر داخلى بالنسبة للإنسان ، يتمثل فى القبول السيكولوجى للقيم والأفكار التى تلائم التغير . وهذا يفسر لنا ما انتهى إليه (فيبر) من أن الدين يعتبر شرطا ضروريا للتغير إلا أنه ليس بالشرط الكافى .

ذكرنا منذ قليل أن الكنيسة المسيحية — الكاثوليكية — قد لعبت دورا هاما فى أوروبا فى العصور الوسطى . فقد رأينا كيف كانت تسوغ الطبقية وتدعو — بمبادئها — إلى السلبية وإلى الرضى بالفقر والشقاء والبؤس فى الحياة الدنيا ، انتظارا للنعيم فى الدار الآخرة . ونشير بهذه المناسبة إلى أحد تلك المبادىء وهو مبدأ الاعتدال (moderation) الذى مؤداه : أن على الإنسان ألا يتكالب على الدنيا وألا يسعى إلى تحقيق الثروات الطائلة ، وإنما ينبغى أن يقنع بالقليل ويحيا حياة

تتناسب مع مركزه الاجتماعى . ومما لاشك فيه أن انهيار تلك المبادىء التى تدعو إلى سلبية الإنسان ــ بعد الصراع المرير بين المذهب البروتستانتى والكنيسة الكاثوليكية ــ وما ترتب على ذلك من تحرير للعقلية الأوروبية من أوهام الكنيسة ، يعتبر من العوامل الهامة فى إحداث النهضة (Renaissance) ، التى حققتها أوروبا فى مجالات العلوم الطبيعية والتكنولوجيا ، وما أحرزته من تقدم فى المجالات الاقتصادية . ومما لاشك فيه أيضا أن إشعاعات الحضارة الإسلامية التى تسربت إلى أوروبا بعد القرن العاشر بعد الميلاد من خلال الحروب الصليبية وصقلية والأندلس ، وما حملته معها من علوم ومعارف ، ومن المنهج التجريبى فى مجالات البحث العلمى ، كل ذلك كانت له آثار إيجابية بعيدة المدى فيما حققته أوروبا من ثورة صناعية ونمو اقتصادى .

على أن الأمر الذى نلفت إليه النظر ، أن هذا التقدم المادى الذى أحرزته أوروبا لا يمكن أن يسمى « حضارة » . فأوروبا والعالم الغربى ــ وعلى الرغم من التقدم الهائل فى مجالات النظم الاقتصادية والإنتاج السلعى ، وعلى الرغم من التقدم العلمى والتكنولوجى فى علوم المادة ــ إنما تمر بمرحلة انتكاس حضارى رهيب . لقد رفضت أوروبا القيم الإنسانية الإسلامية ، واتجهت إلى إحياء الفلسفة الإغريقية والقانون الرومانى بديلا عن تلك القيم . وهكذا ورث العالم الغربى وثنيات اليونان والرومان بكل مقوماتها الطبقية والعنصرية . وقد تكفى الإشارة إلى الوسائل اللاإنسانية التى استخدمتها أوروبا فى المستعمرات ، وما لجأت إليه من عمليات البطش والقتل ، لكى تحقق ما حققته من تطور اقتصادى . ونشير أيضا إلى الظروف المعيشية السيئة للغاية التى أحاطت بطبقة العمال العريضة . فقد كانت الأجور منخفضة والمصانع رديئة التهوية ، وكان العمال يعملون ساعات طويلة دون مراعاة لأبسط القواعد الصحية ، حتى وقع الكثير منهم فريسة للأمراض الخطيرة واضطر العمال إلى تشغيل أطفالهم ونسائهم بأجور زهيدة ، بل إن النساء كن يتاجرن بأعراضهن من أجل كسب لقمة العيش . هكذا قام المجتمع الأوروبى على الطبقية والعنصرية ، وافتقرت الحياة الإنسانية إلى مقومات الحق والعدل والحرية والرحمة والتكافل .

إن للحضارة ــ كما بينا فى أكثر من مناسبة ــ مفهوما إنسانيا . وعلى ذلك

نقرر أن النهضة العلمية والتكنولوجية ــ التى حققتها أوروبا خلال الفترة من القرن الخامس عشر إلى القرن الثامن عشر ــ لايمكن أن نطلق عليها وحدها وصف الحضارة .

نعود الآن مرة أخرى إلى موقف الفكر الوضعى من الدين ، وإلى مايراه البعض من أنه يعتبر عاملا حاسما فى ازدهار الحضارات . وقفنا عند رأى (كولانج) الذى انتهى فيه إلى أن الدين هو العامل الوحيد الذى يسمح بوجود تقدم مستمر . ويذهب (نوفيكوف) إلى أن الصراع الفكرى ــ الذى قد يكون أحيانا ذا طابع دينى ــ يمثل أحد العوامل الرئيسية فى التقدم . ونشير بوجه خاص إلى (توينبى) الذى يرى أن الدين هو جوهر التقدم . ويبرز أهمية ظهور الشخصية الدينية التى تقوم بعملية إصلاح دينى فى المرحلة الأخيرة من الدورة الحضارية . أما (T. Parsons) فيرى أن للدين أهمية خاصة وأساسية فى عملية النمو البشرى التكيفى ، إلى جانب اللغة والتنظيم الاجتماعى والتكنولوجيا . ويعتبر (بارسونز) هذه العوامل من قبيل العموميات التطورية (Evolutionary Universals) فى عملية النمو الاجتماعى (٦) .

عرضنا حتى الآن بعض وجهات النظر ــ الوضعية ــ فى الدين والدور الذى لعبه أو يمكن أن يلعبه فى العملية الحضارية . ونود أن نؤكد هنا مرة أخرى ، أن القضية التى ينبغى حسمها أولا تتعلق بما نعنيه بالدين . ماهو التصور الصحيح لحقيقة الوجود ؟ مصدره ؟ ومن خالقه ؟ وما حقيقة الإنسان ، وماهو مركزه فى هذا الوجود ، وما هى طبيعة العلاقة بين الإنسان والكون ؟ وما هو الهدف الحقيقى من حياة الإنسان ؟ وكيف يمكن تحقيق هذا الهدف ؟ .

قد يتساءل البعض عن العلاقة بين طرح هذه التساؤلات والموضوع الرئيسى الذى نبحثه فى دراستنا الحالية ، والواقع أن هذه العلاقة وثيقة للغاية . فقد أوضحنا أن للحضارة مفهوما إنسانيا ، وأن ما يحرزه الإنسان من تقدم حضارى إنما يحرزه بسلوكه الإرادى الواعى ، الذى يستهدف به إقامة المجتمع على أسس من الحق والعدل

---

(6) T . Parsons « Evolutionary Universals in Society » . American Soc. Rev. (January, 1964) ,

والحرية والرحمة والإيثار . ولسنا بحاجة إلى القول أن أنماط السلوك الإنسانى ، تختلف باختلاف تصور الإنسان للدين . فالسلوك الإرادى للإنسان فى المجتمعات الوثنية ، يختلف اختلافا جذريا عن السلوك الإنسانى فى المجتمعات التى تسودها عقيدة التوحيد .

وقد يمكن القول ــ بوجه عام ــ أن نظرة الفكر الوضعى إلى الدين ــ نظرة غير صحيحة ــ رأينا أن بعض الكتاب أخذ عبادة الأرواح ، أو عبادة قوى الطبيعة فى المجتمعات البدائية التى عكفوا على دراستها ، على أنها هى الدين . واعتبر البعض المسيحية واليهودية ــ بعد تحريفهما ــ أديانا . زعم اليهود أن الإله لهم وحدهم وأنه شرير (سبحانه وتعالى عما يصفون) ، وجعلت المسيحية الإله واحدا من ثلاثة ، وذهب البعض إلى ألوهية المادة ، وذهب البعض الآخر إلى ألوهية الإنسان . ورأينا كيف أن فريقا من الكتاب يعطى للدين تفسيرا اجتماعيا . وذهب فريق آخر إلى أن الدين خرافة وأنه وهم وخداع . ويرى (Loria) أن (تطور) الدين يوازى تطور الملكية ، أى ملكية الأرض وأن وظيفته الأساسية هى المحافظة على خضوع العبيد ، ويذهب (Veblen) إلى أن الإنسان نتاج لما يصنعه [٧] . وزعم (Bohme) أن الله (سبحانه وتعالى عما يصفون) هو أساس التناقض فى الكون ، وأن الوحدة الإلهية تتكون من عنصرين متضادين ، ولذلك فإن لكل شىء فى الكون ضدا ونقيضها [٨] .

إن هذه التصورات الخاطئة لحقيقة الدين ، لايمكن أن تساعد على الفهم الصحيح للعلاقة بين الدين والمسار الحضارى . وسنرى فى دراساتنا اللاحقة كيف تتأثر الحضارة تأثيرا سلبيا بالانحرافات العقائدية . لقد بينا من قبل أن العقيدة هى العامل الوحيد فى توجيه حركة التاريخ . فالعقيدة ــ ونعنى عقيدة التوحيد بكل مقتضياتها الإيمانية والتعبدية والتعاملية والأخلاقية ــ عندما تهيمن على كافة جوانب سلوك الإنسان ــ الفرد والمجموع ــ تدفع الحضارة إلى النمو والازدهار ، وعندما تنحرف العقيدة تنتكس الحضارة وتخبو جذوتها . والحضارة التى نعنيها هنا تشتمل على الجوانب الاقتصادية ، والاجتماعية والثقافية والسيكولوجية من حياة الإنسان .

---

(٧) تيماشيف . مرجع سابق . ص (١٤٢ ــ ١٤٣) .

(٨) زكى نجيب محمود ، أحمد أمين : قصة الفلسفة الحديثة . ١٩٨٣ م . ص (٣٢) .

إن الدين الإسلامى ـــ أى الدين القائم على التوحيد ـــ يصبغ حياة الإنسان الاقتصادية والسيكلوجية والاجتماعية والثقافية بصبغة خاصة مميزة . فالنشاط الاقتصادى أو النشاط الاجتماعى لا ينفصل مطلقا عن العقيدة . يراعى الإنسان ـــ الفرد والمجموع ـــ أحكام وقواعد الإسلام فى الأخلاق وفى الاقتصاد وفى علاقاته الاجتماعية . وترتبط الأخلاق فى الإسلام بالعقيدة ، فهى وثيقة الصلة بالتقوى ، ومعنى ذلك أن الحركة الإرادية للإنسان ، إنما تدفعها وتوجهها قوى داخلية فى الإنسان ذاته ، فيتحرك فى إطار من القيم والأفكار التى يتقبلها قبولا سيكولوجياً ، يوجه سلوكه نحو المسار التوازنى الذى ينسجم مع الحركة الكلية المتوازنة فى الكون ؛ لأن توازن سلوك الإنسان ـــ الفرد والمجموع ـــ على هذا النحو هو الحضارة ذاتها ، وسنرى ذلك فى الفصول التالية بإذن الله .

يقول أحد كتاب الغرب : « إن تقدم العلوم فى الغرب فى وقتنا هذا حصل رغماً عن الدين . أما دين الإسلام فالعكس من ذلك ، أى لايمكن أن يبقى على قيد الحياة إلا بانتشار العلوم . فإن بين الإسلام والعلوم رابطة كلية . والغربى إذا صار عالما ترك دينه ، أما المسلم فإنه لا يترك دينه إلا إذا صار جاهلا . وبأى وجه يمكن نسبة التقدم الحالى إلى الدين النصرانى ، والحال أنه ما جاء إلا بعد خمسة عشر قرنا من ظهوره . وبأى وجه يمكن نسبة تأخر المسلمين الحالى إلى دينهم وفى عام ٧٤٢ م ـــ أى بعد مائة وأحد عشر سنة من وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام ـــ كانت دولة الإسلام أكبر من دولة الإسكندر المقدونى . وفى عام ١٥٠٦م عند وفاة السلطان سليم كانت أكبر من مملكة الرومانيين (٩) .

إن الدين الصحيح هو الإسلام الذى ارتضاه الله تعالى لعباده ، منذ خلق الأرض وحتى يوم البعث . يقول تعالى : ﴿ **إن الدين عند الله الإسلام** ﴾(١٠) ويقول سبحانه : ﴿ **ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه** ﴾(١١) . إن هذا الدين القيم القائم على التوحيد ، هو الدين الصحيح الذى يفرد العبودية لله وحده دون سواه . ويقول جل شأنه : ﴿ **ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض وسخر**

(٩) مشار إليه فى : الشبهات والأخطاء . مرجع سابق . ص (٢٢٦) .

(١٠) آل عمران (١٩) .

(١١) آل عمران (٨٥) .

الشمس والقمر ليقولن الله ﴾[12] . ويقول سبحانه : **﴿ ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه ﴾** [13] .

إن الدين الحق لايتحقق إلا فى الإسلام . إنه ليس مجرد فكرة أو فلسفة ، وليس مجرد رباط يصل الإنسان بربه ، أو مجرد إحساس داخلى بالحاجة أو التبعية المطلقة ، أو الإيمان بقوة خارجية لا يمكن تصور نهايتها من حيث الزمان أو المكان .. وغير ذلك من تعبيرات تأرجح حولها فلاسفة الغرب . إن الدين الحق يقوم على عقيدة التوحيد ، بكل مقتضياتها وهيمنتها على كافة جوانب السلوك الإنسانى فى ميادينه المختلفة : فى الأسرة ، والمجتمع ، والدولة ، والعلاقات الدولية ، وفى مجالات الاقتصاد والسياسة ، والحكم ، وكافة العلاقات الإنسانية ، مع التعريف بالسنن الإلهية فى خلق الإنسان ، كإنسان له مكانته وهدفه ومصيره . وتصويب نظرة الإنسان إلى ذاته ، أو نفسه ومكوناته الروحية والجسدية ، وتعريفه بالدنيا كدار ابتلاء ومعبر إلى الآخر [14] .

وسنرى فى الفصول القادمة ، أن الدين بهذا المفهوم هو العامل الحاسم فى تشكيل الثقافة الذاتية للإنسان ـــ الفرد والمجموع ـــ ومن ثم فى حضارته .

---

(١٢) العنكبوت (٦١) .

(١٣) الأنعام (١٠٢) .

(١٤) الإسلام والمذاهب الفلسفية . مرجع سابق . ص (٥٣) .

الفصل الثامن

المنهج التكاملي

سنحاول بعون الله — فى هذا الفصل والفصول التى تليه — أن نعرض المعالم الرئيسية للمدخل العلمى إلى دراسة التاريخ الاقتصادى والحضارى . وتدور دراستنا حول مفهوم الحضارة والعوامل التى تؤثر فيها ، إيجابيا أو سلبيا .

وكما سبقت الإشارة فى أكثر من موضع — خلال مناقشاتنا السابقة — فإن للحضارة مفهوما إنسانيا ، بمعنى أن الإنسان هو الكائن الوحيد الذى ينمو (أو يتخلف) حضاريا . ولذلك سنركز دراستنا على الإنسان ، وبوجه خاص من حيث كونه كائنا عاقلا إراديا مدركا .

يرى (Parsons) أنه يجب أن توضع نظرية مكتملة ومنسقة فى الأنساق الاجتماعية قبل أن نحاول وضع نظرية فى التغير الاجتماعى [1] . وهذا الرأى صحيح بكل تأكيد ، فالنظرية التاريخية — كما أشرنا فى نهاية الفصل الأول من الكتاب — تحاول صياغة الانتظامات التى تخضع لها الوقائع والأحداث ، التى تتعرض لها المجتمعات الإنسانية ، والكشف عن أنماط التردد والتكرار فى وقوع تلك الأحداث والوقائع. لابد إذن أن نبحث الإنسان فى المجتمع أى الإنسان المجموع . ولكن ذلك يفترض أولا أن نتعرف على حقيقة الإنسان الفرد ، وإذا أردنا ان نتعرف على حقيقة الإنسان ، فلابد أن نبحث فى الكون الذى يعيش فيه ، لأننا لن نستطيع التعرف على ذلك دون أن نفهم العلاقة العضوية والوظيفية التى تربط الإنسان بالكون الذى يحتويه .

إن الباحث فى العلوم الطبيعية كالفلك والفيزياء والنبات والحيوان والفسيولوجيا إنما يبحث فى ظواهر لا إرادية ، تخضع فى تكوينها وفى حركتها لقوانين وسنن (إلهية)

(1) Parsons: OP. Cit.,

صارمة أى أنها تخضع لها خضوعا لا شعوريا بلا وعى أو إدراك على نحو حتمى . أما الباحث فى مجالات العلوم الإنسانية ـــ ومنها الاقتصاد والاجتماع والتـــاريخ الإنسانى ـــ فإنه يبحث فى ظواهر إرادية لاتخضع فى سلوكها لأية قوانين أو سنن خضوعا حتميا . فالإرادية تنفى الجبرية والالتزام القسرى . إن الإنسان فى سلوكه الإرادى ، قد يفعل الشيء وقد لا يفعله . وليس من اليسير على الباحث أن يعرف مسبقا ماذا سيكون عليه هذا السلوك .. وهنا تكمن صعوبة البحث فى مجالات العلوم الإنسانية . لقد أحرزت العلوم الطبيعية تقدما ملحوظا لم تحرزه العلوم الإنسانية ؛ لأن الباحث فى العلوم الطبيعية إنما يبحث فى ظواهر لا إرادية تسلك سلوكا منتظما قلما تحيد عنه إلا إذا تدخلت فى مسارها عوامل طارئة . ولذلك استطاع العلماء والباحثون الكشف عن الكثير من القوانين والسنن التى تخضع لها الظواهر اللاإرادية ، باستخدام أساليب الاستقراء والمناهج التجريبية . أما فى مجالات العلوم الإنسانية ، فإنه يتعذر استخلاص قواعد موضوعية للسلوك الإرادى باستخدام هذه الأساليب والمناهج ؛ لأن الإنسان لا يتصرف دائما على وتيرة واحدة فى كل مرة ، ولعل ذلك يفسر لنا لماذا يختلف العلماء والباحثون فى العلوم الإنسانية وتتباين آراؤهم حول قواعد السلوك الإرادى . وهذه السمة واضحة تماما فى علـــوم الاقـــتصاد والاجتماع وعلم النفس وغيرها من العلوم الإنسانية ، لدرجة أن العلماء ينقسمون على أنفسهم حول تعريفات تلك العلوم وحول المفاهيم الأساسية والفروض والنظريات التى تتداولها . وفى اعتقادنا أنه يمكن التغلب على الصعوبة التى تواجه الباحث فى العلوم الإنسانية ، فى عملية الكشف عن القواعد الموضوعية للسلوك الإرادى المتوازن ، إذا فهمنا جيدا حقيقة الإنسان وطبيعة علاقته بالكون ـــ أى بالبيئة الخارجية .

إن الظاهرة الإرادية لاتوجد مستقلة عن الظاهرة اللاإرادية . فالوعى ـــ مثلا ـــ وهو مصدر الحركة الإرادية لايوجد مستقلا عن الجسد . وكذلك الروح فى الإنسان ليست مستقلة عن الجسد . فالوعى وهو ظاهرة إرادية ، والروح وهى ظاهرة فوق إرادية (ونعنى بذلك أنها أسمى من العقل) ليست أشياء مستقلة بذاتها فى الوجود الأرضى للإنسان ، وإنما توجد ـــ أى ترتبط فى وجودها ـــ بالجسد ـــ وهو ظاهرة مادية عضوية لا إرادية ـــ والتأثير المتبادل بين الوعى والجسد . إن استهلاك الإنسان للخبائث الضارة بالجسد ـــ وهذا عمل إرادى صادر عن الوعى ـــ يؤثر

سلبيا فى الحركة البيولوجية للجسد . ومن ناحية أخرى ، فإن اختلال الحركة البيولوجية للجسد ــ بسبب المرض مثلا ــ وهذه ظاهرة لا إرادية ، تؤثر فى قدرة الوعى على التصرف الإرادى السليم . وهكذا ، تؤثر الظاهرة الإرادية فى الظاهرة اللاإرادية وتتأثر بها أيضا .

وكما لايوجد الوعى (أو توجد الروح) مستقلا عن الجسد ، فإن الإنسان فى مجموعه أى إذا نظرنا إليه باعتباره كلا متكاملا من جسد وعقل وروح ، لايوجد مستقلا عن الكون الذى يعيش فيه ، أى لاينفصل عنه . وعلى ذلك ، فإن التعرف على حقيقة الإنسان يفترض ــ ويتطلب ــ البحث فى علاقته بالكون . ومما يدعم هذا الاتجاه ، أن الظاهرة الإرادية تسمو على الظاهرة اللاإرادية ؛ لأن الأولى تنطوى على عنصر قيمى يتمثل فى المعانى والمعايير والقيم ، وهذا العنصر غير موجود فى الظاهرة اللاإرادية (٢) . ولما كانت الظاهرة الإرادية لا توجد مستقلة عن الظاهرة اللاإرادية كما أوضحنا حالا ، بينما العكس صحيح ، بمعنى أن الظاهرة اللاإرادية يمكن أن توجد مستقلة تماما عن الظاهرة الإرادية ، فإننا نصل إلى النتيجة اللازمة الآتية وهى : أن دراسة الظاهرة الإرادية (أى المستوى الأعلى تفترض الإلمام بقوانين الحركة اللاإرادية (المستوى الأدنى) ، بينما العكس غير صحيح ، بمعنى أن دراسة الظاهرة اللاإرادية (المستوى الأدنى) لاتفترض الإلمام بقوانين الحركة الإرادية (المستوى الأعلى) .

إن السبب فى إخفاق الفلسفة المادية فى التعرف على حقيقة الإنسان ، وما انتهت إليه من مقولات غير صحيحة ، مثل أزلية المادة وانبثاق الوعى (الإرادى) عن الجسد (المادى العضوى) ، وزعم الداروينية بأن الإنسان حيوان (بشرى) ، إنما يكمن فى تجاهل الجانب الإرادى فى الإنسان وعلاقته التأثيرية المتبادلة مع الظواهر اللاإرادية فى الكون . إن المشكلة الحقيقية التى واجهت المادية والداروينية تتركز فى عدم فهم طبيعة الوعى أو الشعور ، والعلاقة بينه وبين الجسد الذى ينطوى عليه .

---

(٢) يبين (Sorokin) أن الظاهرة الإرادية (الاجتماعية) تتكون من عناصر ثلاث : عنصر بشرى يتمثل فى الأفراد ، وعنصر قيمى يتمثل فى المعانى والقيم والمعايير ، وعنصر مادى يتمثل فى الوسائل والأدوات المادية التى يتجسدها العنصر القيمى . (انظر : أصول البحث الاجتماعى . مرجع سابق . ص (١٠٨) .

نظر دعاة هذه المذاهب الوضعية نظرة قاصرة إلى الإنسان فلم يجدوا فيه سوى الجسد ... صحيح لم ينكر دعاة المادية ولا الداروينية أن فى الإنسان عقلا ، إلا أنهم اعتقدوا ــ خطأ ــ أنه تجسيد مادى يتمثل فى المخ ، بسبب إخفاقهم فى تفسير العقل تفسيرا يتفق وطبيعة علاقته بالجسد .

ولقد أنكر هؤلاء الروح تماما ، لأنهم لم يتمكنوا من تجسيدها فى عضو مادى فسيولوجى من أعضاء الجسد . وهكذا ، نظرت كل من المادية والداروينية إلى الإنسان الذى يتكون فى الواقع من الجسد والعقل والروح فى وحدة واحدة لا تتجزأ ، على أنه جسد محض ، ومن هنا كانت نظرتهم المادية إلى الكون فى مجموعه وما انتهت إليه تلك النظرة الخاطئة من أزلية المادة ، والحتميات الاقتصادية والتكنولوجية والجغرافية والانتخاب الطبيعى والنشوء والارتقاء ، وكلها مقولات تنطوى على نفى وجود إله واحد خالق ومهيمن على خلقه .

ليس الإنسان جسدا فحسب ، ولكن فيه عقلا وروحا أيضا . وذلك لايعنى بالضرورة أن للعقل أو للروح وجودا مستقلا خارج الجسد . فالإنسان ــ جسده وعقله وروحه ــ كل متكامل ووحدة واحدة غير قابلة للتجزئة أو للانقسام ، بحيث لا يمكن فصل العقل ــ أو الروح ــ عن الجسد . إن جسدا بلا عقل أو جسدا بلا روح ليس (إنساناً) ... ولا وجود لعقل أو رو بلا جسد . فهذه حقيقة من حقائق الوجود الأرضى .

ومما نسترعى إليه النظر . أننا هنا نتناول ــ بعلمنا البشرى المحدود وعقولنا القاصرة ، الإنسان بمكوناته الجسدية والعقلية والروحية . وعندما نقول إنه لا يوجد « الإنسان » الجسد بلا عقل ، أو « الإنسان » الجسد بلا روح ، فإننا نعنى بذلك أننا لا نتعامل ــ فى مجالات السلوك الإرادى ــ مع جسد فحسب أو عقل فحسب أو روح فحسب ، وإنما نتعامل مع الإنسان ، ذلك الكل المتكامل من الجسد والعقل والروح . وهذا لا يتناقض مطلقا ما أثبته القرآن الكريم عن الروح ، فى قوله تعالى : ﴿ **هو الذى يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمى** ﴾[3] . ويقول عز وجل : ﴿ **الله يتوفى الأنفس حين موتها والتى لم تمت فى**

---

(٣) الأنعام (٦٠) .

منامها ﴾[4] . وقوله سبحانه : **﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون ﴾**[5] . إن ما أثبته القرآن الكريم ، حقيقة ثابتة ، لا يتوقف وجودها على علم الإنسان ؛ لأن هذا العلم ليس مطلقا ، والجهل بوجود الشىء لا ينفى وجوده فى الواقع .

لنترك قضية الروح ، لأنها من الأمور التى يستحيل على العقل الإنسانى فهمها أو إدراك حقيقتها ، لقوله تعالى : **﴿ ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ﴾** [6] .

إن الوعى ــ أو الشعور ــ ينتمى إلى عالم الإرادة ، بينما ينتمى الجسد إلى عالم اللاإرادة . والوعى يسمو على الجسد ؛ لأن الظاهرة الإرادية تسمو على الظاهرة اللاإرادية . وقد أكد (Sorokin) هذه الحقيقة بتحليل عناصر الظاهرة الإرادية . وقد سبقت الإشارة إلى ذلك (٧) . وإذا كان الأمر كذلك ، فكيف يمكن القول بانبثاق الوعى عن الجسد ؟ ونوضح رأينا بمثال واقعى :

إن الإنسان ــ بطبيعة تكوينه ــ لا يستطيع أن يفلت من نطاق الجاذبية الأرضية إلا داخل مركبة فضائية ذات تصميم خاص ، ولا يستطيع الإنسان أن يخرج من المركبة الفضائية إلى الفضاء الخارجى إلا داخل رداء خاص ، يهيىء له الضغط الجوى والأوكسيجين وغير ذلك من الظروف الملائمة لاستمرار الحياة .. لا يستطيع الإنسان ــ دون هذا الكيان المادى المزدوج ــ أن يعيش لحظة واحدة فى الفضاء الكونى ... فالإنسان بمكوناته المادية العضوية ــ أى جسده ــ ومكوناته الإدراكية ــ أى عقله ووعيه ــ ومكوناته فوق الإرادية ــ أى روحه ــ لا يمكن أن يظل على قيد الحياة خارج الكيان المادى (المركبة الفضائية والرداء) . ولنا أن نتساءل : هل يمكن القول بأن المكونات الإرادية وفوق الإرادية للإنسان ــ فى مثل هذه الظروف ــ نتاج للكيان المادى الذى يحتويه ، أو أنه انبثاق عن هذا الكيان ؟ إن الإجابة ؛ بالنفى بكل تأكيد . إذ ليس من المعقول أن نقبل الزعم بأن الإنسان ــ

---

(٤) الزمر (٤٢) .

(٥) آل عمران (١٦٩) .

(٦) الإسراء (٨٥) .

(٧) راجع الهامش (الحاشية) رقم (٢) من هذا الفصل .

بوعيه وروحه ــ نتاج للرداء المادى الذى يرتديه ، أو أنه انبثاق عن المركبة الفضائية التى تحتويه ، لمجرد وجوده (اللازم) داخل هذه الكيانات المادية . وبالمثل ، لايمكن القول بأن العقل ــ أو الوعى أو الشعور ــ نتاج للكيان المادى العضوى الذى يحتويه ، وهو الجسد ، لمجرد الوجود اللازم أو تلازم الوجود للوعى داخل الجسد . إن مجرد وجود الوعى داخل الجسد واستحالة فصله عنه ، ليس مبررا كافيا للزعم بانبثاق الوعى عن الجسد كما تذهب المادية والداروينية .

إن وجود الجسد واحتواءه للعقل ضرورة لوجود العقل ذاته . والقدرة العقلية للإنسان تنمو مع نمو الجسد . وكذلك فإن وجود الكون بأرضه وسمائه وظواهره الفلكية والفيزيقية والبيولوجيه ــ أى العضوية ــ واحتواء الكون للإنسان ضرورة لوجود الإنسان ذاته . إن وجود الإنسان داخل رداء خاص . ووجوده ــ بردائه هذا ــ داخل المركبة الفضائية ، أمر ضرورى لاستمرار حياته فى الظروف التى تحيط به . ولسنا بحاجة إلى القول بأن توازن الإنسان يتوقف على توازن الرداء ، ويتوقف كذلك على توازن المركبة الفضائية فى مجموعها . وهكذا ــ بالمثل ــ يتوقف توازن العقل الإنسانى ــ أى توازن الظاهرة الإرادية ــ على توازن الجسد ، والذى يتوقف بدوره على توازن الكون ، بما فيه من ظواهر فلكية وفيزيقية وعضوية . أى أن توازن الظاهرة الإرادية يتوقف على توازن الظواهر اللاإرادية .

رأينا أن العقل لا وجود له مستقلا عن الجسد ، وأنه ينمو ــ أى تنمو القدرة العقلية ــ مع نمو الجسد ذاته .. والجسد ينمو بحصوله على حاجاته من طعام وشراب وجنس ، وهو يحصل على حاجاته من خارجه ، يحصل على الأوكسجين للتنفس ، وعلى الماء والضوء والحرارة والضغط الجوى وعلى الثروات المائية والنباتية والحيوانية ، وغير ذلك من مقومات الحياة وعوامل البقاء ... كل ذلك يتهيأ له بتضافر الظواهر الفلكية والفيزيقية والعضوية فى الكون ، والتى تخضع خضوعا حتميا للقوانين والسنن الإلهية التى تعمل على تناسق تكوينها وتوافق حركتها من أجل توفير مقومات الحياة وعوامل البقاء . وعلى ذلك نقرر أن وجود العقل يتوقف على وجود الجسد ، الذى يتوقف بدوره على الحركة المتوازنة فى الكون .

وهكذا ، نخلص إلى المنهج العلمى الصحيح فى دراسة الإنسان ، وهو منهج تكاملى يقوم على ربط الظاهرة الإرادية ـــ أى الحركة الإرادية للإنسان ـــ بالظواهر اللاإرادية فى الكون .

يدعو القرآن الكريم الإنسان ـــ ويكرر الدعوة ـــ إلى التأمل فى ملكوت السماوات والأرض وإعمال العقل فى آيات الله الكونية . وقد تعرض فى آيات كثيرة منه ـــ نحو سبعمائة وخمسين آية ـــ لمسائل علمية ، وذكر حقائق منها كمسلمات وقضايا عامة ، بينما دخل فى تفاصيل بعض تلك الحقائق . فالعقل إذن مناط التكليف ، يتميز به الإنسان على سائر الكائنات الحية ، وهو شىء غير محسوس لايرى ، ولكن تحس آثاره فقط . وقد اهتم علماء أهل السنة والجماعة بمباحث العقل وعلاقته بأحكام الشرع ؛ لأن العقل وسيلة الاستنباط وأداة الفهم والاجتهاد ، وبه يميز المرء بين الحق والباطل ويعرف ماينفعه وما يضره فى أمور دينه ودنياه، والعقل محدود القدرة ، فهو يدرك أشياءً ، ولكنه لايدرك أشياءً ... إن المادة لا تفهم ذاتها ، بينما العقل يفهم ذاته ويفسر المادة . ولعل هذه الخاصية المميزة للعقل تثبت بطلان زعم الماديين بأن الوعى انبثاق عن المادة ، كما تدحض ادعاء الداروينيين بأن الإنسان بما ركب فيه من عقل وروح ؛ هو ارتقاء للحيوان . وإذا كانت المادة لا تفهم ذاتها ، بينما العقل يفهم المادة ؛ فإن ذلك يعنى أن العقل شىء (خارج) عن المادة ، أى أنه من طبيعة مغايرة للمادة . ولولا ذلك ، لا ستحال القول بأن العقل يفهم ذاته . وهكذا لايمكن القول بأن الوعى انبثاق عن الجسد . (وكذلك لا يمكن القول بأن الروح ـــ وهى فوق إرادية ـــ انبثاق عن الوعى أو نتاج للجسد) .

إن العقل ، الذى أودعه الله فى الإنسان ، يجعله قادراً على إدراك أشياء وإضفاء المعانى والقيم عليها ، وقادراً أيضاً على أن يعيش فى عالم الأفكار والذكريات والتصورات والعواطف . ولكن العقل ـــ مع ذلك ـــ لا يستطيع أن يدرك كل الأشياء .. لا يستطيع العقل أن يدرك معنى الأزلية أو اللانهاية ، ولا أن يدرك شيئا من الغيب ، أو أن يعرف شيئاً عن الروح ، أو متى تقوم الساعة ، ولا يستطيع أن يعرف شيئاً عن البعث أو الحساب أو الجنة أو النار ، ولا يستطيع ـــ ولا ينبغى ـــ أن يفكر فى ذات الله وصفاته ، فالعقل محدود القدرة ، ولذلك عليه أن يسلم ـــ فى هذه الأمور الغيبية كلها ـــ بما ورد بالشرع وأثبته النقل .

وهكـذا ، ينبغـى أن يعـرف الإنسان حدود المنهج العلمـى فى البـحث ، فلا يتعداها أو يتجاوزها ، وليعلم أن ما يبذله من جهد فى محاولاته للكشف عن الغيبيات جهد ضائع لا ثمرة له ، وقد تكون ثماره غير طيبة ، وقد تودى به إلى الهلاك أو تؤدى إلى إهلاك غيره . ولنا فى المادية والداروينية والنزعات العنصرية وغير ذلك من المذاهب والمبادئ المدمرة ، خير شاهد على صدق ما نقول .

يتعامل الإنسان الفرد ـــ بوعيه ـــ مع ذاته ، ويتعامـل ـــ بوعيـه ـــ مع الإنسان المجموع ، ويتعامل ـــ بوعيه ـــ مع البيئة الخارجية ، أى الكون فى مجموعه . وعندما يتعامل الإنسان مع ذاته فإنه يتعامل ، فى واقع الأمر مع ظواهر عضوية (لا إرادية) تجرى داخل جسده ، ويتعامل أيضاً مع ظاهرة فوق إرادية ، وهى روحه التى تدرك من الوجود ما لا يدركه العقل ، أو تقع عليه الحواس . وعندما يتعامل المرء مع الإنسان المجموع ـــ أى مع غيره من بنى الإنسان ـــ فى علاقاته الاجتماعية ، فإنه إنما يتعامل ـــ فى واقع الأمر ـــ مع ظواهر إرادية وظواهر لا إرادية (عضوية) وظواهر فوق إرادية . وعندما يتعامل المرء مع البيئة ـــ أى الكون بما فيه من ظواهر فلكية وفيزيقية وعضوية ـــ فإنه يتعامل ـــ فى واقع الأمر ـــ مع ظواهر لا إرادية . فالإنسان إذن ، فى تعامله مع ذاته وتعامله مع غيره وتعامله مع البيئة ، يتعامل ـــ بالضرورة ـــ مع ظواهر لا إرادية . وهكذا تتفاعل الظاهرة الإرادية مع الظواهر اللاإرادية من خلال العلاقات التأثيرية المتبادلة بينها جميعاً .

ومن تعاملات الإنسان مع ذاته ومع غيره ومع الكون ، يحصل على المعرفة العلمية وعلى الأفكار والمعلومات والخبرات ، ويشكل ذلك الجانب الثقافى من حضارته[٨] وتتشكل ـــ بهذه التعاملات أيضاً ـــ حياته الاقتصاية والاجتماعية ، وهذه جوانب أخرى من حضارته ، فضلاً عن ذلك ، تتولد بداخل الإنسان أى فى نفسه ـــ من تفاعلاته مع ذاته وغيره وبيئته ـــ مشاعره وعواطفه واستجاباته ، وهذا هو الجانب السيكولوجى من حضارته .

---

(٨) سنرى فى الفصل القادم بمشيئة الله ، كيف يمكن أن يهتدى الإنسان إلى الحقيقة الأولية اليقينية بوجود إله واحد خالق ومهيمن على خلقه ، بالتأمل فى نفسه ـــ أى ذاته ـــ وبالتأمل فى ملكوت السماوات والأرض ـــ أى الكون ـــ وأيضا من خلال تعامله مع الإنسان المجموع .

ولعلنا نفهم من العرض السابق ، حقيقة المنهج التكاملي للبحث في علوم الاقتصاد والاجتماع والتاريخ وعلم النفس وغير ذلك من العلوم الإنسانية . إن الباحث في علم الاقتصاد ـــ مثلاً ـــ عليه أن يأخذ في الاعتبار ، الظواهر اللاإرادية من فلكية وفيزيقية وبيولوجية ـــ وحركتها ـــ إلى جانب دراسة سلوك الظواهر الاجتماعية والسيكولوجية ... ينبغي أن يكون الباحث في أي علم من العلوم الإنسانية على قدر كاف من المعرفة العلمية بالقوانين التي تخضع لها الظواهر اللاإرادية .

يدعو القرآن الكريم الإنسان إلى التأمل في ذاته وفي ملكوت السماوات والأرض . يقول تعالى : ﴿ **وفي أنفسكم أفلا تبصرون** ﴾[9] ويقول سبحانه : ﴿ **سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق** ﴾[10] . ويقول جلت قدرته : ﴿ **إن في خلق السمٰوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب** ﴾[11] . ويقول سبحانه وتعالى : ﴿ **إن في السمٰوات والأرض لآيات للمؤمنين . وفي خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون . واختلاف الليل والنهار وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها وتصريف الرياح آيات لقوم يعقلون** ﴾[12] . إن الحكمة من دعوة القرآن الكريم الإنسان ولفت نظره إلى التأمل في ذات نفسه وفي ملكوت السماوات والأرض ؛ أن يتوصل أولاً إلى معرفة خالقه والتيقن من وحدانيته سبحانه ، وأنه هو القادر والرازق والمحيي والمميت ، وأن بيده ـــ جلت قدرته ـــ ملكوت السماوات والأرض وأنه على كل شيء قدير . ومن حكمة الدعوة إلى التأمل أيضاً أن يكشف الإنسان عن بعض القوانين والسنن الإلٰهية ـــ الموضوعية ـــ التي تخضع لها الظواهر اللاإرادية ، والتي تسفر عن توازن تلك الظواهر ، فيستفيد من ذلك في معرفة أفضل وسائل التعامل مع تلك الظواهر ، فيضبط حركته الإرادية على النحو الذي ينسجم ويتسق ويتوافق مع الحركة الكلية المتوازنة في الكون . ومن الحكمة الكامنة وراء دعوة القرآن الكريم للإنسان ، أن يتأمل ويعقل ويفكر في آلاء الله وآياته في كونه وفي النفس البشرية ، أن يتيقن من أن قواعد الإسلام وأحكامه التي ترسم للإنسان المسار التوازني لحركته الإرادية كفيلة بأن تنسجم تلك الحركة مع الحركة الكلية المتوازنة في الكون ، لأن الله تعالى

---

(٩) الذاريات (٢١) .
(١٠) فصلت (٥٣) .
(١١) آل عمران (١٩٠) .
(١٢) الجاثية (٣ ـــ ٥) .

ــ وحده ــ هو منشىء القوانين والسنن التى تخضع لها الظواهر اللاإرادية ، وهو ــ وحده سبحانه ــ أيضاً قد وضع للإنسان قواعد السلوك الإرادى التى تنسجم بالضرورة مع تلك القوانين والسنن ، لأن مصدرها واحد ــ هو الله .

إن المنهج التكاملى الذى ندعو إليه ، ليس بدعاً ولا عجباً ، فهو منهج السلف الصالح ــ رضوان الله عليهم ــ وهو أيضاً منهج المحدثين من علماء المسلمين ... كيف يؤثر الشره فى الطعام والشراب فى صحة الإنسان ؟ أى كيف يؤثر سلوك الظاهرة الإرادية ــ وهى الاستهلاك ــ فى الحركة اللاإرادية لجسم الإنسان ؟... وما تأثير الانفعالات والمشاعر ــ كالغضب والخوف والحقد والحسد ــ على الجسم وحركته البيولوجية اللاإرادية ؟ ثم كيف ينعكس هذا التأثير على السلوك الإرادى للإنسان ؟... كيف تتوفر مقومات الحياة بالحركة المتوافقة ــ المتوازنة ــ للظواهر الفلكية والفيزيقية والبيولوجية فى الكون ؟... كل ذلك ــ وغيره ــ مقومات للمنهج التكاملى . لقد ربط السلف ــ رضوان الله عليهم ــ بين حركة الإنسان الإرادية ، فى مجالات نشاطه الاقتصادى والاجتماعى ، وبين حركة الظواهر اللاإرادية ؛ لكى يؤكدوا واجب الشكر على نعم الله التى لا تعد ولا تحصى ، ولكى لا يغيب عن الإنسان ــ لحظة واحدة ــ أنه عبد لله الواحد الذى بيده الرزق ، وبيده الأمر كله ، وذلك تأكيداً للعلاقة الوثيقة بين الإنسان والكون الذى يحتويه .

وهذا شيخ الإسلام ابن تيمية(١٣) ، يطالب المسلمين بتدبر آيات القرآن الحكيم ، والاستغناء بها عن مناهج الفلاسفة والمتكلمين ، كما يوجه أنظار الباحثين إلى الأدلة العقلية البرهانية ، فى كتاب الله تعالى وسنة نبيه ــ ﷺ ــ . لقد فطر الله عباده على معرفة الحق . والرسل بعثت لتكميل الفطرة .

إن دعوتنا إلى المنهج التكاملى ــ الذى يقوم على دراسة الظاهرة الإرادية فى إطار الظواهر اللاإرادية والعلاقات التأثيرية المتبادلة بينهما ــ هى دعوة صحيحة ،

---

(١٣) الإمام ابن تيمية هو المعبّر عن اتجاه علماء السنة والحديث ؛ لأنه التزم بمنهج الكتاب والسنة عن تدبر ووعى وفهم للموازين العقلية القرآنية ، وجعلها بديلا للوثنيات اليونانية التى تسربت إلى بعض مفاهيم الإسلام بدعوى التوفيق بين الدين والفلسفة . انظر : الإسلام والمذاهب الفلسفية . مرجع سابق . ص (١١١) .

تتفق ودعوة القرآن الحكيم الإنسان ، إلى التأمل ـــ بعقله ـــ فى ملكوت السماوات والأرض وفى النفس البشرية ، ولا يمكن أن تكون الدعوة عبثاً ولا يمكن أن يكون التأمل من قبيل الترفيه العلمى أو مجرد متعة ذهنية . ولعل أول ما يستفاد به من هذا التأمل فى خلق الله ، هو معرفة وجوده سبحانه ـــ وهذا ما سنبحثه فى الفصل القادم بعون الله وتوفيقه .

إن المنهج التكاملى يقوم ـــ كما رأينا ـــ على النظر العقلى والتحليل العلمى ، أى الاستنتاج (deduction) ، ويقوم ـــ كذلك ـــ على التجريب والاستقراء (induction). وفضلا عن ذلك يعتمد المنهج التكاملى على الأسلوب التاريخى فى البحث (Historical Methods) وهذا كله يستفاد من آيات القرآن الكريم .

الفصل التاسع

الحقيقة الأولية

من دراستنا السابقة بالفصل السابع عرفنا أن جانباً من الفكر الوضعى يعتبر أن الدين يشكل عاملاً حاسماً فى تطور الحضارة ، إلا أننا وجدنا أن النظرة الوضعية إلى الدين غير صحيحة . إن كتّاباً أمثال : (دوركايم وتايلور وماكس مولر وسبنسر وكيد وكولانج وماكس فيبر وبارسونز) ـــ ممن يعترفون بأهمية الدين فى العملية الحضارية ـــ لم يتحدثوا عن دين الإسلام ـــ القائم على عقيدة التوحيد ـــ باعتباره الدين الصحيح ، الذى ارتضاه الله لعباده منذ خلق آدم عليه السلام وإلى يوم البعث .

ونحن ، وإن كنا نوافق على أن للدين دوراً حاسماً فى الحضارة إلا أننا نخصص الدين الإسلامى باعتباره الدين الصحيح الذى يلعب دوراً رئيسياً فى ازدهار الحضارة الإنسانية ، بينما ننظر إلى الأديان الأخرى ـــ القائمة على عقائد وثنية ـــ كعوامل سلبية تعمل على تقويض دعائم الحضارة وأفولها . ولا شك أن هذه النظرة ، تتفق والغرض الأساسى ، الذى تقوم عليه النظرية التاريخية ـــ فى رأينا وهو أنه إذا صحت العقيدة بكل مقتضياتها الإيمانية والتعبدية والتعاملية والأخلاقية ، وهيمنت على كافة جوانب السلوك الإنسانى فإن الحضارة تزدهر ، أما إذا فسدت العقيدة فى أساسها أو فى أحد مقتضياتها ، أو إذا لم تهيمن على كافة جوانب السلوك ؛ فإن الحضارة تخبو وتأفل .

سنواصل بعون الله بحثنا لهذا الغرض فى هذا الفصل وما يليه من فصول الكتاب ، ونستخدم فى ذلك المنهج التكاملى الذى عرضنا أهم مقوماته فى الفصول السابقة .

قلنا : إن الإنسان يتعامل مع ذاته ويتعامل مع غيره ويتعامل مع البيئة ؛ أى

الكون فى مجموعه . ومن خلال هذا التعامل ، يتكون تصور الإنسان للوجود وللهدف الذى خلق من أجله ، وتصوره للعلاقة بينه وبين ربه ، يستطيع الإنسان — بفطرته التى فطره الله عليها — أن يعرف وجود الله بالتأمل فى ذاته ، ويستطيع ذلك أيضاً بالتأمل فى آياته الكونية .

يستطيع الإنسان أن يعرف وجود الله من آياته القرآنية ، يقول تعالى : ﴿ **كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون** ﴾[1] ، ويقول سبحانه : ﴿ **الر كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير** ﴾[2] . ويستطيع الإنسان أن يعرف وجود الله من معجزاته . يقول عز وجل : ﴿ **وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون** ﴾[3] . ونعرف وجوده سبحانه كذلك بالتأمل فى ظواهر الكون . يقول جل شأنه : ﴿ **ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون** ﴾[4] . ﴿ **ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم ...** ﴾[5] . ﴿ **ومن آياته يريكم البرق خوفاً وطمعاً** ﴾[6] . إن هذه المعرفة ذات أهمية بالغة فى حياة الإنسان ، فى دنياه وآخرته . إن اعتقاد الإنسان اعتقاداً راسخاً فى وجود إله واحد خالق للكون والإنسان قادر ومسيطر ، أمر بالغ الأهمية فى توجيه حركته الإرادية نحو المسار التوازنى الذى ينسجم والحركة المتوازنة للكون فى مجموعه ، وبذلك يستقيم أمر الدين والدنيا . إن الاعتقاد الراسخ والتيقن من الحقيقة الأولية — التى تقرر أن لهذا الكون إلهاً واحداً خالقاً مهيمناً على كل خلقه — يستتبع التزام المرء بقواعد وأحكام الإسلام فى كل جوانب حياته ، الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والسيكولوجية والروحية ، ومن هنا يكون الاختلاف (الحضارى) بين المجتمعات التى تسودها عقيدة التوحيد ، والمجتمعات التى تسودها عقائد وثنية .

قلنا : إن الإنسان يستطيع أن يعرف وجود الله بالتأمل فى ذاته والتأمل فى الكون . ونبدأ بالحديث عن الكون ثم عن الذات الإنسانية .

إن الاستقراء المباشر للظواهر الفلكية والفيزيقية والعضوية فى الكون ؛ يوضح

---

(١) فصلت (٣) . (٢) هود (١) . (٣) الإسراء (٥٩) .
(٤ ، ٥ ، ٦) الروم (٢٠ و ٢٢ و ٢٤) .

أنها تخضع فى تكوينها المتناسق وفى حركتها المتوافقة لقوانين وسنن موضوعية ، تعمل على توازن هذا التكوين وتوازن تلك الحركة ، ويوضح أيضاً أن هذه الظواهر تتضافر فيما بينها على النحو الذى يسفر دائماً ، وفى كل لحظة ، عن توفير مقومات الحياة من هواء وماء وضوء وحرارة وطاقة وثروات مائية ونباتية وحيوانية ومعدنية ، وغير ذلك من عوامل البقاء . إن هذا التكوين المتناسق والحركة المتوافقة وتضافر كافة الظواهر من أجل تحقيق هدف واحد ـــ هو تهيئة مقومات الحياة ـــ كل ذلك يتم على نحو لا شعورى بلا وعى أو إدراك ؛ لأن الظواهر الفلكية والفيزيقية والعضوية ظواهر لا إرادية ، ليس لديها الوعى أو الشعور ، وهنا تفرض الحقيقة الأولية نفسها بوجود إرادة مطلقة تهيمن وتوجه تلك الظواهر .

لقد نظر (Schaupenhauer)إلى الحيوان وإلى النبات فوجد أنها تتحرك حركة عمياء لا شعورية على صورة منتظمة لا تتغير ، أى أنها تتحرك على وتيرة واحدة فى كل مرة . وتساءل : كيف تتحرك ، ومن الذى يفرض عليها تلك الحركة المنتظمة ؟[٧] . وكان منطق العلم يقتضى القول بأن هناك « إرادة » خارج تلك الكائنات هى التى توجه حركتها المنتظمة ، إذ يستحيل أن نتصور أن تتسق حركة الكائن الحى ـــ وتتوافق ـــ بطريقة لا إرادية لا شعورية ـــ عمياء ... ولكن (شوبنهور) رفض ـــ دون أى دليل علمى منطقى أو تجريبى ـــ تلك الحقيقة ، وقال إنها تتحرك تلك الحركة المنتظمة دائماً ؛ لأنها تسير تبعاً لقوانين طبيعتها .

لقد كان يجب على هذا الكاتب ، أن يبين كيف طبعت الكائنات اللاواعية (نفسها) على تلك القوانين ؟ وما هو مصدر القوانين ، وهل تلك القوانين أسبق فى الوجود على نشأة الكائن أم أنها عاصرت تلك النشأة ؟ . لاحظ (شوبنهور) أن وجود « الإرادة » أمر ضرورى لتسويغ الحركة المنتظمة للكائنات (اللاإرادية) ، إلا أنه بدلاً من أن يقرر وجود الإرادة الإلٰهية ذهب إلى ما أسماه « إرادة الحياة » . وقد اضطر أن يساير منطقه الدائرى الذى يفسر الحياة بإرادة الحياة ، فزعم أن الحياة كلها تقوم على « الإرادة » لا « العقل » . ومعنى ذلك أن الحياة كلها قامت على إرادة غير عاقلة ، وهو قول يرفضه العلم ويرفضه المنطق السليم ، لأن الإرادة غير

---

(٧) انظر : قصة الفلسفة الحديثة . مرجع سابق .ص (٢٥١) ومابعدها . وشوبنهور هذا فليسوف ألمانى معروف .

العاقلة هى ذاتها اللاإرادة غير الواعية . لقد انتهى (شوبنهور) من حيث بدأ ؛ لأنه لم يجب عن التساؤل المطروح عن مصدر التناسق والتوافق فى الكون .

ويستمر (شوبنهور) فى منطقه الدائرى ... الجسد ، أى جسم الإنسان لا يعدو أن يكون تعبيراً مرئياً لرغباته ونوازعه ، فالأسنان والمرىء والمعدة — كل ذلك — تجسيد للجوع ، وأعضاء التناسل تجسيد للرغبة الجنسية .. وذهب إلى حد القول بأن القوة والمغناطيسية والكهرباء كلها إرادة — أى إرادة الحياة [٨] .

إن النبات عندما يحصل على غذائه من التربة ، وعندما تتجه أوراقه نحو الضوء ، وعندما يقوم بعملية النتح ، وغير ذلك من عمليات متناسقة منتظمة تتم فى توافق زمنى دقيق ، وتتحقق على نحو لا إرادى — أى لا شعورى بلا وعى — فإن ذلك يؤكد أن هناك إرادة واعية توجه وتهيمن على تلك العمليات .

يدور النشاط الاقتصادى للإنسان حول عملية الوفاء بحاجاته المادية باستخدام الموارد المتاحة ، فمن أين تأتى تلك الموارد وكيف تتكون وتتهيأ للإنسان ؟ ، إن الظواهر اللاإرادية — من فلكية وفيزيقية وعضوية (بيولوجية) — تتضافر كلها ، بحكم تكوينها البنائى المتناسق وبحكم حركتها المتوافقة ؛ لكى تهيىء للإنسان كافة مقومات الحياة ، دون أن يبذل الإنسان من جانبه أى جهد إنتاجي .. بل إن الإنسان — بجهده أو علمه — لا يستطيع أن يخلق شيئاً من مقومات حياته . إنه لا يستطيع أن يشرق الشمس لكى ترسل أشعتها وحرارتها ، أو يدير الأرض حولها أو حول محورها ؛ لكى تتوالى الفصول ويتعاقب الليل والنهار ، ويتنوع المناخ والنبات ، ولا دخل لإرادة الإنسان فى ظاهرة البخر التى تسهم فى عملية تكوين السحاب ونزول المطر . والإنسان لا يجرى — بإرادته — العمليات الحيوية المعقدة التى تتم فى باطن التربة . فإذا استبعدنا إرادة الإنسان من عملية توفر مقومات الحياة ، واستبعدنا أيضاً تحقق تلك العملية المتسقة والمتوافقة والمعقدة على نحو لا شعورى بلا وعى ، فإن القول بوجود إرادة واحدة توجه — وتهيمن على — حركة الظواهر الفلكية والفيزيقية والعضوية فى الكون ، هو القول الفصل الذى يتفق والاستنتاج العلمى السليم .

إن المادة — العضوية وغير العضوية — ليست قادرة على أن تفهم ذاتها ؛ لأن

---

(٨) انظر للكاتب : الفصل السابع من : التوازن والتحليل الاقتصادى . مرجع سابق .

الفهم مقصور على الوعى ، والمادة لا وعى لها ، فحركتها إذن غير واعية ، فإذا وجدنا مع ذلك أنها حركة متسقة متوافقة تستهدف تحقيق غاية معينة دائماً ، فإن ذلك يعنى بالضرورة أن مصدر هذا التناسق والتوافق ، خارج عن المادة ومفروض عليها بإرادة واعية مدركة .

يشير القرآن الكريم ـــ فى كثير من الآيات ـــ إلى أن الكون بظواهره مسخر لكى يزود الإنسان بمقومات حياته ، وذلك للاستدلال على أن الله الواحد ، هو الخالق الذى يحيى ويميت . يقول تعالى : ﴿ **والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل شىء موزون. وجعلنا لكم فيها معايش ومن لستم له برازقين . وإن من شىء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم. وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماءً فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين . وإنا لنحن نحيى ونميت ونحن الوارثون** ﴾[9] .

ولنا أن نتأمل قوله تعالى :﴿ **وأنبتنا فيها من كل شىء موزون** ﴾ فالتوازن ـــ كما يؤكده الاستقراء ـــ حقيقة أو مبدأ أو قانون عام ، يقوم عليه الكون ، ويبين القرآن الكريم ـــ فى أكثر من آية ـــ أن التوازن قانون إلهى أجراه الله بمشيئته المطلقة وإن شاء أوقف سريانه ، ويربط القرآن هذه الحقيقة ـــ أى التوازن المقيد بشرط المشيئة الإلهية ـــ بتسخير الظواهر الكونية لخدمة الإنسان . يقول تعالى:﴿ **ألم تر أن الله أنزل من السماء ماءً فتصبح الأرض مخضرة إن الله لطيف خبير . له ما فى السموات وما فى الأرض وإن الله لهو الغنى الحميد . ألم تر أن الله سخر لكم ما فى الأرض والفلك تجرى فى البحر بامره ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه إن الله بالناس لرؤوف رحيم . وهو الذى أحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم إن الإنسان لكفور** ﴾ [10] .

إن الكون الذى يحتوى الإنسان هائل ورهيب ، يحار العقل فى إدراكه .. إن الأرض التى عليها يحيا الإنسان ، الذى يتصور أنه سيد الكون ، يظلم ويطغى ، يهلك الحرث والنسل ، ويفسد فى الأرض بظلمه وجحوده .. هذه الأرض لا تمثل من الكون حبة رمل فى صحراء أو قطرة ماء فى محيط .. إن الأرض كوكب واحد من بين

---

(٩) الحجر (١٩ ـــ ٢٣) .　　　　(١٠) الحج (٦٣ ـــ ٦٦) .

تسعة كواكب تدور كلها حول الشمس ، والشمس نجم واحد من بين ملايين النجوم تدور كلها حول محور واحد تجمعها كلها مجرة واحدة ، وهناك ملايين المجرات التى تسبح كلها فى الفضاء الكونى ــ بما تحتويه كل منها من ملايين المجموعات والنجوم ــ تدور فى أفلاك محددة متداخلة دون أن يقع بينها صدام أو تصدع . وهناك فضلاً عن ذلك ما يسمى بالسدم التى تشبه المجرات وما يسمى الكوازار التى تشبه النجوم ... ولكى نتصور ضخامة الكون الذى يحتوى الأرض وما عليها ، نذكر أن المسافات الكونية ــ بين النجوم ــ لا تقاس بالمقاييس الأرضية المعروفة ، وإنما تقدر بما يعرف بالسنة الضوئية ، والتى تعادل ملايين الملايين من الكيلومترات ، ولنا أن نتصور معنى أن نجماً من النجوم يبعد عنا ملايين الملايين من السنين الضوئية . إن ذلك يعنى أنه يستحيل أن يصل إنسان إلى هذا النجم ؛ لأن الزمن اللازم لذلك يستنفد أجيالاً من البشر ، خلال الرحلة الفضائية ... هذا هو الكون ! وهذا الكون ــ مع ذلك ــ متوازن فى تكوينه وفى حركته . ألا يؤكد ذلك وجود الإله ، الواحد الخالق القادر المهيمن ؟ ألسنا نحيا على الأرض برحمة من الله ؟ وأى عاقل بعد ذلك يصدق أن الكون أزلى أو أن المادة أزلية ؟

يقول (ألبرت أينشتين) ــ صاحب النظرية النسبية ــ : « إن أعظم خاطرة يمكن أن تجيش بها النفس البشرية وأجملها ، لهى تلك التى يستشعرها الإنسان عند الوقوف فى روعة أمام هذا الخفاء الكونى والإظلام ... إن الذى لا تجيش نفسه لهذا ولا تتحرك عاطفته ، حى ميت ... إنه خفاء لا نستطيع أن نشق حُجُبه ، وإظلام لا نستطيع أن نطلع فجره » ويقول : « إن الشعور الدينى الذى يستشعره الباحث فى الكون : هو أقوى حافز على البحث العلمى وأنبله »[11] .

إن ما ذكرناه عن الكون ، يشير إليه القرآن الكريم فى العديد من آياته . يقول الله تعالى : ﴿ **إنا كل شىء خلقناه بقدر** ﴾[12] . ويقول جل شأنه : ﴿ **.. ماترى فى خلق الرحمٰن من تفاوت** ﴾[13] . ويقول ــ جلت قدرته : ﴿ **لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون** ﴾[14].

---

(11) مشار إليه فى : تفسير الآيات الكونية : للدكتور عبد الله شحاته ــ دار الاعتصام ١٩٧٧ . ص (٢٦٦ ــ ٢٦٧) .

(12) القمر (٤٩) . (13) الملك (٣) . (14) يس (٤٠) .

هكذا ، يستطيع الإنسان — بالتأمل فى ملكوت السماوات والارض — ان يتوصل إلى الحقيقة الأولية اليقينية بأن لهذا الكون إلهاً واحداً خالقاً قادراً ، مهيمناً على خلقه .

إن الحقيقة المعتبرة فى كل دليل ، هو اللزوم ، وهذا ما يراه ابن تيمية : فمن عرف أن هذا لازم لهذا استدل بالملزوم على اللازم ، ويشير القرآن الكريم إلى ذلك فى قوله تعالى : ﴿ **أم خلقوا من غير شىء أم هم الخالقون** ﴾ (١٥) . إن الكون بما فيه من إنسان ونبات وحيوان وكواكب ونجوم ، كل ذلك مخلوق ، ولابد من وجود الخالق ، أى أنه يلزم من وجودها وجود الخالق .

ويستطيع الإنسان أيضاً أن يتوصل إلى تلك الحقيقة التى أنكرها الماديون والداروينيون دون أى دليل علمى منطقى ، بالتأمل فى ذاته . ولذلك نركز بحثنا الآن على الظاهرة العضوية . إن جسم الإنسان — كنسق عضوى — تجرى بداخله عمليات لا إرادية بفعل قوانين وسنن إلهية — موضوعية — على النحو الذى يسفر عن توازن النسق . من هذه القوانين ما نطلق عليه « التكامل البنائى — الوظيفى » . إن جسم الإنسان يتكون من مجموعة من الأجهزة والأعضاء ، ويتكون كل عضو من الأنسجة والخلايا التى تلائم الوظيفة التى يؤديها العضو ، أى تتلاءم والدور الذى يقوم به العضو فى إطار الحركة الكلية المتوازنة للنسق (الجسم) فى مجموعه . ومعنى ذلك ، أن الانسجام قائم بين وظيفة كل عضو وتكوينه الفسيولوجى ، وقائم أيضاً بين تكوين العضو ووظيفته ، وبين تكوين سائر الأعضاء الأخرى ووظائفها . هذا التكامل البنائى — الوظيفى يسفر عن التوافق الزمنى لحركة العضو مع حركة سائر الأعضاء الأخرى ، على النحو الذى يتحقق معه توازن النسق فى مجموعه وفى جزئياته .

ولعلنا نستنتج من ذلك انتفاء الحركة العشوائية الفوضوية، إذ لو كانت الحركة كذلك فإن توازن النسق يختل بالضرورة . ونستنتج من قانون التكامل البنائى والوظيفى أيضا أن حركة العضو ليست مقيدة ، بحيث لا يستطيع العضو أداء الدور الموكول إليه فى إطار الحركة الكلية المتوازنة للنسق . إن حركة العضو منضبطة بكل تأكيد ، بمعنى أن حرية الحركة للعضو مكفولة بالقدر الذى يحتاج إليه فى أداء

---

(١٥) الطور (٣٥) .

مهمته ، أى بالقدر الذى يقتضيه التوازن الكلى للنسق.[(١٦)] .

يتوازن العضو ، فى إطار التوازن الكلى للنسق . وينهار توازن العضو ويفقد وجوده ــ كعضو ــ إذا انفصل عن النسق ، أو عندما تتعارض حركته مع الحركة الكلية المتوازنة للنسق فى مجموعه . ومن ناحية أخرى ، فإن اختلال توازن العضو يؤدى إلى اختلال التوازن النسقى . تلك الوحدة العضوية والوظيفية بين العضو والنسق ، تفسر لنا وجود قانون آخر من قوانين التوازن . ونطلق عليه المقاومة الذاتية . فإذا تعرض أحد أعضاء النسق للاختلال ــ بسبب صدمة طارئة ــ فإن ثمة قوى كامنة فى النسق تعمل على تصحيح الانحراف عن المسار التوازنى . ويتوقف نجاح القوى الكامنة فى تحقيق هذا الهدف على قوة الصدمة منسوبة إلى القدرة الذاتية لتلك القوى . ومن الأمثلة الواضحة على وجود تلك القوى الكامنة فى النسق ــ مقاومة جسم الإنسان للمرض أو ما أسماه القدماء (Vix Medicatrix Naturae) من ذلك ، أن العضو إذا أصيب بميكروب ضار ، فإن النسق يعمل على زيادة كرات الدم البيضاء التى تحاصر الميكروب فى منطقة الإصابة للقضاء عليه . وقد يصاب الجسم بنوع من الأنيميا يسمى (Sickell Cell Anemiae) يؤدى إلى سرعة تكسير ــ أى إفناء ــ كرات الدم الحمراء بمعدل أكبر من معدل إنتاجها ، الأمر الذى يترتب عليه تناقص تلك الكرات مما يهدد بانهيار توازن النسق وحدوث الوفاة . وهنا يضطر النخاع العظمى ، بمساعدة النسق فى مجموعه ــ أى بتضافر سائر الأعضاء فى النسق ــ إلى زيادة معدل إنتاج كرات الدم الحمراء ؛ لكى يظل عددها فى الجسم ثابتا فى كل لحظة ، ونتيجة لذلك ، يتعرض النخاع العظمى للإجهاد ، وإذا استمر المرض واستمر النخاع العظمى فى إنتاج الكرات بمعدل أعلى من المعدل الطبيعى ، يصبح من الضرورى تدخل خارجى لنقل الدم إلى المريض على فترات منتظمة للمحافظة على حياته .

ونطرح هنا تساؤلا عن الدافع الذى من أجله يقوم النخاع العظمى بهذا

---

(١٦) تعرضنا فى كتابنا : التوازن والتحليل الاقتصادى ــ لبعض القوانين البيولوجية فى إطار بحثنا لموضوع التوازن . أما فى بحثنا الحالى فإن الهدف من إعادة الحديث عن تلك القوانين هو التمهيد لدراسة الإنسان فى علاقاته الاجتماعية ، كما سيتضح بالفصل التالى إن شاء الله ، فضلا عن تأكيد الحقيقة الأولية التى أسفر عنها بحثنا للظواهر اللاإرادية التى تهيىء للإنسان مقومات حياته .

العمل الذى يجهده ؟ أو بمعنى آخر نريد أن نفهم (Understand) هذه الظاهرة الفسيولوجية (الطبيعية) . لقد علمنا أن كافة الظواهر اللاإرادية فى الكون ، من فلكية وفيزيقية وبيولوجية تتحرك حركة رتيبة متوازنة قلما تحيد عنها ، فالتوازن إذن هو المبدأ أو القانون العام الذى يقوم عليه الكون ، بما فيه من ظواهر لا إرادية . ولذلك نستطيع أن نفهم الظاهرة اللاإرادية بأنها تسعى دائما نحو تحقيق التوازن ، أى أنها تتحرك (لكى) تحقق هذا الهدف . إن النخاع العظمى يجهد نفسه فى زيادة معدل إنتاج الكرات الحمراء من أجل تحقيق التوازن . وهو لا يجهد نفسه من منطلق إفناء ذاته للمحافظة على توازن النسق ، إذ لا وجود للنسق إلا بوجود النخاع العظمى . ومن ناحية أخرى ، لا يجهد النخاع العظمى نفسه من أجل إنقاذ ذاته ، إذ لا وجود له إلا فى إطار النسق . فالجزء لا وجود له إلا فى إطار الكل ، ولا يستقيم الكل إلا باستقامة الجزء ، والعكس أيضا صحيح .

يذهب (داروين) — كما أسلفنا — إلى أن التطور يقوم على الانتخاب الطبيعى والصراع من أجل البقاء . ونريد أن نناقش هنا دعوى الصراع ؛ لكى نبين أنه ليس أصلا السبب الذى يقوم عليه الكون أو تقوم عليه الحياة .

إن فكرة الصراع تنطوى على الاختلال لا التوازن . والكون — كما رأينا — لا يقوم على الاختلال وإنما يقوم على التوازن . وقد رأينا أيضا أن قوى المقاومة الذاتية كامنة فى الأنساق اللاإرادية ولا تنطلق — أى لا تتحول من السكون إلى الحركة — إلا إذا تعرض النسق لصدمة طارئة تهدد توازنه . ومعنى ذلك أن الصراع بين قوى المقاومة والصدمة الطارئة لا يقع إلا مع الاختلال .... فكرة الصراع إذن فكرة اختلالية ، والداروينية البيولوجية — والاجتماعية أيضا — مذهب اختلالى لا يجب التعويل عليه ؛ لأنه يناقض الأساس الذى قام عليه الكون وقامت عليه الحياة .

ثمة قانون آخر من القوانين التى تسرى على الأنساق البيولوجية نطلق عليه قانون الاحتياج . فالعضو داخل النسق يحتاج إلى غيره من الأعضاء ، والنسق فى مجموعه يحتاج أيضا إلى غيره من الأنساق أى يحتاج إلى خارجه ... العين فى الإنسان تحتاج إلى مراكز الأعصاب وتحتاج أيضا إلى القلب الذى يدفع إليها الدم . والإنسان — كنسق عضوى — يحتاج إلى خارجه . يحتاج إلى الأوكسجين وإلى

الضوء والحرارة وإلى الماء وإلى غير ذلك من مقومات الحياة .

وقانون التبادل ـــ أى تبادل المنافع ـــ من القوانين التى تخضع لها الظاهرة البيولوجية . فالنبات ـــ مثلا ـــ يمتص ثانى أوكسيد الكربون الذى يخرجه الإنسان فى عملية الزفير ، ويوفر للإنسان ـــ من خلال عملية التمثيل الضوئى ـــ الأوكسجين الذى يحتاج إليه . وإخراجات الإنسان والحيوان ، تسهم فى تسميد التربة التى تزود الإنسان والحيوان بالثمار والمواد الغذائية الأخرى . وقد يحصل نسق من خارجه على منافع من نسق آخر دون أن يحصل الأخير على منافع مباشرة من الأول . ويحصل الإنسان على الضوء والحرارة من الشمس دون أن تحصل الشمس منه على مقابل . ومعنى ذلك أن تبادل المنافع بين الأنساق غير المتكافئة يتم على أسس غير متعادلة ، أى أنه يتحقق على أساس الحاجة . ولكن ليس معنى ذلك انتفاء المنفعة المقابلة ؛ لأننا نعلم أن لكل شيء فى هذا الكون دورا أو وظيفة فى إطار التوازن الكلى ، أى أن الشيء يسهم بصورة أو بأخرى فى هذا التوازن ، الذى يحتاج إليه كافة الأشياء الأخرى . وهكذا يكون الدور الذى يناط بالنسق مسوغا لما يحصل عليه من منافع .

ونشير ، فى إطار بحثنا للقوانين والسنن التى تخضع لها الظواهر اللاإرادية فى الكون ـــ أى الظواهر التى لا إدراك لها ـــ إلى أن الكائنات الحية لا تحصل من خارجها إلا على المنافع التى يحتاج إليها توازنها . فهى تتغذى على مواد معينة تتناولها بطريقة لا شعورية غير واعية ، وهى مواد تحتاج إليها لكى يتحقق توازنها ، بينما ترفض تناول مواد أخرى مما يتسبب عنها اختلال هذا التوازن . ويتحقق ذلك أيضا على نحو لا شعورى غير مدرك . وعندما يحصل الكائن الحى على حاجاته ـــ من حيث الكم والكيف ـــ فإنه يتوقف ـــ تلقائيا ـــ عن تناول المزيد ويتم ذلك أيضا بصورة لا شعورية غير واعية .

سنرى ـــ فى الفصل التالى بعون الله ـــ كيف يستفيد الإنسان فى نشاطه الاقتصادى وفى غير نشاطه الاقتصادى من القوانين والسنن التى تسرى على الحركة اللاإرادية . على أن تساؤلا هاما يطرح نفسه وهو : كيف يمكن أن يتناسق التركيب البنائى لجسم الإنسان وتتوافق حركة أعضائه على هذا النحو الدقيق الذى يسفر فى النهاية عن بقاء الإنسان على قيد الحياة قادرا على إدراك وجوده والوعى بما يجرى خارجه ؟ ثم كيف يمكن أن يتناسق التركيب البنائى للظواهر الفلكية والفيزيقية

والبيولوجية ، وأن تتضافر فيما بينها ــ بحركة متوافقة تماما ــ على النحو الذى يسفر دائما ــ وفى كل لحظة ــ عن توفير مقومات الحياة وعوامل البقاء للإنسان ؟ والإجابة الوحيدة التى يمكن قبولها علميا ومنطقيا تقرر ، أن هناك إرادة واعية قادرة ومسيطرة هى التى أجرت القوانين والسنن على تلك الظواهر ، إذ يستحيل ــ دون أن نسلم بهذه الحقيقة الأولية اليقينية ــ أن يقوم هذا التناسق والتوافق لتحقيق هدف محدد .

لم يستطع (شوبنهور) أن يتجاهل تلك الحقيقة . فقرر وجود « الإرادة » التى تحرك الظواهر اللاإرادية ، إلا أنه ذهب مذهبا لا علميا ــ إلحاديا ــ حينما قال : إنها إرادة غير عاقلة أسماها إرادة الحياة . وقد رأينا كيف انتهى إلى نهاية غير مقبولة عندما زعم أن جسم الإنسان هو التعبير المرئى لرغباته وضغوطه . وتساءل (شوبنهور): لماذا لا تكون الإرادة جوهر الجماد ، بل ولم لا تكون هى الشىء فى ذاته الذى طالما بحثنا عنه ؟ . إن الحقيقة ــ فى نظره ــ هى الإرادة ومااالسببية ومااالعلة إلا إرادة .. إنها العلة العامة التى توجه أنفسنا وهى كذلك علة الأشياء(١٧) .

ومن جانبنا نقول : إننا نفهم الإرادة على أنها رغبة واعية . فالإرادة تنطوى على إدراك للهدف ، والإنسان وحده ، من بين الكائنات الحية ، هو الكائن الإرادى الذى يسلك ، فى مجالات معينة ، سلوكا إراديا بوعى وإدراك . وهذه الإرادة الإنسانية لا دخل لها فى حركة الظواهر اللاواعية غير المدركة ، وعلى ذلك ، فإن تناسق التركيب البنائى وتوافق حركة تلك الظواهر ، إنما ينطوى على إرادة واعية مدركة فوق الإرادة الإنسانية . وهكذا لا نستطيع أن نفهم الظواهر اللاإرادية وحركتها المتوازنة إلا إذا سلمنا بالحقيقة الأولية ، التى تقرر أن لهذا الكون إلٰها واحدا خالقا مهيمنا على كل خلقه .

يقول تعالى ﴿ **حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف** ﴾ (١٨) . هذا التغير والتبدل ، ما مصدره ؟ وإذا قيل لنا إنها العوامل الجوية ، نقول : وما مصدرها ؟ .... وسوف نصل فى النهاية إلى الحقيقة

---

(١٧) قصة الفلسفة الحديثة . مرجع سابق . ص (٢٥١) ومابعدها .

(١٨) يونس (٢٢) .

الأولية بوجود الإرادة المدبرة .

إن ظاهرة البخر (تستهدف) تكوين السحاب ونزول المطر . والتفاعلات الحيوية ـــ العضوية ـــ فى باطن التربة (تستهدف) إنبات الزرع . ودوران الأرض حول محورها وحول الشمس (يستهدف) تعاقب الليل والنهار ، وتوالى الفصول وتنوع النبات . وعملية التنفس (تستهدف) إحراق الغذاء وتزويد الجسم بالطاقة والقدرة على الحركة .... هكذا تتحرك الظواهر اللاإرادية من أجل تحقيق غاية ، وهى استمرار الحياة . وإذا كانت الظاهرة اللاإرادية ظاهرة غير واعية وتتحرك على نحو لا شعورى غير مدرك ، إلا أنها حركة تنطوى على وعى تام وإدراك كامل بالهدف . فما هو مصدر هذا الوعى والإدراك ؟ .

وإذا كانت كل ظاهرة لا إرادية (تستهدف) تحقيق غاية معينة ، وكانت كافة الظواهر اللاإرادية تنتهى إلى نفس الغاية . فذلك لا يتأتى إلا إذا كانت هناك إرادة واحدة تنطوى على إدراك كامل ووعى تام بالهدف النهائى . إننا لا نستطيع أن نفهم الظواهر البيولوجية داخل النسق الإنسانى إلا على هذا النحو . ولا نستطيع أن نفهم قوانين الحركة والاحتياج والتبادل والمقاومة الذاتية ، وغير ذلك من قوانين وسنن موضوعية تخضع لها كافة الظواهر اللاإرادية فى الكون إلا فى هدى الحقيقة الأولية بوجود الله ، خالق كل شيء ، المهيمن على كل خلقه .

لقد حاولنا بالاستقراء والاستنتاج أن نكشف عن الحقيقة الأولية اليقينية بوجود الله ـــ الواحد ـــ الخالق ـــ العظيم .. تلك الحقيقة لا تحتاج إلى عناء كبير فى التعرف عليها . فلقد عرفها الأعرابى بفطرته السليمة حينما قال : « البعرة تدل على البعير ، وأثر الأقدام يدل على المسير ، فسماء ذات أبراج ، وأرض ذات فجاج ، وبحار ذات أمواج ، ألا تدل على العليم الخبير » .

هذه الحقيقة الأولية اليقينية هى الركيزة الأساسية للبحث فى مجالات العلوم الإنسانية والطبيعية على السواء .

يقول أحد المستشرقين :

« .. إن أول ما يثير الدهشة فى روح من يواجه نص القرآن لأول مرة ، هو ثراء

الموضوعات المعالجة . فهناك الخلق ، وعلم الفلك ، وعرض لبعض الموضوعات الخاصة بالأرض ، وعالم الحيوان ، وعالم النبات ، والتناسل الإنسانى ، وعلى حين نجد في التوراة أخطاء علمية ضخمة ، لا نكشف فى القرآن أى خطأ . وقد دفعنى ذلك لأن أتساءل : لو كان كاتب القرآن إنساناً كيف استطاع فى القرن السابع من العصر المسيحى أن يكتب ما اتضح أنه يتفق مع المعارف العلمية الحديثة »[١٩] .

بقيت لنا كلمة ، وهى أننا لا نستدل على صدق القرآن بالعلم وإنما العكس هو الصحيح ، بمعنى أنه إذا اصطدم العلم بنص القرآن فإن ذلك يؤكد خطأ فى منهج البحث أو فى نتائج البحث لأن الحقيقة الأولية ـــ يقينية .

(١٩) موريس بوكاى : مشار إليه فى : تفسير الآيات الكونية . مرجع سابق ص (٥٣) .

الفصل العاشر
حقيقة الإنسان

نعود الآن إلى الموضوع الرئيسى الذى نبحثه وهو الإنسان ، ونتناوله من جانبه الإرادى ـــ الإدراكى ، لارتباط الحضارة بمفهومها الإنسانى ـــ الذى عرضناه من قبل ـــ بهذا الجانب ارتباطا وثيقا .

قلنا إن الإنسان نسق متكامل ووحدة غير قابلة للتجزئة . فالعقل لا وجود له خارج إطار الجسد ، أما الروح فإنها مسألة يستحيل على العقل إدراكها ؛ لأنها من أمر الله . ويكفينا أن نعلم أنها تهدى الإنسان إلى معرفة أشياء لا يستطيع العقل ولا تستطيع الحواس إدراكها . وأما العقل فهو الأداة التى توازن بين نزعات الجسد وضغوطه وبين سبحات الروح وانطلاقاتها . فالعقل يكبح جماح الجسد حتى لا يهبط الإنسان إلى مستوى الحيوان ، ويحد من انطلاقات الروح حتى لا يرتفع الإنسان إلى مستوى الملائكة . وهذه هى حقيقة الإنسان كما أرادها الله .

يقول عالم مسلم : « .. فالإنسان توازن دقيق بين مادة وروح بينهما عقل يحول دون أن تطغى إحداهما على الأخرى ، لأنه لو طغت إحداهما على الأخرى لخرج الإنسان عن إطاره الإنسانى » . ويقول : « والإنسان يتصل بدوافع الحياة الجسدية وقوى الغرائز الحيوانية عن طريق نفسه . أما روحه فهى من أمر الله . ويتوسط عقل الإنسان بين قوة روحه وقوة نفسه ، فهو وازع النفس ومستلهم الهداية من الروح ، وعلى ذلك فالإنسان يعلو على نفسه بعقله ويعلو على عقله بروحه ؛ لأنه يتصل من جانب النفس بدوافع الحياة الجسدية ، ويتصل من جانب الروح بعالم البقاء وسر الوجود الدائم وعلمه عند الله »[1] .

---

(١) من محاضرة للدكتور زغلول النجار ـــ العالم الجيولوجى . أنظر : تفسير الآيات الكونية . مرجع سابق . ص (٢٦٨) .

علمنا أن العقل يختلف عن الجسد الذى يحتويه . فالوعى ينتمى إلى عالم الإرادة ، بينما ينتمى الجسد إلى عالم اللاإرادة . والإرادة تعلو على اللاإرادة .. ولكن ذلك لا يعنى انفصال الإرادة (الوعى) عن اللاإرادة (الجسد) . إن القدرات العقلية عند الطفل ساعة مولده تكون منعدمة ، أو تكاد تنعدم ، ثم تنمو تلك القدرات ــ مع نمو الجسم ــ بمرور الزمن . فالجسم ينمو ، والعقل ينمو بانتقال الإنسان من مرحلة الطفولة إلى مرحلة الصبا ثم الشباب فالرجولة . ولكن ذلك لا يعنى أن يتحقق نمو العقل بنفس معدلات نمو الجسم ، لاختلاف الطبيعة البنائية والوظيفية لكل منهما .

إن حاجات الجسد ، حاجات أيضاً للعقل ، لأن العقل لا وجود له إلا فى إطار الجسد . ولن يوجد الجسد ــ ومن ثم لن يوجد العقل ــ ما لم يتحقق الوفاء بحاجات الجسد . ولا يعنى ذلك أن غذاء العقل ــ (أو غذاء الروح) ــ هو الطعام والشراب والجنس ، وإنما يعنى أن الإنسان يفقد وجوده ومن ثم عقله (وروحه) ، ما لم يحصل الجسد على حاجاته من طعام وشراب وجنس ... لقد ضربنا مثلاً لذلك الإنسان داخل مركبة الفضاء ، وقلنا إنه لا يستطيع أن يخرج إلى الفضاء (دون رداء مادى خاص) وإلا فقد حياته . ومعنى ذلك أن بقاء الإنسان على قيد الحياة رهن بتوازن المركبة الفضائية ، فإذا اختل توازن المركبة بسبب إهمال الصيانة أو الإصلاح أو نتيجة لعدم تزويدها بحاجاتها من القوة الدافعة ، فإن الإنسان ــ بداخلها ــ يفقد حياته . ولا يعنى ذلك ــ كما أوضحنا سابقاً ــ أن الإنسان نتاج للمركبة أو انبثاق عنها ، كما لايعنى أن حاجات الإنسان داخل المركبة (من طعام وشراب ... إلخ) هى ذاتها حاجات المركبة .

وإذا كانت للجسد حاجاته بهذا المعنى ، فإن لكل من العقل والروح حاجات بنفس المعنى . ويفقد الإنسان إنسانيته مالم يتحقق له الوفاء بغذاء العقل وغذاء الروح .... يحتاج الجسد إلى غذاء ، وغذاء الجسد الطعام والشراب والجنس . ويحتاج العقل إلى غذاء ، وغذاء العقل المعرفة والحكمة والخبرة ، وتحتاج الروح إلى غذاء ، وغذاء الروح سباحتها فى ملكوت السماوات وارتفاعاتها إلى عالم البقاء والخلود . ولن يتوازن سلوك الإنسان إلا بالوفاء بحاجات الجسد والعقل والروح معاً ؛ لأنه لايكون إنسانا بجسده فقط أو بعقله فقط أو بروحه فقط ولكن كيف يتحقق

الوفاء بحاجات الإنسان ؟

إن الإنسان يتعامل مع ذاته ويتعامل مع غيره ويتعامل مع البيئة ـــ أى الكون فى مجموعه ـــ ومن خلال هذا التعامل يتحقق له الوفاء بحاجاته أى حاجات جسده وحاجات عقله وحاجات روحه . وقد رأينا كيف أن الظواهر الفلكية والفيزيقية والعضوية ، أى الظواهر اللاإرادية تتضافر ـــ بحكم تركيبها البنائى المتناسق وحركتها المتوافقة ـــ على تزويد الإنسان بمقومات حياته من هواء وماء وضوء وحرارة وثروات مائية ونباتية وحيوانية ومعدنية وطاقة ، هذه المقومات ـــ التى يحتاج إليها الجسد ـــ تتهيأ للإنسان بفعل القوانين والسنن الموضوعية التى تسرى على الظواهر اللاإرادية . يتهيأ له ذلك دون أى تدخل إرادى من جانبه ؛ لأنه عاجز تماما عن أن يخلق ماءً أو هواءً أو شمساً أو أرضاً . إن الدور الاقتصادى الذى يقوم به الإنسان فى عملية الوفاء بحاجاته المادية دور ضئيل للغاية ، إذا قورن بما تقوم به الظواهر اللاإرادية من عمليات دقيقة ومعقدة ، من أجل تهيئة مقومات فى كل لحظة ـــ وبمعدلات معينة . إن كل مايؤديه الإنسان فى مجالات الوفاء بحاجاته المادية لايخرج عن مجرد إعداد الموارد ، التى تهيئها له الظواهر اللاإرادية وتهيئتها على النحو الذى يجعلها صالحة لكى ينتفع بها ، بل إن الإنسان ينتفع ببعض الموارد الطبيعية انتفاعا مباشرا دون أن يجرى عليها أية عمليات إضافية ، مثل الأوكسجين الذى يحصل عليه من الهواء الجوى فى عملية التنفس ، ومثل الماء الذى يشربه والثمار والثروات الطبيعية .

وفى هذا النطاق الضيق لنشاط الإنسان ـــ أى سلوكه الإرادى ـــ فى مجال الوفاء بحاجاته المادية ، يأخذ ـــ أو ينبغى له أن يأخذ ـــ فى اعتباره القوانين والسنن الموضوعية ، التى تخضع لها الظواهر اللاإرادية خضوعا حتميا . فهذه القوانين والسنن هى معطيات (Givens) أو محددات (Constraints) فى مواجهة الإنسان وسلوكه الإرادى . ويترتب على ذلك نتائج منها :

(١) أن على الإنسان أن يوائم حركته الإرادية ، بحيث لاتتعارض مع القوانين والسنن الموضوعية التى تخضع لها الظواهر اللاإرادية ، خضوعا حتميا ، إذ لاتستطيع تلك الظواهر أن تخرج عن نطاق عمل القوانين والسنن التى توجه حركتها نحو مسار توازنى محدد . بينما يستطيع الإنسان ـــ بإرادته ـــ أن يسلك سلوكا (إراديا) ينسجم مع الحركة المتوازنة للظواهر اللاإرادية .

(٢) وكما (يستطيع) الإنسان ذلك ، فإنه (يستطيع) أيضا أن يعاكس عمل القوانين والسنن ، التى تسرى على الظواهر اللاإرادية . فالإنسان — كما أوضحنا — كائن إرادى عاقل مدرك يملك القدرة على أن يفعل أو أن لايفعل فى مجالات عمل الإرادة ، وذلك على التفصيل الآتى :

أ — هناك مجالات لايستطيع الإنسان أن يفعل شيئاً فيها . فمثلاً لايستطيع الإنسان أن يغير اتجاه حركة الأرض ، ولايستطيع أن يأتى بالشمس من المغرب ، ولا يستطيع أن يخلق ماءً ولا هواءً . والإنسان لايستطيع أن يتحكم فى نبضات قلبه أو فى دورته الدموية .

ب — ولكنه يستطيع أن يتجاهل قوانين التربة الزراعية وخصائصها ، أو يتجاهل مقتضيات توازن البيئة ، أو يتجاهل حاجات توازنه البيولوجى ، ولكن — مع ذلك — لايستطيع الإنسان أن يستمر فى تجاهله هذا طويلا ؛ لأن معاكسة السلوك الإرادى للحركة المتوازنة للظواهر اللاإرادية يؤدى — كما رأينا — إلى اختلال تلك الحركة ، ومايترتب على ذلك من نتائج سلبية تؤثر فى حياة الإنسان نفسه ، مثل تصحر الأرض الزراعية ، وتلوث البيئة واختلال التوازن البيولوجى .

(٣) إن الحركة المتوازنة للظواهر اللاإرادية تسفر — كما بينا — عن توفير مقومات الحياة وعوامل البقاء ، ولايستطيع الإنسان — بكل طاقاته الجسمية وإمكانياته العلمية والتكنولوجيا — أن (يخلق) شيئا منها . وهكذا يكون على الإنسان أن يوائم بين حاجاته وبين الموارد التى تتيحها له الظواهر اللاإرادية ، إذ ليس من الممكن أن تنتج تلك الظواهر — من هذه الموارد — كل مايريده الإنسان لإشباع حاجاته دون ضابط . إن الظواهر الفلكية والفيزيقية والعضوية فى الكون ، ظواهر لا إرادية ، تخضع — كما أوضحنا — لقوانين وسنن موضوعية (إلهٰية) توجه حركتها نحو مسار توازنى ، وتتضافر فيما بينها (لكى) تهيىء للإنسان مقومات حياته وعوامل بقائه . والإنسان لايستطيع بإرادته أن يفرض عليها مزيدا من العطاء إلا فى حدود . ولذلك يكون عليه — هو — أن يوائم بين حاجاته وبين ما تتيحه له تلك الظواهر من موارد ، أو بمعنى آخر ، يكون عليه أن يوائم بين معدلات تزايد حاجاته ، ومعدلات نمو الموارد الطبيعية التى لايخلقها ، ولايملك إلا أن يحسن استخدامها للإفادة منها .

هكذا يتعامل الإنسان مع البيئة — أى الكون فى مجموعه — من أجل الوفاء

بحاجات الجسد المادية . ولعلنا قد لاحظنا أن التعامل على هذا النحو الذى شرحنا معالمه الرئيسية حالا ، إنما ينطوى على نمط معين لتعامل الإنسان مع ذاته ونمط معين لتعامله مع غيره . فقد رأينا أن عليه أن يوائم بين حاجاته المادية وبين المتاح من الموارد الطبيعية ، أى أن عليه أن يضبط نوازع جسده وأن يقاوم ضغوطه . وهذا هو دور العقل ، ودور الروح أيضا ، يستخدم المرء عقله لكى يتعرف على أفضل — أى أمثل — السبل التى يحقق بها الوفاء بحاجاته ، وتعمل الروح على أن ترتفع بالإنسان إلى آفاق أسمى من مجرد عملية الإشباع حتى لاتعبث به حاجات الجسد وطغوطه ، فيتغافل عن الهدف النهائى من خلقه ، ويوجه طاقاته كلها من أجل تحقيق اللذة والمتعة الحسية وبذلك يفقد إنسانيته . وسنرى بعد قليل أن الإنسان لم يخلق لذلك ، وإنما خلق من أجل هدف أسمى هو عبادة الله .

ولكى يحقق الإنسان الوفاء بحاجاته المادية ، يتعامل مع غيره من أفراد المجتمع ... يتبادل معهم المنافع ويتعاون مع غيره فى عملية الإفادة من الموارد الطبيعية ويسهم فى الوفاء بحاجات الآخرين ممن لايقدرون على العمل والإنتاج ، كى تستمر حياة هؤلاء وبالتالى كى تستمر حياته هو .

وهكذا ، يتحقق الوفاء بحاجات الجسد من خلال تعامل الإنسان مع ذاته ومع غيره ومع البيئة . ولعلنا نلحظ أن الإنسان بهذا التعامل الثلاثى يحقق أيضا حاجات العقل وحاجات الروح .... من خلال التعامل مع البيئة ، يحصل الإنسان على المعرفة العلمية فى مجالات العلوم الطبيعية ، كالفلك والرياضيات والفيزياء والكيمياء والجيولوجيا والنبات والحيوان والفسيولوجيا ، كما تتطور خبراته التكنولوجية ، ومن خلال التعامل مع غيره — أى فى مجال علاقاته الإنسانية (الاقتصادية والاجتماعية) — يحصل الإنسان على الخبرات الحسية ، من سمعية وبصرية ، وعلى الأفكار وأنماط السلوك المختلفة ، للآباء والأقارب والشخصيات التى يواجهها ويتفاعل معها ، كما يتأثر بالنظم والقوانين والأحداث التى يعايشها ، ويتلقى الإنسان كذلك المعرفة والمعلومات والخبرات التى تتراكم عبر الأجيال السابقة كميراث ثقافى . كل ذلك . يكوّن عناصر الثقافة الأولية . ونسميها كذلك ؛ لأن الإنسان يتلقاها من خارجه ... إن ما يتلقاه الإنسان من معلومات وأفكار ومعرفة علمية وعادات وسلوكيات وخبرات وغير ذلك من عناصر الثقافة الأولية ، يتعرض فى داخل الإنسان

لعمليات تمحيص ومراجعة واستيعاب ، فيرفض أو يتقبل أو يعدل ويطور من عناصرها ، فيتكون بذلك مانسميه بالثقافة الذاتية .. هذه الثقافة ذاتية لأن الأفراد يتباينون فى ثقافاتهم الأولية بتباين مصادرها ، وأيضا بمدى تقبلهم أو رفضهم لبعض عناصرها . وهذه الثقافة الذاتية هى التى تشكل مشاعر الإنسان وعواطفه واستجاباته وسلوكياته .

إن المرء لاتتشكل عواطفه ومشاعره واستجاباته وسلوكياته بما يتلقاه من خارجه وإنما تتشكل بتفاعل مايتلقاه مع ذاته .. قد يتقبل (أ) فكرة معينة ، بينما يرفض (ب) نفس الفكرة . وقد يفهم (أ) شيئا على نحو معين ، بينما يفهم (ب) نفس الشىء على نحو آخر . ومع ذلك ، يوجد دائما قدر أو جانب مشترك من الثقافة ، تتفق عليه جماعة معينة كاللغة والعادات والتقاليد .

على أن مايعنينا الآن هو أن نتعرف على الدوافع ، أو القوى الكامنة ــ فى ذات الإنسان ــ التى تدفعه إلى تقبل أو رفض أو تطوير الثقافة الأولية وتشكيل ثقافته الذاتية ... إن الإنسان ــ من خلال تعامله مع ذاته ومع غيره ومع الكون فى مجموعه ــ يتولد لديه تصور معين للوجود فى شموله ، ولمصدر هذا الوجود وطبيعة علاقته بهذا المصدر وللهدف من وجوده ، أى وجود الإنسان ... وقد يهتدى الإنسان بذلك إلى الحقيقة الأولية التى تقرر أن لهذا الكون إلها واحدا خالقا مهيمنا على كل خلقه ، وقد لايهتدى إلى تلك الحقيقة . ولقد رأينا كيف أن الاستقراء المباشر للكون بما فيه من ظواهر لا إرادية يفضى إلى الحقيقة الأولية ، ومع ذلك ، رأينا أن كُتَّابا ، أمثال (لوريا وشوبنهور وماركس وداروين) لم يهتدوا إليها فأنكروها تماما . وهناك كُتَّاب انحرفت بهم تصوراتهم للحقيقة الأولية . رأينا مثلا كيف زعم (بوهم) أن الله أساس التناقض فى الكون ، وأن الوحدة الإلهية تتكون من عنصرين متضادين . وانحرف اليهود والنصارى عن التوحيد ، فذهب اليهود إلى أن الله (سبحانه وتعالى عما يصفون) شرير ، وذهبت المسيحية إلى أن الله (سبحانه وتعالى عما يشركون) واحد من ثلاثة .

إن إنكار الحقيقة الأولية أو الانحراف بها لاترجع أسبابه إلى صعوبة الاهتداء إليها . فقد رأينا أن مجرد التأمل فى الكون بما فيه من ظواهر ، والتأمل فى الذات

الإنسانية يُفضى إلى معرفة وجود الله الواحد الخالق ، ولكن ـــ مع ذلك ـــ فإن هناك قوى أو دوافع تحول بين المرء وبين الاعتقاد فى هذا الوجود . يقول الله تعالى : ﴿ **ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله** ﴾(٢) . ويقول سبحانه : ﴿ **ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله فأنى يؤفكون** ﴾(٣). فالاهتداء إلى الحقيقة الأولية ، أمر فطرى ، ولكن لماذا لايؤمن بها الإنسان ؟ يقول جل شأنه : ﴿ **من يشأ الله يضْلِلْهُ ومن يشأ يجعلْهُ على صراط مستقيم** ﴾(٤) . ويقول سبحانه : ﴿ **من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا** ﴾(٥) .

وقد يكون من المناسب فى هذه المرحلة من مناقشتنا لحقيقة الإنسان أن نتحدث عن النفس الإنسانية . لقد حاول الكتاب التعرف على النفس الإنسانية وتعددت الآراء وتباينت وجهات النظر ، وذهب الكتاب مذاهب شتى ... وقد يمكن القول بأن النفس جماع أو نتاج مكونات الإنسان : (الجسد والعقل والروح) بكل ماينطوى عليه هذا الكل المتكامل من مشاعر وعواطف وأحاسيس ، أى أنَّ الإنسان فى مجموعه أو ذات الإنسان . ومع ذلك ، يكفينا ما ذكره القرآن الكريم عن النفس . فقد تعرض فى كثير من آياته للنفس البشرية . من ذلك قوله تعالى : ﴿ **ونفس وما سواها . فألهمها فجورها وتقواها** ﴾(٦) . وقوله : ﴿ **ياأيتها النفس المطمئنة . ارجعى إلى ربك راضية مرضية** ﴾(٧) . ويقول سبحانه : ﴿ **ولا أقسم بالنفس اللوامة** ﴾(٨) . ويقول تعالى أيضا : ﴿ **وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى . فإن الجنة هى المأوى** ﴾(٩) . وقوله جل شأنه : ﴿ **ووفيت كل نفس ما كسبت وهم لايظلمون** ﴾(١٠) . ووُصفت النفس بأنها أمارة بالسوء ...

النفس الإنسانية إذن ، إما أن تكون خيِّرة تميل إلى الخير وتهتدى إلى الحق ، وإما أن تكون شريرة تميل إلى الشر ولا تهتدى إلى الحق . ويؤكد القرآن الكريم ذلك فى قوله تعالى : ﴿ **واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه** ﴾(١١) وقوله سبحانه : ﴿ **واذكروا نعمة الله عليم إذ كنتم أعداءً فألف بين قلوبكم** ﴾(١٢) وقوله عز وجل : ﴿ **فأنزل الله**

---

(٢) لقمان (٢٥) . (٣) الزخرف (٨٧) . (٤) الأنعام (٣٩) .
(٥) الكهف (١٧) . (٦) الشمس (٧ ، ٨) . (٧) الفجر (٢٧ ، ٢٨) .
(٨) القيامة (٢) . (٩) النازعات (٤٠ ، ٤١) . (١٠) آل عمران (٢٥) .
(١١) الأنفال (٢٤) . (١٢) ال عمران (١٠٣) .

سكينته على رسوله وعلى المؤمنين ﴾[13]. فالإرادة الإنسانية قاصرة عن بلوغ الهدف إلا بمشيئة الله وإرادته . ومن هنا يحتاج المرء إلى هداية ، ويحتاج دائما إلى ربه .. إنه مخلوق من مخلوقات الله ، تكفل الله برزقه وميزه على سائر خلقه بنعمة العقل والإرادة ، ونفخ فيه من روحه ، واستخلفه فى الأرض من أجل إصلاحها وعمارتها ، وذلك فى إطار الهدف النهائى من خلقه وهو عبادته سبحانه . يقول المولى عز وجل : ﴿ **وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون . ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون . إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين** ﴾[14] . ولقد رأينا كيف يتضاءل دور الإنسان فى مجالات الاقتصاد ؛ إذا قورن بالدور الذى تقوم به الظواهر اللاإرادية ... فهى (تنتج) كافة مايحتاج إليه الإنسان من مقومات الحياة وعوامل البقاء ، دون تدخل من جانبه ، لقد شاءت إرادة الله ـــ جلت حكمته ـــ ألا يشغل الإنسان نفسه بعملية (إنتاج) مقومات حياته وعوامل بقائه . ونرى ـــ والله وحده أعلم ـــ أن الحكمة الكامنة فى ذلك تتلخص فيما يلى :

أولا : إن الظواهر الفلكية والفيزيقية والعضوية ظواهر (لا إرادية) ، فهى تخضع لقوانين الله وسننه التى أجراها عليها خضوعا حتميا لا اختيار لها فيه . بينما الإنسان ـــ بحكم تكوينه ـــ قد يلتزم بقواعد موضوعية للسلوك وقد لايلتزم ، فإذا كان عليه أن (ينتج) مقومات حياته ، فلن يكون هناك مايضمن أن يحقق هذا الهدف .

ثانيا : إن عمليات إنتاج مقومات الحياة عمليات دقيقة جداً ، ومعقدة للغاية ولا يستطيع الإنسان ـــ بقدراته الجسمية والعقلية ـــ أن يقوم بها . أو أن يوفرها فى كل لحظة بالقدر ـــ من حيث الكم والكيف ـــ الذى تدعو إليه الحاجات الإنسانية .

ثالثا : إن للإنسان هدفا أسمى من مجرد إنتاج الموارد وإشباع الحاجات المادية . وهذا الهدف ـــ كما ذكرنا ـــ هو إصلاح الأرض وعمارتها فى إطار الهدف النهائى من خلقه وهو عبادة الله . وعملية الإصلاح والعمارة ليست مقصورة على الجانب الاقتصادى من حياة الإنسان ، وإنما تشمل أيضا الجوانب الاجتماعية والثقافية .

---

(١٣) الفتح (٢٦) .

(١٤) الذاريات (٥٦ ـــ ٥٨) .

وينجح الإنسان ــ الفرد والمجموع ــ فى مهمته الاستخلافية ، بالتزام منهج الله والتقيد بشريعته ، لأنه بذلك يتحقق الانسجام بين حركته الإرادية والحركة المتوازنة فى الكون ، وعندئذ تتحقق حضارة الإنسان .

لقد ذكرنا أن الإنسان يحتاج إلى هداية . ويقول الراغب الأصفهانى : « اعلم أن العقل لن يهتدى إلا بالشرع ، والشرع لايتبين إلا بالعقل . فالعقل كالأساس والشرع كالبناء ، ولن يغنى الأساس مالم يكن بناء ، ولن يثبت بناء مالم يكن أساس »[١٥] .

ويقال : الشرع عقل من خارج ، والعقل شرع من داخل ، وهما متعاضدان بل متحدان . ولكون الشرع عقلا من خارج سلب الله تعالى اسم العقل من الكافر . يقول تعالى : ﴿ **صم بكم عمى فهم لايعقلون** ﴾[١٦] . ولكون العقل شرعا من داخل قال تعالى فى وصف العقل : ﴿ **فطرة الله التى فطر الناس عليها لاتبديل لخلق الله ذلك الدين القيم** ﴾[١٧] .

عرضنا فيما سبق من مناقشات ، حقيقة الإنسان .. كيان معقد غاية التعقيد ، تتداخل فيه الإرادة مع اللاإرادة ، وفيه أيضا ماهو فوق الإرادة ، فالإنسان كائن حى ــ أو هو نسق عضوى ــ يرتبط بالأرض عن طريق الجسد ، وهو فوق ذلك ، كائن إرادى عاقل ، وهو بذلك يفهم داته . ويتصل الإنسان بعالم ماوراء الكون والمادة عن طريق الروح ، التى هى نفخة من روح الله ، الذى خلقه فسواه فعدله . والإنسان ليس مزجا من جسد وعقل وروح ، وإنما هو مركب من هذه المكونات جميعا . إنه وحدة واحدة لا تتجزأ ، وكل متكامل ، فلا ينفصل العقل عن الجسد ولا يوجد الجسد بلا روح .

ويتفاعل هذا الكل ــ أو هذا الكيان ــ مع ذاته أو نفسه ، ويتفاعل مع غيره من كيانات إنسانية ، كما يتفاعل مع البيئة ، أو الكون فى مجموعه . وهو بهذا التفاعل والتعامل يحصل على حاجاته ، حاجات الجسد وحاجات العقل وحاجات

---

(١٥) قواعد الأحكام جـ (١) ص (٥) . مشار إليه فى : تفسير الآيات الكونية : للدكتور عبد الله شحاته . دار الاعتصام ١٩٨٠ . ص (٢٦) .

(١٦) البقرة (١٧١) .

(١٧) الروم (٣٠) .

الـروح . يحصل على حاجـات الجسد من خارجـه ، إذ يهيـىء له الكـون بما فيـه من ظواهـر فلكيـة وفيزيقيـة وعضويـة كافـة مقومـات حياتـه . ويهيـىء له التعامـل مع غيره تبـادل المنافع على النحو الذى ييسِّر له عملية الوفاء بحاجات الجسد . ويقوم الجانب العضوى فى الإنسان بكافة العمليات اللاإرادية التى يتحقق بها الإفادة من مقومات الحياة

من خلال التعامـل مع ذاتـه ومـع غيره ومـع الكـون ، يتحقـق للإنسان أيضا الوفـاء بحاجـات عقلـه وحاجـات روحـه . ويحصل على المعرفـة العلميـة والتكنولوجيـة والأفكار والخيرات ، التى تغذى العقل وتنميه ، وتسمو روحه فى ملكـوت السمـاوات وما وراء الكون والمادة ، فيتصل هذا الكيان الإنسانى بعالم البقاء والخلود . ومن خلال هذا التعامل مع الذات ومع الغير ومـع الكـون تتولـد المشاعـر والعواطـف ، وتتشكـل الاستجابات والسلوكيات فى نفس الإنسان .

وعرفنا الفرق بين الثقافة الأولية التى يتلقاها الإنسان من خارجه ، والثقافة الذاتية التى تستقر فى ذاته ، بعد أن تجرى على عناصر الثقافة الأولية من التعديل والتطوير مايلائم عقيدة الإنسان . ونعنى بذلك ، العقيدة الدينية التى تتناول تصور الإنسان للوجود ومصدر الوجود ، وعلاقته بهذا المصدر وللهدف من وجوده هو — أى وجود الإنسان ذاته — . والعقيدة إما عقيدة التوحيد ، أو عقائد وثنية أو إلحاد وإنكار تام لوجود الله الواحد الخالق لكل شىء ... وهكذا تختلف الثقافة الذاتية باختلاف العقائد .

وعقيدة التوحيد — بمقتضياتها الإيمانية والتعبدية والتكاملية والأخلاقية وهيمنتها على كافة جوانب السلوك الإنسانى ، فى المجالات الاقتصادية والاجتماعية والسيكولوجية ، تؤثر تأثيرا فعالا فى حياة الإنسان — الفـرد والمجمـوع — على النحـو الذى يحقق له التوازن الحضارى . وأما العقائد الوثنية فإنها تفرز ثقافة ذاتية لاتسمح بهذا التوازن . ونناقش ذلك بشىء من التفصيل الآن — بعون الله تعالى .

الفصل الحادى عشر

التوازن الحضارى

انتهينا إلى أن الإنسان (الفرد والمجموع) ، انطلاقا من الحقيقة الأولية اليقينية ـــ التى تقرر أن لهذا الكون إلها واحدا خالقا قادرا ـــ يتوازن سلوكه الإرادى ، عندما يلتزم بقواعد وأحكام الإسلام ، وقلنا : إن هذا الالتزام يسفر عن انسجام الحركة الإرادية مع الحركة اللاإرادية المتوازنة فى الكون ؛ لأن مصدر القوانين التى تخضع لها الحركة اللاإرادية ومصدر القواعد التى تلتزم بها الحركة الإرادية واحد ، وهو الله ، ومن ثم لايمكن أن يقع التناقض بين الحركة اللاإرادية والحركة الإرادية .

لقد ضربنا مثلا يوضح العلاقة بين عالم الإرادة وعالم اللاإرادة ، أو بين الوعى والمادة ، فقلنا : إن الإنسان لايستطيع أن ينطلق إلى الفضاء الخارجى إلا داخل مركبة تحميه من الأشعة الكونية ، وتهيىء له ـــ بداخلها ـــ الضغط الجوى وسائر الظروف الأخرى الملائمة لاستمرار حياته . وانتهينا من ذلك إلى أن وجود الإنسان ـــ بما فيه من وعى ينتمى إلى عالم الإرادة ـــ داخل المركبة لايعنى أبدا أن هذا الإنسان ـــ أو وعيه ـــ نتاج للمركبة ـــ أى للمادة ـــ أو انبثاق عنها ، كما تزعم المادية والداروينية ... والآن نفترض وجود جماعة أو مجموعة من الأفراد ـــ أى فريق من رواد الفضاء ـــ داخل المركبة الفضائية ، يرتدى كل منهم رداءً خاصا . إن لهذا الفريق هدفا محددا يسعى نحو تحقيقه ، ولكى ينجح هؤلاء فى مهمتهم ، يجب أن تتوازن المركبة التى يوجدون بداخلها ؛ لأن اختلال هذا التوازن يؤدى إلى هلاكهم جميعا وعدم تحقق الهدف . ولكى يتحقق توازن المركبة لابد أن تخضع للتوجيه الصادر من مركز الفضاء على سطح الأرض ، ولابد أيضا أن يتعامل فريق الفضاء ـــ فى مجموعه ـــ مع المركبة على النحو الذى لايحدث اختلالها من الداخل ، أى أن هذا الفريق عليه أن يلتزم فى سلوكه الإرادى قواعد موضوعية ، تنسجم مع القواعد التى توجه حركة المركبة من خارجها نحو مسارها التوازنى .

إن الكون الذى يحتوى الإنسان تمثله المركبة الفضائية . والجسد (المادى ــ العضوى) يمثله الرداء الخاص الذى يرتديه رائد الفضاء . والإنسان المجموع ، أى أفراد الجنس البشرى هم فريق رواد الفضاء ... يتوازن الكون بخضوعه للقوانين والسنن الإلهية ويتوازن الرداء الخاص ــ أى النسق المادى ــ العضوى للإنسان ، بخضوعه أيضا للقوانين والسنن الإلهية ، ويتوازن الإنسان ــ المجموع ــ بالالتزام بالقواعد الموضوعية للسلوك الإرادى التى تقررها شريعة الله . هكذا يتحقق توازن الإنسان ، الفرد والمجموع . وهذا مانعنيه بالتوازن الحضارى .

فى الفصل التاسع من دراستنا الحالية تحدثنا عن الكون فى مجموعه وعن توازنه ، وتحدثنا أيضا عن الظواهر الفلكية والفيزيقية والعضوية ــ أى الظواهر اللاإرادية وعن توازنها ، وتحدثنا كذلك عن الجانب العضوى (النسق البيولوجى) للإنسان ، وعن القوانين التى يخضع لها ، مثل قانون التكامل البنائى الوظيفى ، وقانون الحركة وقانون الاحتياج وقانون التبادل ، وعن المقاومة الذاتية ، وعرفنا كيف أنها تعمل على توازن النسق البيولوجى . وقد انتهينا من ذلك إلى الإقرار بالحقيقة الأولية التى تؤكد أن للكون إلها واحدا خالقا مهيمنا على كل خلقه .

وتناقش فى الفصل الحالى موضوع توازن الإنسان ــ الفرد والمجموع ــ فى حركته الإرادية ، بعد أن تعرفنا على حقيقة هذا الإنسان بالفصل السابق . أى أننا نبحث الآن توازن سلوك الإنسان ــ الفرد والمجموع ــ فى مجالات النشاط الاقتصادى والاجتماعى . وفى دراستنا الحالية للتوازن الإرادى (الحضارى) نبحث القواعد الموضوعية ، التى (ينبغى) أن يلتزم بها الإنسان ــ الفرد والمجموع ــ كى يتحقق توازن حركته الإرادية انسجاما مع الحركة الكلية المتوازنة للكون فى مجموعه وجزئياته . وسنرى ــ بإذن الله ــ أن هذه القواعد الموضوعية للسلوك الإرادى المتوازن لاتخرج عن قواعد وأحكام الإسلام ، ويكون ذلك إثباتا للفرض الذى نوهنا إليه أكثر من مرة .

إن الإنسان ــ الفرد ــ عضو فى مجتمعه ، يقوم بأداء وظيفة معينة فى إطار التوازن الكلى للمجتمع . وهذه الوظيفة التى يقوم بها الفرد تتلاءم ــ أو ينبغى أن تتلاءم ــ وقدراته الجسمية والعقلية ، أى أن يكون هناك تكامل بنائى ــ وظيفى

للفرد فى إطار المجموع . لقد تحدثنا قبل ذلك (بالفصل التاسع) عن التكامل البنائى ـــ الوظيفى للعضو فى إطار النسق البيلوجى (الإنسانى) . فكل عضو من أعضاء الجسم يتلاءم تكوينه البنائى مع الوظيفة التى يقوم بها فى إطار الحركة الكلية المتوازنة للنسق . وليس معنى ذلك ، التماثل التام بين الحركة العضوية اللاإرادية داخل النسق البيولوجى والحركة الإرادية للإنسان ـــ الفرد ـــ داخل المجتمع . فالحركة العضوية تتحقق على نحو لاشعورى بغير وعى ، بينما حركة الإنسان داخل المجتمع حركة شعورية واعية . وسنناقش هذه النقطة ببعض التفصيل بعد قليل بمشيئة الله .

لقد بينا كيف أن الإنسان مخلوق مركب من الجسد والعقل والروح . وأنه ـــ بهذا التركيب ـــ كل متكامل ، ووحدة غير قابلة للتجزئة ، بحيث ، لا يقوم الجسد مستقلا عن العقل أو الوعى أو الشعور ، ولا يقوم مستقلا عن الروح . فإذا نظرنا إلى هذا الكل ـــ فى جانبه العضوى ـــ وجدنا أنه يتوازن من خلال التكامل البنائى ـــ الوظيفى لكل عضو من أعضائه . ويتحقق ذلك دون تدخل إرادى من جانب الوعى الذى يتجسده النسق ، وإذا نظرنا إلى الكل ـــ فى جانبه الإرادى الإدراكي ـــ فإننا نجد أنه يتوازن ـــ أو ينبغى أن يتوازن ـــ من خلال التكامل البنائى ـــ الوظيفى لكل فرد أى الإنسان ـــ الفرد أو العضو فى الجماعة ـــ ويتحقق ذلك بوعى وإدراك ، أى أن الإنسان يستهدف ـــ إراديا ـــ تحقيق التكامل البنائى ـــ الوظيفى فى حياته الاجتماعية والاقتصادية . ولكن هل هناك علاقة مابين التكامل العضوى والتكامل الإرادى ؟ ونجيب على ذلك بأن التكامل العضوى اللاإرادى هو الشرط الضرورى للتكامل الإرادى ، لأن الإنسان ـــ الفرد ـــ لايستطيع أن يؤدى دوره فى المجتمع إلا إذا تحقق توازنه العضوى البيولوجى . ومن ناحية أخرى ، فإن التكامل الإرادى هو الهدف الذى (يستهدفه) التكامل العضوى . لقد علمنا أن قانون التكامل العضوى ـــ مثل كل القوانين والسنن ـــ قانون إلهى ، يستهدف التوازن ، أى توازن العضو وتوازن النسق فى مجموعه .

وبينا أننا نستطيع أن نفهم الظاهرة اللاإرادية بمبدأ التوازن ، فالسحاب يتحول إلى مطر (لكى) ينبت الزرع غذاءً للإنسان . والحيوان يأكل العشب (لكى) يقدم الغذاء للإنسان ، فيزوده بالمواد البروتينية والدهنية والكربوهيدراتية والأملاح

والفيتامينات . هكذا خلق الله الظواهر اللاإرادية ، وأجرى عليها القوانين والسنن التى توجه حركتها نحو المسار التوازنى ، الذى يسفر فى النهاية عن توفر كافة مقومات الحياة للإنسان . وكل ذلك يتحقق بإرادة الله وقدره . لقد خلق الله كل شىء فى الكون بقدر . والقدر يتناول الكم كما يتناول الكيف ، فيشير بذلك إلى التكوين البنائى وإلى الوظيفة ــ أيضا ــ ... لم يخلق الله شيئا عبثا . فالتكوين البنائى يتكامل مع الدور الذى خلق الشىء من أجله . وهكذا يستهدف التكامل البنائى ــ الوظيفى تحقيق غاية ، هذه الغاية ــ فى الظواهر اللاإرادية ــ هى تحقيق التوازن الذى يسفر عن توفير مقومات الحياة وعوامل البقاء . وفى الظاهرة الإرادية تحقيق توازنها ، أى توازن السلوك الإرادى ، الذى يتحقق من خلال التكامل الإرادى . وإذا كان التكامل العضوى يتحقق بفعل القوانين والسنن الإلهية فإن التكامل الإرادى يتحقق كذلك بالتزام القواعد والأحكام الإلهية ؛ لكى يتحقق الانسجام بين الحركة الإرادية والحركة اللاإرادية فى الكون ، فيتحقق بذلك المبدأ أو القانون العام وهو التوازن الشامل الذى يقوم عليه الكون وتقوم عليه الحياة .

عندما يتحقق التكامل العضوى ــ أى للنسق اللاإرادى ــ يظل هناك شىء كامن فى هذا النسق لم يؤد وظيفته أى دوره بعد . وهذا الشىء هو الوعى . وهنا يبدأ هذا الدور للوعى ، بالحركة الإرادية الواعية التى توجه حركة النسق توجيها إراديا من أجل تحقيق التكامل (الإرادى) ، فيتحقق بذلك توازن الإنسان ــ الفرد والمجموع ــ فى كافة مجالات النشاط الإرادى ــ أى فى المجالات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والسيكولوجية .

ولعلنا نلحظ تكاملا آخر ــ أعنى التكامل العضوى ــ الإرادى . فالحركة اللاإرادية تتكامل مع الحركة الإرادية ، ولا تناقض مطلقا بين الإرادة واللاإرادة ، إلا فى حالة واحدة فقط ، هى انحراف سلوك الإنسان عن المسار التوازنى الذى ينسجم والحركة اللاإرادية ، وهذا لايقع إلا حينما يبتعد الإنسان عن منهج الله . إن التكامل العضوى يتحقق دائما بفعل القوانين والسنن الإلهية . أما التكامل الإرادى ، فقد يتحقق وقد لايتحقق ، لأن هذه هى طبيعة الإرادة ... قد يستجيب الإنسان لأوامر الله وقد لايستجيب ، فإذا استجاب لأوامره سبحانه تحقق التكامل الإرادى ، فيجنى بذلك ثمرة التكامل العضوى ويتحقق التوازن الشامل للنسق . أما إذا لم يستجب

الإنسان لأوامر الله ، فإنه يتخبط فى سلوكه الإرادى لسببين رئيسيين هما : أهواء النفس البشرية وقصور علم الإنسان . أما عن أهواء النفس ، فإنها حقيقة من الحقائق الثابتة . فقد يعرف المرء الحق ومع ذلك يتبع الهوى . إن الإنسان — كما بيّنا — مركب من كل متكامل هو الجسد والعقل والروح . وللجسد ضغوطه ونوازعه ، وللعقل شطحاته ، وللروح تهويماتها . وهكذا يحتاج الإنسان إلى هداية فى حركته الإرادية . وأما عن قصور علمه ، فهذا أمر ثابت يدل عليه أن مايصوغه الإنسان من فروض ونظريات يتعرض للتبديل والتعديل ، وقد يثبت خطؤها فتنهار ... والإنسان — الفرد — لايولد عالما ، وإنما يكتسب العلم وينمو العقل مع نموه من مرحلة الطفولة إلى الشباب فالرجولة ، ثم يخبو علمه ويضمر عقله ، عندما يرد إلى أرذل العمر . والإنسان الجنس لايكتسب العلم والمعرفة دفعة واحدة ، وإنما يتقدم علمه وتتراكم معرفته عبر الأجيال ومر السنين . ويتخبط الإنسان بين العلم والجهل ، ويتخبط بين الخير والشر ، فهو إذن يحتاج إلى هداية . يحتاج الإنسان إلى خالقه دائما .

نعود إلى مركبة الفضاء التى توجه حركتها من مركز إطلاق الصواريخ على سطح الأرض . فالإنسان بداخلها — بما ركب فيه من وعى — لايتحكم بإرادته فى مسارات المركبة . وهو مزود بتعليمات دقيقة لما يجب أن يفعله ومالا يجب أن يفعله . فإذا انصاع إلى تلك التعليمات ونفذها بدقة تحقق توازنه وتوازن المركبة . على أن الأمر كله يؤول إلى مركز التوجيه خارج المركبة . وبالمثل ، يتوازن الإنسان فى جانبه العضوى بما يخضع له — جبريا — هذا الجانب من قوانين وسنن إلهية، ويتوازن فى جانبه الإرادى الإدراكى بالانصياع — اختيارا — لأوامر الله ونواهيه — وهكذا يتحقق توازن الإنسان — الفرد والمجموع — عضويا وإراديا ، أو بتعبير آخر يتحقق توازنه البيولوجى والحضارى .

للإسلام مفهومه الوسط للحرية ، فالحرية لاتعنى الفوضوية والانفلات ، وهى أيضا ليست مقيدة . إن للحرية فى الإسلام ضوابط ، فهى إذن حرية منضبطة ، فالفرد عضو فى جماعة ، ولكى يتوازن الفرد فى إطار توازن المجموع ، لابد أن تكون له حرية الحركة (فى مجالات الإرادة) ، بالقدر الضرورى الذى يتيح له القيام بدوره — أى وظيفته — لكى يتحقق توازنه هو ، وتوازن المجموع أيضا . ولقد رأينا ، فى

الفصل التاسع ، كيف أن قانون التكامل البنائى ـــ الوظيفـــى يفضى إلى هذا المفهوم الانضباطى لحركة العضو . وقلنا : إننا نستنتج من هذا التكامل البنائى ـــ الوظيفى ، انتفاء الحركة العشوائية الفوضوية ، لأنها تسفر عن اختلال توازن النسق ، وأن هذا التكامل ينفى أيضا تقييد حركة العضو ؛ لأن القيد يمنعه عن أداء دوره ، الموكول إليه . فالحرية إذن مكفولة بالقدر الذى يحتاج إليه العضو فى أداء مهمته .

يدعو الإسلام إلى الخير وإلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . يقول تعالى : ﴿ **ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون** ﴾(١) . ويملك الإسلام من وسائل الزجر والردع ـــ كالقصاص والحدود والتعزير ـــ مايحمى الإنسان ـــ الفرد والمجموع ـــ من نزعات النفس ، ويصحح انحرافات السلوك الإرادى . وكما أودع الله فى الأنساق الفلكية والفيزيقية والعضوية ، قوى كامنة للمقاومة الذاتية تستهدف مقاومة الصدمات الاختلالية الطارئة ، كذلك فقد أودع الله فى الإنسان ـــ من حيث كونه كائنا إراديا عاقلا ـــ قوى فطرية لمقاومة انحرافات السلوك الإرادى . وهذه القوى ينميها ويزكيها الإيمان ، ويحميها ويدعمها النظام الاجتماعى ، الذى يستمد مقوماته من الإسلام .

لا يذيب الإسلام الفرد فى المجموع على نحو ما تفعله الأنظمة الاشتراكية ، ولا يُغلِّبُ الإسلام مصلحة الفرد على مصلحة المجمـــوع ، كما تفعـــل الأنظمـــة الرأسمالية . إن النظرة الإسلامية إلى العلاقة بين الفرد والمجموع نظرة علمية موضوعية . فهى ليست علاقة صراع أو عداء ، ولا تناقض بين مصلحة الفرد ومصلحة المجموع ، إنها علاقة توازنية تقوم على أساس التكامل والاحتياج والتبادل .... يحتاج الفرد إلى المجموع لأن حياة الفرد فى جماعة أدعى إلى تحقيق توازنه البيولوجى والحضارى ، ولأن « إنسانية » الإنسان لاتتحقق إلا فى إطار الجماعة ، ويحتاج المجموع إلى الفرد ؛ لأن المجموع لا وجود له إلا بأفراده . والفرد لا يتوازن إلا فى إطار توازن المجموع ، ولا يتوازن المجموع إلا بتوازن أفراده .

إن العضو فى النسق البيولوجى لايفقد ذاتيته ، إلا إذا انفصل عن النسق ، ويفقد النسق توازنه إذا اختل توازن العضو ، وهذا يصدق أيضا على المجتمع الإنسانى

---

(١) آل عمران (١٠٤) .

الذى يتكون من مجموعة أفراد . إن المسلم للمسلم ، كالبنيان يشد بعضه بعضاً . وإذا اشتكى منه عضو ، تداعت له سائر الأعضاء بالحمى والسهر . وهذا معنى حديث رسول الله ﷺ .

يتبادل أفراد المجتمع المنافع ، وقد يجرى التبادل على أساس التعادل والتساوى المطلق بين المنافع ؛ عندما يكون التبادل بين أفراد متكافئين ، كما هو الشأن فى عمليات البيع والمقايضة وفى المسئولية عن عمل الغير . وقد يجرى التبادل على أسس غير متعادلة عندما يكون التبادل بين أفراد غير متكافئين . فالأم ــ مثلا ــ تعطى طفلها ولا تأخذ منه ــ والغنى يعطى الفقير فى إطار التكافل الاجتماعى . ولقد وضع الإسلام حداً أدنى ــ بفريضة الزكاة ــ لهذا التكافل ، وحث الأغنياء على البذل والعطاء . يقول تعالى : ﴿ **ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو** ﴾ (٢) .

ومما نلفت إليه النظر ، أنه لاينبغى أن يُفهم من عرضنا السابق أننا من أنصار النظرية العضوية ، التى تنظر إلى الكائن الاجتماعى على أنه كائن عضوى(٣) . إننا نَفْصِل تماما بين العالَم العضوى ــ اللاإرادى ــ وعالم الإرادة ، أى السلوك الإرادى للإنسان . فالله تعالى قد أجرى على الظواهر البيولوجية والظواهر اللاإرادية الأخرى ، قوانين وسنن تخضع لها تلك الظواهر خضوعا حتميا ، بلا وعى أو شعور . وليس الأمر كذلك بالنسبة إلى عالم الإرادة . وضع الله تعالى للإنسان قواعد وأحكام تساعده على الحركة الإرادية المتوازنة التى تحقق له الخير فى الدنيا ، والسلامة والنجاة فى الآخرة . ولكن الإنسان قد يلتزم بتلك القواعد والأحكام وقد لا يلتزم بها ، وهذه سمة من سمات الحركة الإرادية ، ولاشك أن الادعاء بالتماثل العضوى بين المجتمع والكائن البيولوجى إنما هو ادعاء باطل ؛ لأنه يقوم على أساس تصور فلسفى غير واقعى .

نحن لانقول ماقاله (شافل) من أن للمجتمع نخاعا ، أو هيكلا عظمياً يتمثل فى المبانى والطرقات ، أو أن للمجتمع خلايا وأنسجة ، كالكائن العضوى . ولا نذهب مذهب (ليليانفلد) الذى يزعم أن الأجناس البشرية القوية تناظر

---

(٢) البقرة (٢١٩) .

(٣) عرضنا معالم هذه النظرية ــ بإيجاز ــ بالفصل الخامس من الكتاب .

الذكور ، والأجناس البشرية الضعيفة تناظر الإناث . ونحن لانسلم مطلقا بما انتهى إليه (باجوت) من أن الفرق بين الإنسان المتحضر والإنسان غير المتحضر هو ذاته الفرق بين الحيوان الأليف والحيوان المتوحش . كل ذلك مرفوض أمام الحقيقة اليقينية بأن للكون إلها واحدا خالقا مهيمنا على خلقه .

إن مانذهب إليه ، ويؤكده الاستقراء المباشر للظواهر اللاإرادية والظاهرة الإرادية ، ويؤكده أيضا المنطق الاستنتاجي ويتلخص فى أو قواعد السلوك الإرادى المتوازن تنسجم مع القوانين والسنن الموضوعية ، التى تخضع لها الظواهر اللاإرادية فى الكون . ويؤيد رأينا هذا كما بينا ، أن الله تعالى ــ وهو خالق الكون والإنسان ــ قد أجرى القوانين والسنن على الجانب اللاإرادى من الحياة ، ووضع للإنسان قواعد وأحكاماً يتحقق بها توازن سلوكه الإرادى ، ومن ثم لايمكن أن يقع التناقض بين القوانين والسنن الموضوعية من ناحية ، وبين قواعد وأحكام الإسلام من ناحية أخرى ؛ لاتحاد المصدر .

ثمة اختلاف جوهرى بين الظاهرة اللاإرادية والظاهرة الإرادية يكمن فى الوعى أو الشعور . فالظاهرة اللاإرادية إما أن تكون ظاهرة مادية ، كالظواهر الفلكية والفيزيقية ، أو تكون ظاهرة عضوية ، كالنبات والحيوان والجانب الفسيولوجى البيولوجى فى الإنسان . أما الظاهرة الإرادية فإنها تتميز بالوعى والإدراك . وقد توجد الظاهرة اللاإرادية دون أن يدخل فى بنائها الوعى ، ومن الأمثلة على ذلك ، ظاهرة البخر والظواهر النباتية والحيوانية ، أما الظاهرة الإرادية ــ كالظواهر الاجتماعية ، والظواهر الاقتصادية ــ أحيانا ــ فيدخل الوعى فى بنائها .

إن مفاهيم الحرية والحق والعدل والرحمة والجمال ــ وغير ذلك من مفاهيم (إنسانية) ــ ترتبط بالجانب الإدراكى الإرادى فى الإنسان ، أى أنها ترتبط بالعنصر القيمى من الظاهرة . وعندما يتحقق توازن الظاهرة الإرادية انسجاما مع الحركة المتوازنة فى الكون تتحقق الحرية ، ويتحقق العدل وسائر القيم الإنسانية الأخرى[٤] فالحرية فى التوازن ، وكذلك الحق والعدل والرحمة والجمال . خلاصة

---

(٤) انظر للكاتب : النظرية العامة للإنسان والكون (حتمية المنهج الإسلامى) . المؤسسة السعودية بمصر ١٩٨٠ . الفصل السادس .

القول ، تتحقق القيم الإنسانية بالتزام الإنسان ـــ الفرد والمجموع ـــ قواعد وأحكام الإسلام . وهكذا تتجسد القيم الإنسانية واقعا من سلوك الإنسان ، يمكن دراسته وتحديد مقوماته على نحو موضوعى يساعد الباحثين على تعميق فهمها بدلا من مجرد الحديث عنها كمعان وأفكار مجردة .

عندما يقرر الإسلام قاعدة الاعتدال والقوام وعدم الإسراف فى الطعام والشراب فإن هذه القاعدة تنسجم مع القوانين البيولوجية التى يخضع لها النسق العضوى ، الذى يختل توازنه إذا لم يلتزم الإنسان تلك القاعدة فى سلوكه الاستهلاكى (الإرادى) . وعندما يقرر الإسلام تجنب الخبائث من السلع الاستهلاكية ، فإن عدم الانصياع لهذا النهى يترتب عليه من بين أمور أخرى ، اختلال التوازن البيولوجى للإنسان . فالقواعد الإسلامية تنسجم مع الحركة المتوازنة فى الكون ، أى تنسجم مع قوانين الله وسننه فى الكون . وعلى ذلك فإن كافة قواعد السلوك الإسلامى يتحقق بها هذا الهدف ... إن القواعد والأحكام المتعلقة بالزكاة والصدقات التطوعية وغير ذلك من قواعد وأسس للتكافل الاجتماعى ، وتحريم الربا وتحريم الميسر والأنصاب والأزلام ، والأحكام المنظمة للعلاقات الاجتماعية ، وأحكام المواريث ... كل ذلك وغيره من قواعد وأحكام الإسلام ، إنما يستهدف تحقيق توازن السلوك الإرادى ، انسجاما مع الحركة المتوازنة فى الكون ، أعنى أنها تنسجم ـــ ولا تتعارض مطلقا ـــ مع القوانين والسنن الموضوعية التى تسرى على الظواهر اللاإرداية . وذلك انطلاقا من الحقيقة الأولية بأن الله تعالى ـــ الواحد ـــ هو الخالق المنشىء لتلك القوانين والسنن وهو ـــ سبحانه أيضا ـــ الذى وضع للإنسان ـــ الفرد والمجموع ـــ قواعد السلوك الإرادى المتوازن .

إن الحضارة التى تنمو فى إطار عقيدة التوحيد ذات معالم خاصة تميزها عن مجرد التطور المادى (الاقتصادى) والاجتماعى والثقافى ، الذى يتحقق فى إطار العقائد الوثنية ، أو عندما يفتقر التوحيد إلى بعض مقتضياته الإيمانية أو التعبدية أو التعاملية أو الأخلاقية .

للإسلام نظرته الخاصة إلى الاقتصاد ، فالإنسان لم يخلق من أجل تحقيق المتعة واللذة بإشباع حاجات الجسد وغرائزه ، وإنما خلق لكى يعبد الله . ومن العبادة

إصلاح الأرض وعمارتها . وعلى ذلك فإن للاقتصاد فى الإسلام مفهوما عقائديا ، بينما يأخذ الفكر الوضعى بالمفهوم المادى للاقتصاد . ويترتب على هذا الاختلاف الأساسى فى المفهوم عدة نتائج هامة نذكر منها :

(١) إن الاقتصاد فى الإسلام لايقوم إلا إذا سادت عقيدة التوحيد بكل مقتضياتها الإيمانية والتعبدية والتعاملية والأخلاقية . فإذا فرضنا أن مجتمعا من المجتمعات لايبيح الربا ، ويحرم الخبائث ويفرض ضرائب تعادل الزكاة فى تشريعاته المالية ، فإن ذلك لايضفى على اقتصاد ذلك المجتمع الصبغة الإسلامية . فلكى يصطبغ الاقتصاد بتلك الصبغة لابد أن يلتزم الإنسان ــ الفرد والمجموع ــ بمنهج الإسلام بكل جوانبه فى كافة مجالات النشاط الإنسانى .

أما الاقتصاد الوضعى فإنه اقتصاد مذهبى يستمد مقوماته من الفلسفة المادية التى ركزت اهتمامها على الجانب المادى من الحياة ، فقام علم الاقتصاد الراهن على نموذج الإنسان الاقتصادى (Homoeconomicus) ، الذى لايعنيه من حياته سوى تحقيق المتعة واللذة بإشباع غرائزه الحسية ــ دون أن يلقى بالا إلى القيم الإنسانية كالعدل والحق والخير والرحمة والإيثار ــ متجاهلا حقيقته ، كمخلوق يتميز بالعقل والروح .

(٢) إن الاقتصاد فى الإسلام ليس هدفا فى ذاته ، وإنما هو هدف ووسيلة لتحقيق غاية أسمى من مجرد تحقيق اللذة والمتعة بإشباع الغرائز والحاجات المادية ، وهذه الغاية هى عبادة الله . وبذلك يتوجه الإنسان ــ كما تتوجه كافة الكائنات والظواهر اللاإرادية ــ إلى الله فيتحقق بذلك التوازن الشامل فى الكون . وليس معنى العبادة هنا مقصورا على أداء الفرائض التعبدية من صلاة وزكاة وصوم وحج وإنما تشتمل أيضا ــ من بين أمور أخرى ــ على إصلاح الأرض وإعمارها .

(٣) ولايعنى قولنا إن الإسلام ينظر إلى الاقتصاد على أنه مجرد وسيلة ، أنه يتجاهل الجانب المادى من حياة الإنسان . فالإسلام يهتم بهذا الجانب اهتماما يفوق اهتمام الفكر الوضعى ، إذ يرى فى النشاط الاقتصادى لونا من ألوان العبادة ، عملا بالقاعدة الفقهية التى مؤداها أن ما لاتتم العبادة إلا به فهو عبادة . وهو أيضا واجب لأن ما لايتم الواجب إلا به فهو واجب .

(٤) إن النشاط الاقتصادى الذى يمارس فى هدى قواعد الإسلام وأحكامه يؤتى ثماره الطيبة دون أن تنتابه الأزمات والمشكلات الحادة ، التى تواجه الاقتصاد الوضعى ، كالتضخم والبطالة والتلوث . يقول تعالى : ﴿ **لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين** ﴾[٥] . وهذه الاية الكريمة لاتتحدث عن العمل الاقتصادى فحسب ، وإنما تعنى العمل فى كافة مجالات النشاط الإنسانى سواء كانت مجالات اقتصادية أو اجتماعية أو تعبدية .

لقد رأينا كيف أن الله ـــ جلت قدرته ـــ يوجه الظواهر اللاإرادية فى الكون على النحو الذى يسفر عن تزويد الإنسان بكافة مقومات حياته . فإذا توجه الإنسان إلى الله وانصاع لأوامره ـــ إيمانا به سبحانه ـــ فإن حركته الإرادية تنسجم مع الحركة المتوازنة للظواهر اللاإرادية وبذلك تتهيأ له الموارد ويجنى ثمار عمله فى مجالات الإنتاج ويتحقق الرخاء الاقتصادى . أما إذا افتقر العمل إلى الإيمان ولم يلتزم الإنسان بمنهج الله ، فإن حركته الإرادية تعاكس الحركة المتوازنة للظواهر اللاإرادية وتصطدم معها الأمر الذى يترتب عليه اختلال تلك الحركة المتوازنة فلا تتوفر له الموارد وتتولد الأزمات والمشكلات على النحو الذى نشاهده فى المجتمعات المعاصرة التى ابتعدت عن منهج الإسلام . والله قادر على أن يعطل القوانين والسنن التى تسرى على الظواهر الفلكية والفيزيقية والعضوية ، وأن يوقف سريانها جزئيا أو كليا .

(٥) يشتمل الإسلام على العديد من القواعد والأحكام ، التى تستهدف ازدهار النشاط الاقتصادى . من ذلك ، على سبيل المثال ، تحريم الخبائث فلا تهدر الموارد البشرية والمادية فى إنتاج الأشياء الضارة بالإنسان أو بالبيئة . وقاعدة الاعتدال والقوام فى الإنفاق بوجه عام ، والإنفاق الاستهلاكى بوجه خاص . ونشير أيضا إلى المصالح المعتبرة شرعا : الدين والعقل والنفس والمال والولد . فالأولوية للدين أى لعقيدة الإنسان التى هى قوام الحياة .

(٦) والاقتصاد فى الإسلام يقوم على العدالة والتكافل على نحو لا مثيل له فى المجتمعات الوثنية . يحرم الإسلام الربا ويمنع الغش والغبن والبخس والاحتكار ، ويفرض الزكاة حقا للفقراء فى أموال الأغنياء ، ويدعو إلى الصدقات التطوعية والإنفاق فى

---

(٥) الزمر (٦٥) .

وجوه الخير (وفى سبيل الله) .

(٧) وإذا بحثنا المقتضيات الإيمانية والتعبدية لعقيدة الإسلام فإننا نجد أنها تؤثر تأثيرا إيجابيا فى مجالات الاقتصاد . رأينا كيف أن الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر ــ خيره وشره ــ وما يقتضيه هذا الإيمان من إقامة الفروض التعبدية فضلا عن التسليم المطلق والانقياد التام لله تعالى ، كفيل بتحقيق الانسجام بين الحركة الإرادية والحركة المتوازنة للظواهر اللاإرادية ، الأمر الذى يسفر عن توفر مقومات الحياة وعوامل البقاء . إن الله هو الرازق وقد تكفل سبحانه بتوفير الرزق للإنسان ، ولكل الكائنات الأخرى . ويقول عز وجل : ﴿ **وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها** ﴾[٦] . ويقول جل شأنه : ﴿ **وكأين من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإياكم** ﴾ [٧] . ويلفت الله نظر الإنسان إلى الحقيقة الأولية وإلى أنه سبحانه يحيى ويميت ، وأنه ــ جلت قدرته ــ قد خلق الكون على حقيقة التوازن ، وأجرى قوانينه وسننه على ظواهره ؛ لكى يزود الإنسان ــ فى كل لحظة ــ بمقومات حياته . يقول جل شأنه : ﴿ **والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل شىء موزون . وجعلنا لكم فيها معايش ومن لستم له برازقين . وإن من شىء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم . وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماءً فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين . وإنا لنحن نحيى ونميت ونحن الوارثون** ﴾[٨] .

(٨) ولا يعنى قولنا بتوفر الموارد ومقومات الحياة وتحقق الرخاء الاقتصادى عندما يتوجه الإنسان ــ الفرد والمجموع ــ نحو الله كما تتجه إليه سبحانه سائر الكائنات والظواهر ؛ إن الله تعالى قد ربط رزق الإنسان بالإيمان به . لقد كفل الله الرزق لكل العباد ، المؤمنين منهم والكافرين ؛ لأن الإيمان به سبحانه ليس قسرا ولا يكره المرء على أن يكون مؤمنا ﴿ **فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر** ﴾[٩] . فإذا ارتبط الرزق بالإيمان كان الإيمان قهرا وكرها . وليس الإيمان كذلك . فيقول المولى عز وجل : ﴿ **ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا**

(٦) هود (٦) .
(٧) العنكبوت (٦٠) .
(٨) الحجر (١٩ ــ ٢٣) .
(٩) الكهف (٢٩) .

من فضة ومعارج عليها يظهرون . ولبيوتهم أبوابا وسررا عليها يتكئون . وزخرفا وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين ﴾[١٠] .

على أن ذلك لا يعنى أن يتساوى المؤمنون والكافرون فى الرفاه الاقتصادى . فالمؤمنون ينالون الرزق من الله خاليا من المشكلات البيئية وغيرها ؛ لأنهم يسلكون سلوكا منسجما مع الحركة الكلية المتوازنة فى الكون ، بينما الأمر ليس كذلك بالنسبة للكافرين . ويقول تعالى : ﴿ .... **فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى . ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى** ﴾ [١١] . ويقول جل شأنه : ﴿ **ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين . وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون** ﴾ [١٢] . ولعلنا نلمس هذه الحقيقة فيما تعانيه المجتمعات المعاصرة التى ابتعدت عن منهج الله ، من افتقار إلى الأمن وإلى الطمأنينة النفسية ، وما ينتابها من توتر وقلق وعدم استقرار ، فضلا عن مشكلاتها الاقتصادية والاجتماعية التى تفوق فى تكلفتها الثمار الإيجابية للتقدم المادى الذى أحرزته .

(٩) أوضحنا فى فصول سابقة أن التقدم المادى يتوقف على مدى ما يحرزه الإنسان من تقدم علمى فى مجالات العلوم الطبيعية ، ومن تطور تكنولوجى . وقلنا إن عملية التقدم هذه عملية تراكمية ؛ إذ تتناقل الأجيال ماتحرزه من تقدم علمى وتكنولوجى . ولا شك أن الأخذ بأسباب هذا التقدم يؤتى ثماره فى مجالات الإنتاج السلعى والخدمى ، وغير ذلك من مظاهر الازدهار الاقتصادى . ولكن — مع ذلك — تظل الحقيقة التى عرضناها بالبند السابق صحيحة ، بمعنى أن هذا الازدهار الاقتصادى قد تكون له جوانب سلبية تقضى على ثماره الطيبة . ومن ناحية أخرى ، فإن عدم الأخذ بأسباب التقدم المادى لن يحقق نموا اقتصاديا . وعندما يتخلف المجتمع المسلم اقتصاديا ، نتيجة لتراخيه وتقاعسه فى الأخذ بأسباب التقدم ، فإن ذلك يعنى بالضرورة أنه قد انحرف عن المسار الإسلامى التوازنى ؛ لأن الإسلام يدعو إلى العمل وبذل الجهد فى مجالات الإنتاج .

---

(١٠) الزخرف (٣٣ — ٣٥) .

(١١) طه (١٢٣ ، ١٢٤) .

(١٢) الزخرف (٣٦ ، ٣٧) .

(١٠) ولكى نستكمل جوانب النظرية التاريخية فى جانبها الاقتصادى ــ أعنى فى العلاقة بين العقيدة والاقتصاد ــ لا يفوتنا أن نذكر أن الأمر كله بيد الله . فهو سبحانه خالق الكون وخالق الإنسان ، وقد أجرى قوانينه وسننه على الظواهر اللاإرادية ؛ لكى توفر للإنسان مقومات حياته . ولكنه ــ سبحانه ــ يوقف سريان تلك القوانين والسنن ويعطلها جزئيا أو كليا بمشيئته المطلقة . ومع ذلك ، يبين الله للإنسان أنه يفعل ذلك لأسباب . فقد يضيق الله الرزق ابتلاءً لعباده المؤمنين ، وقد يوسع الرزق فتنة لهم ، وقد يدمر الله دعائم الاقتصاد انتقاما لابتعاد الناس عن منهجه وإعراضهم عن شريعته .

(١١) ولعلنا نتبين مما سبق أن التقدم الاقتصادى ، والتكنولوجى ليس معيارا صادقا لازدهار الحضارة بمفهومها الإسلامى . فقد يشوب هذا التقدم تدهور فى الجوانب الاجتماعية من الحضارة ، وقد يكون لهذا التقدم سلبيات ، تتمثل فى مشكلات اقتصادية كالتضخم والبطالة ، أو مشكلات بيئية كالتصحر والتلوث . وقد يكون الرخاء الاقتصادى فتنة من الله ليبتلى بها العباد . ومن ناحية أخرى ، فإن التدهور الاقتصادى قد يكون ناتجا عن تراخى الإنسان ــ الفرد والمجموع ــ فى بذل النشاط والجهد فى مجالات الإنتاج ، أو ناشئا عن كوارث طبيعية كالقحط أو الزلازل أو الأعاصير ، وقد يكون ذلك ابتلاءً من الله أو انتقاما منه .

إن المقياس أو المعيار الذى تُقوّم به حضارة المجتمع هو عقيدته ــ أى العقيدة التى يؤمن بها الفرد والمجموع . وتزدهر الحضارة وتبلغ أقصى ارتفاع لها عندما تسود عقيدة التوحيد ــ بكل مقتضياتها الإيمانية والتعبدية والتعاملية والأخلاقية ــ وتهيمن على كافة جوانب السلوك الإنسانى فى المجالات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والسيكولوجية . وعندما يتحقق ذلك ينمو المجتمع نموا حضاريا متوازنا ، فيتقدم اقتصاديا واجتماعيا وثقافيا .... والعكس من ذلك تماما ، عندما يبتعد الفرد والمجموع عن منهج الله وشريعته ، على التفصيل الذى أسلفناه .

يقوم المجتمع المسلم على العدل والحق والحرية والرحمة والتكافل دون طبقية أو عنصرية . يقول تعالى : ﴿ **إن أكرمكم عند الله أتقاكم** ﴾[١٣] . وليس معنى قولنا :

---

(١٣) الحجرات (١٣) .

إنه حيث تسود عقيدة التوحيد تزدهر الحضارة ، أن هذا الازدهار يتحقق تلقائيا ، فالإرادية تنفى التلقائية ، ومن هنا تبدو أهمية الدعوة المستمرة والتربية والتوجيه ، ومقاومة الانحرافات بحزم وبسرعة ، والبت فى المنازعات التى تنشأ بين الأفراد أو الجماعات فى سرعة وطبقا لشريعة الإسلام . وتنمية قوى المقاومة الذاتية ممثلة فى جماعات الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

(١٢) ونستطيع — فى ضوء ماسبق — أن نقرر أن التقدم المادى الذى يحرزه مجتمع تسوده عقيدة التوحيد ، بمقتضياتها الإيمانية والتعبدية والتعاملية والأخلاقية ، وهيمنتها على كافة جوانب السلوك الإنسانى ، هذا التقدم المادى يختلف جذريا عن التقدم المادى الذى يحرزه مجتمع انحرفت عقيدته ، أو انحسرت هيمنتها عن بعض جوانب السلوك الإنسانى . إن مظاهر الاختلاف لا تقتصر على تحريم الربا وتجنب الخبائث وإيتاء الزكاة وأحكام البيع والتصرفات المالية والمواريث ، وغير ذلك من قواعد وأحكام المعاملات والعبادات فحسب وإنما تتناول مظاهر الاختلاف أيضا النظام الاقتصادى فى مجموعه ، فضلا عن الجوانب المتعلقة بالعمران وتخطيط المدن.... يقوم النظام الاقتصادى فى الإسلام على أساس عقائدى ، كما أوضحنا من قبل ، فالتوحيد بكل مقتضياته هو الدعامة التى يقوم عليها النظام ، والعبادة — بمفهومها الواسع الذى عرضناه فى الفصل الحالى — هى الهدف الذى يسعى النظام إلى تحقيقه . وعندما تثور مشكلة اختيار (ظاهرية فى الواقع) بين الاقتصاد والعقيدة فإن الأولوية تكون للعقيدة . وقد أسلفنا مثالا على ذلك عندما رفض الخليفة الراشد الصالح عمر ابن عبد العزيز تحصيل الخراج على الأرض العشرية .

إن المساجد فى الإسلام تلعب دورا بالغ الأهمية فى حياة المسلمين ، وقد يكفينا فى هذا المقام أن نشير إلى أنها أماكن للتجمع فى أوقات الصلاة المفروضة وصلاة العيدين ، وصلاة الاستسقاء وغير ذلك من مناسبات دينية ودنيوية ، وتؤدى المساجد فضلا عن ذلك ، دورا هاما فى عملية التماسك الاجتماعى . فإذا افتقد المسلم أخاه فى وقت الصلاة فإنه يبادر إلى الاستفسار عنه ، وتقصى أخباره والسؤال عنه إن كان مريضا ، ومساعدته إن كان يعانى ضائقة مالية أو غير مالية . ويهمنا من ذلك أن نمو المدن فى ظل الإسلام يتخذ مسارا مغايرا كل المغايرة للمسار الذى اتخذته فى ظل الأيديولوجيات والمذاهب الوضعية . لقد انساح المجتمع وتفككت

الروابط وأصبح التفسخ الاجتماعى ظاهرة مميزة للمجتمعات المعاصرة . ويعتبر تخطيط المدن ونموها أحد العوامل الرئيسية المسئولة عن هذا الانحراف .... اتسعت المدينة طولا وعرضا وارتفعت المنازل وتلاصقت الأحياء السكنية وامتلأت بفئات متنافرة غير متآلفة من السكان ، حتى أصبح الجار لا يعرف جاره وتفككت أواصر الأسرة الواحدة ، وتقطعت الأرحام ، وجهل أولاد العم والخال بعضهم بعضا وأصبح من المألوف أن ينكر الأخ أخاه . وأقفرت المساجد — أو كادت — من المصلين تحت تأثير عمليات الدفع السلبى (المخططة) لتشويه الدين . وفقد المسجد دوره الهام فى عملية التماسك الاجتماعى وأدى ذلك — وغيره — إلى إضعاف القدرة الذاتية للمجتمع على مقاومة الانحرفات .

فى الإسلام — تقوم الجماعات المتآلفة حول المساجد التى يلتقى فيها أفراد يعرف بعضهم بعضا ، وتتماسك الأسرة وتوصل الأرحام ويتعاون أفراد الجماعة فى الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ويتكاتفون فى حل مشكلاتهم وفض المنازعات التى تنشأ فيما بينهم بتحكيم شرع الله وفى وقت وجيز ، الأمر الذى يرفع درجة التماسك الاجتماعى ويؤلف بين القلوب ويقوى القدرة الذاتية للمجتمع على مقاومة ماقد يتعرض له من اختلالات طارئة .

لقد أردت أن أبين — بهذا العرض السريع — لأحد جوانب الاختلاف بين مجتمع التوحيد والمجتمعات الوثنية ، أنه لا صحة مطلقا لما يعتقده البعض من أن الثقافة المرتبطة بالجانب الاقتصادى والعلوم الطبيعية ، قابلة للانتقال بين المجتمعات ، بمعنى أنه يمكن لمجتمع ما أن يتلقى — وأن يقتبس من — مظاهر التقدم المادى للمجتمعات الأخرى ، وذلك على خلاف الثقافة التى تتعلق بأمور العقيدة والقيم الإنسانية [١٤] . إن مظاهر الحضارة — سواء كانت مادية أو روحية — ليست قابلة للانتقال من مجتمع لآخر ... إن كثيرا من مظاهر التقدم المادى المعاصر يصطدم بالعقيدة الإسلامية وأخلاقيات الإسلام . وقد عرضنا حالا مثالا واضحا عن نمو المدن والتخطيط العمرانى . ونضيف إلى ذلك أمثلة أخرى عديدة عن التكنولوجيات غير الملائمة ، التى لا ينبغى نقلها إلى المجتمعات الإسلامية سواء كانت تكنولوجيات

---

(١٤) راجع فى ذلك — الفصل الثانى من الكتاب .

فى مجالات الإنتاج أو مجالات الاستهلاك ؛ نظرا لآثارها السلبية على تلك المجتمعات .... وقد نشير إلى الأفلام الهابطة التى تدعو إلى الإثارة الجنسية والملابس المزركشة التى يرتديها الرجال تشبها بالنساء .

إن الثقافة الاجتماعية محصلة للثقافات الذاتية لأفراد المجتمع ، فهى إذن وثيقة الصلة بالعقيدة . وعلى ذلك فإن الثقافة الاجتماعية — سواء كانت متعلقة بالجوانب المادية والتكنولوجية ، أو كانت متغلقة بالجوانب الروحية والإنسانية — ليست قابلة للانتقال أو للاقتباس .

الفصل الثانى عشر

المنحنى الحضارى

رأينا — فى الفصل العاشر من الكتاب — كيف تعمل العقيدة الدينية على صبغ الثقافة الأولية ، التى يتلقاها الإنسان من خارجه ، بالصبغة الذاتية بعد أن يأخذ من عناصر الثقافة الأولية ما يلائم عقيدته ، ويرفض مالا يلائمها أو يعدّل أو يطور ويحور من عناصر الثقافة الأولية ، فتتكون بذلك ثقافته الذاتية ، التى تشكل مشاعره وعواطفه واستجاباته وسلوكياته ، وهكذا فإن « العقيدة الصحيحة هى التى تحدد للإنسان مكانه الصحيح فى الكون ، وتسدد خطاه فى الزمان والمكان ، حيث تحدد له وجهته الصائبة ، وترسم له طريقه المستقيم ، وجدانه وسلوكه ومشاعره وأعماله ومبادئه وواقعه ، ويصبح كله — كما ينبغى أن يكون — وحدة متماسكة ومتكاملة متجهة الاتجاه الصحيح » [(١)] .

تتباين الثقافة الذاتية من شخص لآخر ، لأن الأفراد يتفاوتون فى مدى صحة اعتقادهم . ولقد تحدثنا عن النفس البشرية وكيف أن الله — خالق الإنسان — قد ألهمها الفجور والتقوى . وواقع الحياة يشهد بأن الناس يتفاوتون فى الاتجاه نحو الخير أو الاتجاه نحو الشر .

أوردنا — بالفصل السادس — تعريفا للثقافة الاجتماعية ، قال به (سوروكين) . يقول التعريف إنها « مجموع كل شيء يخلقه أو يعدله النشاط الشعورى أو اللاشعورى لاثنين أو أكثر من الأفراد الذين يتفاعلون فيما بينهم ، أو الذين يُؤثر أحدهم فى تحديد سلوك الآخرين » .. وفى ضوء ما أوردناه عن الثقافة الذاتية ، نرى أن الثقافة الاجتماعية هى محصلة ، أو جماع الثقافات الذاتية لأفراد الجماعة أو المجتمع . لقد قلنا : إن الثقافة الأولية تتولد من تعامل الإنسان مع ذاته

---

(١) عن ابن تيمية فى : نقض المنطق . ص (٦٢) . مشار إليه فى : الإسلام والمذاهب الفلسفية . مرجع سابق . ص (١٥٦) .

ومع غيره ومع الكون فى مجموعه ، وأن هذه الثقافة الأولية تتعرض فى ذات الإنسان لعملية تمحيص ومراجعة ، من جانب العقيدة الدينية التى يؤمن بها ، وتكون الثقافة الذاتية نتاجا لتلك العملية . ولما كان الإنسان يتعامل مع ذاته ومع غيره ومع الكون فى كل لحظات حياته فإن معنى ذلك أن الثقافة الأولية تتدفق فى كل لحظة فى صورة تيار (Flow) وتكون عملية المراجعة والتمحيص للثقافة الأولية عملية مستمرة غير منقطعة مادامت حياة الإنسان .

ولسنا بحاجة إلى القول بأن عناصر الثقافة الاجتماعية ، إذا نظرنا إليها فى مجموعها ، إما أن تكون متناسقة ــ أى متآلفة ــ ، أو تكون متنافرة . ويتحقق التناسق بين عناصر الثقافة الاجتماعية عندما تتماثل الثقافات الذاتية للأفراد ، الأمر الذى يتحقق فى مجتمع تسوده عقيدة التوحيد بكل مقتضياتها ، وتهيمن على كافة جوانب السلوك الإنسانى . على أن تَحَقُّق هذا الوضع يكاد يكون أمرا افتراضياً ؛ لأن الله جلت حكمته ــ لم يجعل الناس جميعا مؤمنين . فكما توجد قوى الخير ، توجد أيضا قوى الشر ، والصراع دائم مستمر بين الحق والباطل ، أو بين الباطل والباطل ، مادامت حياة الإنسان على سطح الأرض . ومعنى ذلك أنه قلما توجد للمجتمع الواحد ثقافة اجتماعية واحدة ، أى ثقافة تتناسق وتتآلف عناصرها وإنما توجد ثقافتان ، إحداهما إيجابية يتوفر فيها التناسق والتآلف ، إذ تتكون من ثقافات ذاتية تنبثق كلها عن العقيدة الصحيحة . وأما الثقافة الاجتماعية الأخرى فهى سلبية ، بمعنى أنها محصلة ثقافات ذاتية تنبثق عن عقائد فاسدة وهى ثقافات غير متناسقة العناصر ، وإنما يقوم التنافر والتناقض بين تلك العناصر . إن العقيدة الفاسدة لا تحدد للإنسان ــ الفرد والمجموع ــ وجهته الصائبة فى الحياة ، ولا تُوضح له حقيقة مركزه فى الكون ، فلا يستقيم وجدانه أو سلوكه أو مشاعره أو أعماله أو مبادئه ، ويصبح كيانا ممزقا غير متماسك ... وفى ضوء ماسبق نرى أن الثقافة الاجتماعية الإيجابية قادرة على تحقيق توازن المجتمع حضاريا ، بينما تعمل الثقافة الاجتماعية السلبية على تقويض دعائم هذا التوازن . ومن الصراع بين الثقافتين يتحدد المصير الحضارى للمجتمع .

وعندما يتجه الإنسان ــ الفرد والمجموع ــ نحو الله ، فيعتقد اعتقادا راسخا فى وحدانيته ــ وأنه هو الخالق الرازق المحيى المميت ــ وأن الإنسان محاسب يوم

البعث على ما يأتيه من أفعال فى الدنيا — فيلتزم بشريعته تعالى وينفذ أوامره ويجتنب نواهيه ؛ فإنه يتحرر من الخوف والقلق والتوتر ، وتستقر أموره كلها على أساس من العدالة والحرية والرحمة والتكافل . ولكن عندما يتجه الإنسان — الفرد والمجموع — نحو إنسان مثله يتلقى منه الأوامر والنواهى ، خوفا من بطشه ، أو عندما تكون المادة إلها يعبد من دون الله ، أو عندما ينغمس القادة أو الصفوة فى الترف والمجون ، فإن أمور المجتمع تضطرب وتشيع الفاحشة وينتشر الظلم ويسود الطغيان . وقد تستمر هذه الأوضاع طالما ساندتها القوة المادية أو الفكرية — الأيديولوجية — وطالما تمكنت الصفوة من إضعاف قوى المقاومة الذاتية ..... لقد استمر نظام الإقطاع ، بكل مافيه من مساوىء زهاء الألف عام بتأثير الكنيسة والقوة المادية لأمراء الإقطاع . والنظام الشيوعى المعاصر ، بكل مافيه من مساوىء قد جاوز عمره (القصير) نصف قرن من الزمان ، استناداً إلى القوة المادية ، والأيديولوجية وكبت قوى المقاومة الذاتية .

ولكن الصراع بين قوى الخير وقوى الشر ينتهى دائماً بانتصار قوى الخير . وهـذه إرادة الله ... إن الشر والخير فتنـة . ويقـول تعـالى : ﴿ **ونبلوكم بالشر والخير فتنة** ﴾[2] والابتلاء والفتنة ، لكى يمحص الله عباده . يقول جل شأنه : ﴿ **أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون** ﴾[3] . ويشير القرآن الكريم إلى التقدم المادى الذى يصاحبه الطغيان ، فيقول سبحانه وتعالى : ﴿ **أتبنون بكل ريع آية تعبثون. وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون . وإذا بطشتم بطشتم جبارين** ﴾[4] . ولكن ذلك ينتهى حتماً بانهيار القوة المادية والانتكاس الحضارى . يقول سبحانه : ﴿ **كم تركوا من جنات وعيون . وزروع ومقام كريم . ونعمة كانوا فيها فاكهين . كذلك وأورثناها قوماً آخرين** ﴾ [5] . وهذه سنة الله فى خلقه . أن القوة المادية الغاشمة — مهما بلغت سطوتها — لابد أن تنهار . يقول الله تعالى : ﴿ **فأهلكنا أشد منهم بطشاً ومضى مثل الأولين** ﴾[6] . ولقد رأينا كيف أن التزام الإنسان — الفرد والمجموع — قواعد وأحكام الإسلام كفيل بتحقيق التوازن الكلى الشامل فى الكون . وبذلك يتحقق التوازن الحضارى للإنسان ، ذلك التوازن الذى لا يقتصر على مجرد

---

(٢) الأنبياء (٣٥) . (٣) العنكبوت (٢) . (٤) الشعراء (١٢٨ — ١٣٠) .
(٥) الدخان (٢٥ — ٢٨) . (٦) الزخرف (٨) .

التقدم ، أو التوازن الاقتصادى ، وإنما يشتمل أيضاً على كافة الجوانب الثقافية والاجتماعية والسيكولوجية . يقول جل شأنه : ﴿ **ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون** ﴾(٧) . ويقول جل شأنه : ﴿ **وضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون** ﴾(٨) . تتحدث الآيتان الكريمتان عن ارتباط الاقتصاد بالعقيدة ، ولكنهما يتناولان أيضاً جوانب أخرى للحضارة ، غير الاقتصاد . فالبركات والأمن والطمأنينة ـــ كل ذلك يوضح استقرار العلاقات الاجتماعية وشيوع الرفاه الاجتماعى . إن الله هو الرازق ، وهو الذى يعطى ويمنع ، ومع ذلك قد نستطيع أن نكشف عن علاقة سببية مباشرة بين الرخاء الاقتصادى والرفاه الاجتماعى من جانب ، وبين الإيمان والتقوى من جانب آخر . وقد رأينا أن الالتزام بقواعد وأحكام الإسلام كفيل بإحداث الرخاء والرفاه ، وعلى سبيل المثال ، نستطيع أن نتتبع الآثار الإيجابية للزكاة والقوام فى الإنفاق ، وتجنب الخبائث وتحريم الربا ، وأحكام المعاملات والمواريث على الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية . وقد تعرضنا لذلك ، بإيجاز فى الفصل السابق . وليس من العسير أن نتبين أن للعبادات فى الإسلام تأثيراً إيجابياً على الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والنفسية .

فالصلاة وما تنطوى عليه من خشوع وتسليم وانقياد لله تعالى وخوف منه سبحانه ، والصوم وما ينطوى عليه من إخلاص العبودية لله ، ومن حرمان من طيبات الرزق انصياعاً لأمر الله تعالى ، والزكاة وما يترتب عليها من توازن العلاقات الاقتصادية والاجتماعية ، والحج وما يحمله فى طياته من قوى نفسية دافعة للسلوك الإنسانى المتوازن ، الذى ينسجم مع الحركة المتوازنة فى الكون ، كل ذلك ـــ وغيره ـــ عوامل إيجابية فى العملية الحضارية .

إن الإسلام ـــ بنظامه الاقتصادى والاجتماعى وقواعده وأحكامه فى المعاملات والأخلاق ـــ كفيل بتوجيه إرادة الإنسان نحو المسار التوازنى الذى ينسجم مع الحركة المتوازنة فى الكون . وقد رأينا كيف أن الإسلام ـــ بقواعده وأحكامه ـــ يقيم تعامل الإنسان مع ذاته ومع غيره ومع البيئة الخارجيه ، على أساس التكامل البنائى ـــ

(٧) الأعراف (٩٦) . (٨) النحل (١١٢) .

الوظيفى ، والحرية المنضبطة ، والتبادل العادل ، ويدعم قوى المقاومة الذاتية التى تتمثل فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر على كلا المستويين الشعبى والرسمى ، وبذلك يتحقق التوازن الحضارى . ويتحقق ذلك كله بفعل القوى الدافعة فى أعماق النفس البشرية ــ لدى أفراد المجتمع ــ محكومين وحكاماً ، والتى تتمثل فى تناسق الثقافة (الاجتماعية) الإيجابية ، التى تشكلها الثقافات الذاتية النابعة من عقيدة التوحيد .

أما فى غياب الإسلام ــ وهذه حقيقة يشهد بها التاريخ وتشهد بها أوضاع المجتمعات المعاصرة ــ فإن حركة الإنسان تنحرف عن المسار التوازنى ، إذ تتنافر الثقافات الذاتية ، وتتنافر عناصر الثقافة الاجتماعية (السلبية) ، وتتغلب قوى الشر ، فتشيع الفاحشة وتنتشر الأفكار المنحرفة ، وتنمو قوى الدفع السلبى للدين الذى استبدله أصحاب المذاهب الوضعية فى العصر الحديث « بالأيديولوجية » ، وهى كلمة يصفها (توينبى) بأنها (دين بغير اسم الدين) . إن أصحاب الأيديولوجيات ــ من دعاة الاشتراكية والديكتاتورية والديموقراطية والوطنية ــ يصوغون ما يشبه النظريات التى يضعونها فى قوالب أو شعارات تضاهى العقيدة الدينية ، التى تتسم بطابع الاعتقاد الإيمانى ، ويحاول دعاة المذهبية عن طريق الضغط النفسى والتستر وراء العلم ، أو وراء شعارات مثل « إرادة التغيير » ، أن تصبح الأيديولوجية بمثابة العقيدة ، التى يدافع عنها جمهرة السكان ، بل والتضحية فى سبيلها . ويربط (توينبى) بين الوطنية والعبادة بقوله : « إن أخطر ظاهرة يواجهها العالم اليوم فى البلاد المسلمة بديمقراطيتها وباعتناقها المسيحية ، إن أربعة أخماس عقيدة جمهرة السكان هى فعلاً العبادة الوثنية البدائية للجماعة ، التى أصبحت موضع تأليه جمهرة الناس ، وهى عبادة تستتر وراء كلمة لطيفة هى (الوطنية)[٩] .

إن أتباع الأيديولوجيات يصفونها بصفات الرسالات السماوية ، ويدعون أنها تقدم تفسيراً شاملاً للعالَم ويطالبون (المؤمنين) بها ، العمل على الدفاع عنها والكفاح من أجلها ضد مخالفيها . وهكذا ، أصبحت الأيديولوجية بديلاً عن العقيدة الدينية ، واصطبغت الثقافة الذاتية ، والثقافة الاجتماعية ــ السلبية بطبيعة الحال ــ

---

(٩) أرنولد توينبى : مختصر دراسة التاريخ ترجمة فؤاد شبل ، مشار إليه فى : الإسلام والمذاهب الفلسفية ، مرجع سابق . ص (٧٠ ــ ٧١) . وانظر أيضا : باكوب باريون : ماهى الأيدلوجية . ترجمة د . أسعد مرزوق .

بصبغة مذهبية وأصبح الإلحاد وإنكار وجود الله والثنائية والتثليث وعبادة العباد وتأليه الأشخاص وعبادة المال ، هى القوى الحقيقية التى تعمل على تقويض حضارة الإنسان .. ويلجأ دعاة المذهبية إلى أساليب متعددة للتأثير ـــ فى اتجاه معين مرغوب ـــ فى نفسية الجماهير ـــ بعد أن نجحوا فى إفراغ النفس من شحناتها العقائدية ـــ وقد يكفى لتحقيق ذلك أن يعمد بعض الأشخاص إلى القيام بحركات انفعالية ـــ هستيرية ـــ فى مناسبة تافهة ، أمام جماهير غفيرة من الناس حتى تندفع تلك الجماهير ـــ المضللة والمقهورة ـــ فى القيام بنفس الحركات(١٠) .

هذا ، ويمكننا التمييز بين نوعين من المجتمعات التى تطغى فيها الثقافة الاجتماعية السلبية :

(١) مجتمعات متقدمة ماديا ـــ أى اقتصاديا وتكنولوجيا .
(٢) ومجتمعات متخلفة ماديا تتعرض للاستنزاف الاقتصادى والتبعية العسكرية أو السياسية أو الفكرية . فالمجتمعات المتقدمة ماديا أخذت بأسباب التقدم العلمى والتكنولوجى فى مجالات العلوم الطبيعية ، وتقوم على أيديولوجيات فكرية ـــ بديلة للعقيدة الدينية . وتصدر هذه المجتمعات مذاهبها وأيديولوجياتها وأنماط سلوكها الاستهلاكى والاجتماعى إلى المجتمعات المتخلفة ماديا .

فى هذه المجتمعات المتقدمة والمتخلفة على السواء يتجه المنحنى الحضارى إلى أسفل . وأصبحت الحاجة ملحة إلى البديل الإسلامى . لقد فشل التقدم المادى كما فشلت القوة المادية ، أو مايسميه الكتاب والمؤرخون ـــ الحضارة المادية ـــ فى تحقيق رسالة الإنسان فى الأرض ، وهى إقامة مجتمع الإيمان والتقوى ، أى المجتمع الذى ينمو اقتصاديا واجتماعيا وثقافيا ، نموا متوازنا فى إطار الهدف النهائى من حياة الإنسان وهو عبادة الله . إن (تجربة الحضارة) المعاصرة بصورتيها ـــ الغربية الرأسمالية والشرقية الشيوعية أو الاشتراكية ـــ لم تسفر إلا عن الفشل الذريع والتقهقر فى كافة

(١٠) من هذه المناسبات ـــ مثلا ـــ ماحدث فى جنازة (ستالين) عندما صرخت الجماهير ـــ أنها لاتصدق أنه مات ـــ واندفعت فى جنون إلى جثمان المعبود الذى توفى .. وما حدث من انفعال هستيرى من جانب بعض فئات الشعب المضللة والمقهورة ، عندما أعلن (الزعيم ؟) جمال عبد الناصر تنحيه عن الحكم بعد نكسة عام ١٩٦٧ . ومن ذلك أيضا تفريغ الطاقات الانفعالية للجماهير فى مباراة كرة القدم والسلة والمصارعة ، واستقطاب قوى المقاومة الذاتية عن طريق دور اللهو والعبث وأفلام الفيديو الهابطة ، ناهيك عن استنزاف الموارد المادية والبشرية .

مجالات الحياة الإنسانية [١١] بما فى ذلك المجال الاقتصادى والتكنولوجى . ولقد أشرنا من قبل إلى الآثار الاقتصادية والاجتماعية والبيئية ـــ السلبية ـــ التى صاحبت التقدم المادى المعاصر . ومن ذلك : التضخم والبطالة والاحتكار والاستغلال الطبقى والعنصرى ، وانتشار الفساد الاجتماعى ، والتلوث البيئى والبيولوجى ، وسرعة نضوب الموارد الطبيعية ، وهذه التجربة خير دليل على خواء الفلسفات والأيديولوجيات التى أراد لها دعاتها أن تكون بديلا عن عقيدة التوحيد ، بمقتضياتها الإيمانية والتعبدية والتعاملية والأخلاقية .

ويستند (حامد ربيع) فى بحثه عن دور الإسلام المنتظر فى انتشال العالم من التردى الحضارى إلى التقرير المشهور لمعهد (هوفر) الأمريكى ، عن « تخطيط السياسة العالمية ابتداءً من نهاية القرن العشرين » . والذى يبشر بتطور معين فى المجتمع الأمريكى نحو تضخم العنصر الأسود المسلم ، وتزايد قوته فى نطاق القيادات ، ويقابل ذلك تطور مماثل فى المجتمع الروسى ، بشكل أقوى [١٢] .

ويؤكد كثيرون من المنصفين ـــ من بينهم باحثون من أوروبا وأمريكا ممن كتبوا فى تاريخ الحضارة الإسلامية ومنجزاتها بصدق وأمانة ـــ حاجة البشرية إلى الإسلام . ويرى (جارودى) [١٣] أن هناك مؤامرة تستهدف التجهيل بالحضارة الإسلامية . ومن ذلك مثلا ـــ وهو ماأشرنا إليه فى الفصل الأول من دراستنا الحالية ـــ محاولة جعل أوروبا مركزا حضاريا وإنكار فضل الإسلام وحضارته فى النهضة العلمية والتكنولوجية لأوروبا والغرب ، وتقسيم التاريخ إلى قديم ومتوسط وحديث .

أشرنا فى أكثر من مناسبة إلى العملية الحضارية واستعرضنا بعض النظريات والأفكار ، التى تحاول الكشف عن العوامل المسئولة عن ارتفاع الحضارات أو سقوطها ، رأينا كيف أن (سبنسر) يعتقد أن التطور سُنة كونية لا يلعب فيه العقل الإنسانى دورا حاسما ، بينما أكد كل من (وارد) (وجيدنجز) على أهمية

---

(١١) الإسلام والمذاهب الفلسفية . مرجع سابق . ص (٥٥) .

(١٢) انظر : المرجع السابق . ص (٧٣) .

(١٣) هو فيلسوف فرنسى ـــ اعتنق الإسلام عن قناعة تامة . وقام يدافع بصدق وإخلاص عن الدين الحنيف ويكشف المؤامرات التى استهدفت طمس حقائقه وزعزعة ثقة المسلمين فى دينهم .

انظر : الإسلام والمذاهب الفلسفية . مرجع سابق . ص (٢٥١) وما بعدها .

العقل ودوره الإيجابى فى عملية التطور . ويرى أنصار النظرية الاجتماعية فى تفسير التاريخ ، أن الشعور هو القوة الدافعة للتطور ، وذهب (جيدنجز) إلى أن المجتمع يمثل ظاهرة نفسية ، إلا أنه اتجه اتجاها داروينيا ، عندما زعم أن القوانين الفيزيقية للانتخاب الطبيعى هى التى تحدد قوانين الاختيار الاجتماعى [١٤] .

وقد علقنا على ذلك بأن أهم الجوانب الإيجابية فى النظرية الاجتماعية ، ذلك التأكيد على أهمية الدور الذى يقوم به الإنسان فى العملية الحضارية ... وقلنا : إن الصراع الحقيقى الذى يؤثر فى المنحنى الحضارى ، هو الصراع بين الحق والباطل ، وأن الغلبة فى النهاية دائما للحق .

ويتوقع (Moore)[١٥] تغيرا اجتماعيا مرتقبا نتيجة لهذا الصراع بين قوى الخير وقوى الشر ، مما سوف يؤثر فى شكل وطبيعة التنظيمات الاجتماعية المعاصرة . ويرى (مور) أن من عوامل النجاح ، الإفادة من التوترات الاجتماعية ، ومن فشل الصفوة فى علاج المشكلات الاجتماعية ، وما نجم عنها من حرمان اقتصادى ، فضلا عن التقلص النسبى أو المطلق للحقوق السياسية .

والواقع الذى نراه ، أن انتشال الحضارة الإنسانية من الهاوية التى تتردى فيها يحتاج إلى تكثيف جهود المخلصين فى الدعوة إلى الإسلام ، مع إعادة النظر فى أساليب التربية ووسائل الإعلام ، وتنشيط أساليب ووسائل الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . وتتضمن هذه الجهود التصدى ــ بالحوار الموضوعى والبناء ــ لدعوات التمزيق والمبادىء الهدامة ، كالشيوعية والوطنية والإقليمية والعنصرية ، ومقاومة تيارات التميع العقائدى وموجات الشرك والإلحاد كالبهائية والباطنية ، والمفاهيم اللاإسلامية ، كوحدة الوجود وتوحيد الأديان والدين العالمى وتقديس الأبطال والأشخاص .

إن الحقيقة التى لا ينبغى إغفالها أو تجاهلها ، هى أن العقيدة الصحيحة : هى المنبع الأصيل للثقافة الاجتماعية الإيجابية ، ذات التأثير الإيجابى فى عملية التوازن

---

(١٤) انظر : الفصل السادس .

(١٥) هو (Wilbert Moore) من علماء الاجتماع المعاصرين .
انظر مقاله بعنوان :

«Predicting Discont inuities in Social change» AM. Soc REV. (june 1964) .

الحضارى . وهكذا ، فإن التغير المرغوب لا يتناول وسائل الإنتاج ، أو أساليب الإدارة الاقتصادية أو السياسية ، وإنما التغير المطلوب هو فى النفس البشرية وصدق الله العظيم إذ يقول : ﴿ **إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم** ﴾[١٦] .

---

(١٦) الرعد (١١) .

مراجع الدراسة

أولا : المراجع العربية:

ـ محمد أسد (ليوبولد فايس) :

الإسلام على مفترق الطرق . بيروت .

ـ أنور الجندى :

الشبهات والأخطاء الشائعة فى الفكر الإسلامى . دار الاعتصام بالقاهرة .

ـ د . أحمد العوايشة :

موقف الإسلام من نظرية ماركس للتفسير المادى للتاريخ . دار مكة المكرمة للطباعة والنشر والتوزيع . ١٤٠٢ هـ .

ـ أحمد صادق حسن وآخرون :

معالم التاريخ الإسلامى . القاهرة ١٩٨١ م .

ـ د . حامد عمار :

بعض مفاهيم علم الاجتماع . معهد الدراسات العربية العالية . ١٩٥٩ م .

ـ سيد قطب :

معالم فى الطريق . دار الشروق .

ـ عبد الحليم خفاجى:

حوار مع الشيوعيين فى أقبية السجون . دار الأنصار بالقاهرة . الطبعة الثانية ١٣٩٧ هـ ــ ١٩٧٧ م .

ـ د . عبد الباسط محمد حسن :

أصول البحث الاجتماعى . الناشر . مكتبة وهبة بالقاهرة . الطبعة

التاسعة ١٩٨٥ م .
ـ زكى نجيب محمود ، أحمد أمين:
قصة الفلسفة الحديثة . ١٩٨٣ م .
ـ د . حسين غانم .
التوازن والتحليل الاقتصادى ١٤٠٦ هـ ـ ١٩٨٦ م .
ـ د . عبد الله شحاته :
تفسير الآيات الكونية . دار الاعتصام ـ ١٩٨٠ م .
ـ د . مصطفى حلمى :
الإسلام والمذاهب الفلسفية . دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع . الإسكندرية ـ ١٤٠٥ هـ ـ ١٩٨٥ م .
ـ د. حسين غانم :
النظرية العامة للإنسان والكون (حتمية المنهج الإسلامي) . المؤسسة السعودية بمصر ـ ١٩٨٠ م رقم الإيداع بدار الكتب (٣٠٧٢ ـ ١٩٨٠) .

ثانيا : المراجع الأجنبية :

- Nicolas S. Timasheff : Sociological Theory : its Nature and Growth. New York, 1967. (Translated) .

-john Hicks : Theory of Economic History. London 1973.

-T. parsons : « Evolutionary Universals in Society » American Sociological Review (june 1964) .

-Wibert Moore : « predicting Discontinuities in social Change » American Sociological Review (june 1964).

-H. H. El Yacouhi : political Economy and the Backward Motion of History. Colorado 1977. PP.4 - 7 .

-William Lee Miller & Others : Religion and the Free Society New York. The Fund For the Republic. july 1958.

الفهرس

رقم الإيداع بدار الكتب ٧٨٧٢ / ٨٩

الترقيم الدولى ٧ ـ ٣ ـ ٥٣ ـ ١٤٢٢ ـ ٩٧٧

مطابع الوفاء ـ المنصورة

شارع الإمام محمد عبده المواجه لكلية الآداب

ت : ٣٤٢٧٢١ - ص.ب : ٢٣٠

تلكس : ٢٤٠٠٤ DWFA UN

سلسلة أضواء على الاقتصاد الإسلامى

١ ـ الاقتصاد الإسلامى بين الرأسمالية والشيوعية — أ . محمد على قطب

٢ ـ الزكاة وترشيد التأمين المعاصر — أ. يوســـف كمــال

٣ ـ الإنسان والمال فى الإسلام — د . عبد النعيم حسنين

٤ ـ الإسلام والمذاهب الاقتصادية المعاصرة — أ . يوســـف كمــال

٥ ـ الرسالة المبسطة فى فقه الزكاة — أ . محمد محمد المدنى

٦ ـ الحرية الاقتصادية فى الإسلام وأثرها فى التنمية

د . سعيد أبو الفتوح بسيونى

٧ ـ المضاربة (للماوردى) — تحقيق : عبد الوهاب حواس

٨ ـ الزكاة الضمان الاجتماعى الإسلامى — المستشار / عثمان حسين

٩ ـ حول المنهج الإسلامى فى التنمية الاقتصادية — د . عبد الحميد الغزالى

١٠ ـ إصلاح المال (لابن أبى الدنيا) — تحقيق : مصطفى مفلح القضاة

١١ ـ المدخل لدراسة التاريخ الاقتصادى والحضارى (رؤية إسلامية)

د . حســـين غانـــم

ـ مشكلتى الجوع والخوف وكيف عالجهما الإسلام — د. حسين شـحاتة



دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع ـ المنصورة ش.م.م

الإدارة والمطابع : المنصـــورة ش الإمام محمد عبدة المواجه لكلية الآداب

ت : ٣٤٢٧٧٢١ / ٣٥٦٢٢٠ / ٣٥٦٢٣٠

المكتبة : أمام كلية الطب ت: ٣٤٧٤٢٣ ص . ب : ٢٣٠ تلكس DWFA UN 24004

تطلب جميع منشوراتنا من :

دار النشر للجامعات المصرية ـ مكتبة الوفاء

٤١ ش شـــريف ت : ٣٩٢١٩٩٧ / ٣٩٣٤٦٠٦